

فهد المارك

الجزء الثاني

منشورات

مؤسسة الخافقين ومكتبتها
دمشق

و

المكتبة الدولية
الرياض

الطبعة الرابعة
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

منشورات

مؤسسة الخافقين ومكتبتها
لصاحبها
محمد مفيد بن عزة التميمي
الجمهورية العربية السورية
دمشق - ساحة النجمة - هاتف ١١٥٣٧٦

المكتبة الدولية
المملكة العربية السعودية - الرياض
العليا - شارع الثمانين - مجمع الخليج التجاري
هاتف: ٤٦٤١٨٥١ - ص.ب ٢٢٣٤٨

صورة المؤلف



أعوذُ باللهِ من قومٍ اذا اسمِعُوا

خيراً أسروهُ أو شراً أذاعوهُ

أبو العلاء احمد بن
عبد الله بن سليان
المعري التنوخي



مقدمة

أخي العربي :اليك بعض شيم أهلك واسلافك التي كان لي الشرف بأن وفقت لجمعها وإخراجها من طي الأهمال الى حيز الخلود ، وقد ذكرت في مقدمة الجزء الأول من الطبعة الأولى شيئاً من معاني العبارات الآتية :

ـ أن هــذه الحـوادث وان يكن فيهـا شيء من الروعــة الى الحد الذي يخيل للقاريء بانها وليــدة خيال مصطنع . ولكنها حوادث واقعية لا مجال للشك في صحتها . والسبب أن العربي بطبيعته ميال الى الصدق وأما الاحاديث المختلقة فإنها لا تعيش في عالم العربي العريق قطعياً ، والمرء الذي يعرف عنه الكذب لا يجد من يحترمه ، ولئن كان المرء الكـذاب عند العرب ممقوتا بصورة عامة . فإنه عنـد عرب البـادية منبوذ ومحتقر بصورة خاصة . والادلة على ذلك أكثر من أن تحصى وإذا شئت أن أورد شيئاً منها على سبيل الأختصار سرني أن آتي باعظم دليل على ذلــك : وهو أن النبي محمد عليه الصلاة والسلام عندما جاء برسالته من ربه وشاء أن يقف منه مشركو العرب موقف المكذب والمكابر ، عندئذ تحـداهم

عليه السلام بما يعرفونه عنه من الصدق ، ولما لم يستطع أي مكابر أن يثبت عليه ادنى شيء مما تحداهم به ، عندئذ أقام عليهم الحجة البالغة ، مؤكداً لهم انه كإنسان عاش بين ظهراني قومه اربعين سنة . ولم يستطع ولن يستطيع ، أي واحد منهم أن يثبت عليه أقل حديث يمت الى ادنى معنى من معاني عدم الصدق باية صلة . فإنه من المستحيل أن يكذب على رب العالمين .

فكانت هذه البراهين أكبر دليل على اقامة حجة محمد على قومه ، وعندما وفد أبو سفيان الى « هرقل » سأل أبا سفيان هرقل عن النبي محمد قائلًا له ما معناه « أتعرفون عن محمد شيئاً من الكذب قبل أن يأتي اليكم برسالته » .

وبالرغم من أنه ظل مصراً على عداوته لرسالة محمد حتى اسلم يوم فتح مكة بالسيف .[1]

وعلى الرغم من أن أبا سفيان من اعظم زعماء قريش الذين تصدوا لعداوة الرسول ومحاربته ، بل هو زعيم قريش في غزوة أحد كما أنه زعيم قريش والاعراب المشركين قاطبة ومن دار بفلكهم من اليهود في غزوة الخندق .

أقول : بالرغم من ذلك العداء المتأصل في نفسية أبي سفيان وذلك الحقد الدفين رغم ذلك ، نجد أبا سفيان عندما وجه اليه هرقل السؤال

---

١ - كان ابو سفيان « رض » بعد ان اسلم من المناضلين دون الاسلام

المتضمن ما يعرفه عن محمد من صدق الحديث نجـــده ما استطاع إلا أن يقول : « كنا نعرفه صدوقاً عندما كان بين ظهرانينا . أما الآن فلا نعلم عنـه شيئاً » .

ويقول الرواة عن أبي سفيان انه قال : عندمـا سألني هرقل عمـــا اعرفه عن صدق محمد فكرت ملياً وشئت أن أفتري عليه وأقول أنـــه كذاب ، ولكنني خشيت أن قومي الذين يعرفون محمداً بالصدق وهم في الوقت نفسه حاضرون ويسمعون السؤال الذي وجهه هرقـل الي خشيت ان يحتقروني ، وانني سوف افقد منزلتي عنـدهم لا محالة فيما إذا سمعوا عني اني افتريت وكذبت .

فهذا خلق أبي سفيان وهو مشرك جاهلي يعبد الحجارة ورفاقـــه الذين يخشى انهم سوف ينبذونه إذا كذب ، هم الآخرون مشركون ومن نوعه . ولكنه رغم ذلك ، مـا استطاع أن يكـــذب ويفتري حتى على عدوه اللدود وعدو رفاقه معاً ، وإذا كان الخلق العربي يتنافى مع الكذب في الحين الذي كان العرب منغمسين في جاهليتهم ، فانهم بعدما هذبهم الاسلام وامنوا برسالة محمد بن عبد الله « ص » الذي قال .

« إنما جئت لأتمم مكارم الأخلاق » . بعد ذلك نجد محمداً اعتبر جريمة الكذب أعظم ، واكبر من جميع الذنوب بما فيها الذنوب الكبائر ، بل اعتبر أن الكذب جريمة لا تغتفر بدليل الحديث الوارد عن النبي عندمـا وجه اليه أحد الصحابة السؤال التالي :

أيسرق المؤمن يا رسول الله ؟ قال الرسول : نعم .

- أيشرب الخمر المؤمن ؟ قال : نعم ·

- أيزني المؤمن ؟ قال : نعم ·

- أيكذب المؤمن يارسول الله ؟ قال : لا ·

ولما كان الكذاب منبوذاً عند العرب وهم جهلة . وجريمته لا تغتفر في الاسلام ، فانني أؤكد بأن جميع هذه القصص ثابتة ولا جدال في صحة ثبوتها . اما الاسباب التي جعلتها متوارية ولم تبرز الى عالم الوجود الى الآن هذه الأسباب سبق لي أن أشرت اليها في مقدمة الجزء الاول الطبعة الاولى ، وثمة سبب لم أشر اليه في الجزء الاول وهو ان مثل هذه القصص والحوادث لا يستطيع ان يكتبها الا كاتب من صميم أهل البلاد أنفسهم فحسب ،بل ويجب أن يكون لدى هذا الكاتب ثقافة باللغة العربية الفصحى· وثقافة أوسع بمعرفة الأدب الشعبي نظماً ونثراً . وفي الوقت ذاته ينبغي لمن يريد أن يتصدى للكتابة عن هذا التراث ان يكون لديه بالاضافة الى ما ذكرت المزيد من الاستعداد الفطري لتذوق هذه المعاني كما يكون لديه من الوقت ما يمكنه من التغلغل بين صفوف ابناء الشعب على مختلف طبقاته .

وهكذا ضاع هـــذا التراث القومي أو كاد يضيع بين الكاتب الذي لديه ثقافة عربية دون أن يكون لديه علم بالثقافة الشعبية – وبين الآخر الذي لديه ثقافة بعلم الادب الشعبي ولكنه ليس لديه قدرة على نقل هذا التراث القومي من اللغة العامية الى اللغة العربية الفصحى .

* * *

وبعد فان هـــذه القيم العربية المثلى هي المرآة التي تعكس الخلق

العربي لأنها من صميم الحياة العملية ، يطبقها أولئك القوم من نفوسهم على نفوسهم ، بدون أن يكون هناك أي قانون يرغمهم على تطبيقها مـــا عدا وازع الخلق فقط ، كما لم تكن أية سلطة تعاقب من يشذ عنها اللهم إلا سلطة الوجدان ومحاكمة الضمير ...

وهؤلاء العرب عندمـا يتدبر تاريخهـم المرء بوعـي وانصـاف ، فانـه قل أن يجد أمة في الدنيا توفر لديهـــا من الرصيد الخلقي كما توفر لناطقي الضاد ..

أما كون هذه الأمة مرضت ، وبعد مرضها المزمن الخطير قهرت ، وبعد هذا المرض وذلك القهر ، شمت بها ـ لا أعداؤها الموتورون فحسب، بل حتى أبناؤها العاقون ، ومن ثم ذهب كل من هؤلاء وأولئك يحصي عليها هناتها ويسجل عليها كبواتها .. أقول : اذا كان الأمر كذلك كما هي الحقيقة المحسوسة ، فهذه سنة الكون ، تمرض الأمم كما يمرض الافراد ، وكما انه يوجد لدى بعض الافراد مناعة جسدية وصحية ويكون باستطاعته ان يقاوم جميـع الامراض مهما بلغت من الشدة ، كما يوجد عند بعض الافراد عكس ذلك ، وبقدر ما نرى هذه النظرية منطقية ومعقولة بالنسبة للافراد نراهـا أيضاً معقولة ولا تقبل الجدل بالنسبة للامم ..

واعتقد جازماً أن القاريء المنصف الواسع الاطلاع بتاريخ أمة العرب بصورة خاصة ، وبتاريخ الأمم البشرية بالمفهوم العام الشامل سيشاركني الرأي بأن العلل القاتلة والامراض المميتة والاوبئة المتتالية ، التي اصيبت بها الامة العربية ، لو اصيبت بها أية أمة كانت لمـا استطاعت ان تعيش يوماً من الدهر .

وإذا شئت أن أثبت صحة هذه الظاهرة بالأدلة المقنعة والبراهين النيرة ،

طاب لي أن أقول :

أيستطيع أي مؤرخ أن يثبت أن هناك أمـــة استطاعت أن تتحدى الاحداث مـدة تزيد على ثلاثة عشر قرناً أي منذ مقتل عثمان بن عفـان الى يومنا هذا ومعاول الهدم تحاول أن تقوض صرحها الشامخ .. ومعدات النسف والتخريب تبذل ما استطاعت من الجهد لكي تهد بنيان هذه الامة من أساسه ..؟

فمن الحروب الاهلية التي ابتدأت بين علي ومعاوية ، ثم بين الخوارج وعلي ومعاوية .. ثم بين الامويين والزبيريين .. وبين الامويين والعباسيين.. وبين العباسيين والعلويين ، وبالتالي انتقلت السلطة الى يـــد المماليك فمصر مثلاً .. التي كانت ولم تزل من أعظم البلاد العربية كان يحكمها احمد ابن طولون أحد المماليك ، كما كان يحكمها فيما بعـد المماليك الاخاشدة ، ثم حكمها كافور مملوك الاخشيدي ، وامتد حكم هذا المملوك الذي لم يكن مملوكاً للمماليك الاخاشدة فحسب ، بل ومعدوم (الفحولة) امتد حكمه الى الحجاز والشام ، ووفد اليه مادحاً أبو الطيب المتنبي وقال فيه :

قواصـــد كافور توارك غــــيره

ومن قصـــد البحر استقل السواقيا

كما قال :

واخـــلاق كافور إذا شئت مدحه

وأن لم اشأ تملي عليّ وأكتب

وأي معد يستحقك قدره
معد بن عدنان فداك ويعرب

ويكفيك عما يدعى الناس انه
اليك تعد المكرمات وتنسب

ثم قال فيه أيضاً :

تجاوز قدر المدح حتى كأنه
بأحسن ما يثنى عليه يعاب

ترى أي مرض أعنف وأشد واخطر من مرض امة يقول أبلغ شاعر من شعرائها بإنسان ككافور مثل هذه الابيات ..

ثم ذهب كافور وجاء الى مصر ملوك الفاطميين بقيادة جوهر الصقلي جاء هذا اليها غازياً وفاتحاً ، ثم جاء الايوبيون وازاحوا آخر من تبقى من سلالة الغزاة الفاطميين ، ومن المعلوم أن الأيوبيين من أصل كردي ، ، مع احترامنا واجلالنا للبطل الصنديد صلاح الدين الايوبي ، قاهر الغزوات الصليبية ، ثم بعد الايوبيين جاء المماليك الشراكسة ثم المماليك البحرية وحكموا مصر برهة من الزمان حتى جاء محمد علي جد الخديويين وقضى على

ما تبقى من سلالة المماليك بأسلوب كان الى الغدر اقرب منه الى الوفاء .. ومن المعلوم أيضاً أن محمد علي حاكم مصر لم يكن عربياً وانما كان ارنؤوطياً ، فهذا ما حل في مصر التي تعتبر من أكثر البلاد العربية عدداً واغناها بثروتها الاقتصادية .

وما نقوله عن مصر نقوله ايضاً عن العراق الذي ظل فيه الخليفة العباسي العوبة بيد مماليكه فينصب المماليك من يشاءون من اسيادهم واذا لم يرضوا عنه خلعوه أو قتلوه أو سملوا عينيه .

وأما الشام [1] فلا تسل عما كان يحل فيها من تدهور الأوضاع ومن الحروب الاهلية ومن استعانة بعض امرائهم بالغزاة الصليبيين على البعض الآخر ...

وأما الاندلس ، فلا داعي للحديث المحزن عنه ..

وأما المشرق العربي بما فيه شبه الجزيرة العربية واليمن وجنوب اليمن والبحرين وعمان وقطر الخ . فهذه الجهات كلها لم يكن نصيبها من التعاسة والتفرقة والحروب الاهلية والنعرات القبلية وسفك دماء بعضهم لبعض ، وسوء نظام حكمهم بأقل تعاسة من البلاد العربية السالفة الذكر . هذا اذا لم نقل أنها اسوأ من حالة تلك البلاد من شتى الوجوه ..

فهذه أوضاع البلاد العربية من حيث امراضها وعللها الداخلية ، واذا أضفنا الى هذه الامراض الداخلية العلل التي دهمت أمتنا من الخارج ، إذا أضفنا ذلك طاب لنا بل ساءنا أن نقول : أبتلي العالم العربي بغزوات

---

١ – كلمة الشام كانت تطلق على سورية ولبنان وفلسطين والأردن .

متتالية ، وغزاة متباينين بأساليبهم الوحشية ومتفقين بأهدافهم العدوانية .. فمن الغزو التاتاري الى المغولي .. الى الغزاة الاوروبيين المستعمرين ، بل المستغلين الذين غزوا العالم العربي وتقاسموا خيراته حقبة طويلة المدى ، فمنهم من دحر وطرد كالانجليز الذين طردوا من مصر والسودان ، وكالفرنسيين الذين طردوا من الجزائر ومن تونس ومن المغرب ومن سورية ولبنان .. وكالطليان الذين طردوا من ليبيا ، ومنهم من ظل في بعض الاجزاء العربية يحاول محاولة مستميتة ان يظل كما كان يستغل ثروة هذه البلاد على الرغم من ان محاولته هذه الفاشلة مخالفة لتطور العصر الحديث ، ومضادة لتيار الوعي العربي ، كمحاولة الانجليز البقاء في الجنوب اليمني وفي البحرين وفي عمان الخ .. وفي بعض البلاد العربية التي وان كانت دولة مستقلة ذات سيادة ، ولكن خيراتها واموالها ظلت في البنوك الانجليزية تتمتع بربحها كما تريد ، وكيف تشاء ..

هؤلاء الغزاة الذين تكالبوا على هذه الأمة والذين لم تطب أنفسهم ان يتخلوا عن استغلالهم لمقدراتها واستعبادهم لحريات ابنائها ، حتى وضعوا وتد (جحا) [1] في قلب الأمة العربية ، وجاء هؤلاء الظالمون ،بمشردي اليهود وحثالة البشرية ، وقالوا للحثالة كوني دولة ، فكانت ، وقالوا فليكن اسمك اسرائيل فسميت بذلك .. وقالوا للامم المتحدة فليكن لها مقعد ضمن الدول الشرعية ،

---

١ – ينسب الى جحا الذي تنقل عنه الأساطير انه باع مسكناً له ولكنه استثنى من البيع وتداً في الحائط ، فظن المشترون انه لا اهمية له .. ولكن جحا ظل يأتي كل يوم ويضع على رأس هذا الوتد جيفاً منتنة مما جعل اهل المنزل يزهدون في منزلهم ، واخيراً هجروا المنزل فجاء جحا عائداً الى منزله ..

فلبت الأمم المتحدة هذا الطلب بما في ذلك الاتحاد السوفيـاتي .. لأن هذا الاخير بينه وبين العالم العربي صراع فكري وعقائدي لا يقل ضرره وخطره عن الاستعمار الرأسمالي الغربي .

* * *

هذه صورة مصغرة عن العالم العربي ، ولكن هذه الصورة على ضآلة حجمها ، تجعل بامـــكان ابسط انسان ان يحـــكم على هذه الأمة بأنهـا من حيث الماضي مريضة مرضاً مزمناً .. ومن حيث الحاضر فان قسما منها لا زال في دور النقـــاهة ، وان تكن دبت في عروقه بوادر الشفـاء وبدأت الصحة تسير الهوينا في هيكله الذي انهكه المرض ، ان يكن الأمر كذلك فإن رواسب المرض المزمن لا زالت كامنة في جسده المهدد بنكسة المرض الخطير..

وهناك قسم آخر في سبيله الى دور النقاهة وهو لم يصل من الصحـة الى الدرجة التي وصل اليها القسم الاول .. وهذا مما يجعلنـا نكرر العبارة التي جاءت في السياق ونقول : اننا عندما ننظر الى هذه الأمة بعين الانصاف فإننا سوف نؤمن إيماناً لا يتطرق اليه الشك بأن لديها من المناعة الخلقية الشيء الذي قل ان يضارعها فيه احد ..

أجل .. لو لم يكن الأمر كذلك ، لقضت تلك العوامـل قضاء مبرماً على حياتها من شتى الوجوه ، ولمـا بقي لهذه الأمة أدنى أثر في عـــالم الوجود ..

قد يظن أحد انني اتحدث بدوافع عاطفيـة بدون ان استند الى شيء

من الأدلة والبراهين ، ولكي افند هذا الظن يحسن بي أن اثبت صحة حجتي هذه بما هو آت :

.. ترى أيستطيع أي مكابر أن يثبت بالأدلة القاطعة بأن هناك أمة من الأمم واجهتها حوادث متتالية وحروب متعاقبة وأعداء من كافة أرجاء الدنيا سواء من المعسكر الغربي الرأسمالي الذي تصدى لعداء هذه الأمة بصورة سافرة علنية ذلك التصدي الذي لو لم يكن منه إلا خلقه لاسرائيل ومواصلة امداداته لها غذائياً وعسكرياً ومعنوياً وبالتالي تعهده بحمايتها فيما إذا شعرت بخطر يهدد حياتها من أمة العرب ..

أو من عداوة المعسكر الشرقي الذي لم يلتق على صعيد واحد هو وأعداؤه الغربيون إلا في عداوتها للعرب ليس إلا ..

أجل أية أمة من الأمم تضافر على عدائها هذان العدوان الجباران ومن ورائها اليهودية العالمية التي بذلت وسوف تبذل كل ما تملكه من قوة مادية في سبيل بقائها الذي لا يتم إلا على حساب سحق العرب .. قل لي بربك أية أمة تستطيع أن تقف لمواجهة هذه الاحداث القاسية بل القاتلة دون ان تتلاشى من عالم الحياة ..

زعم المستر -تشرشل- في مذكراته ، بل افتخر بأن شعبه الانجليزي وقف وحده أمام الجيش الالماني ، وهو زعم باطل من أساسه ، وذلك انه عندما دخل الحرب كانت فرنسا في بداية الأمر واقفة بجانبه ، فكان من نتيجة ذلك ان الجيش الالماني رمى بثقله كله على فرنسا فتنفست بريطانيا الصعداء .. هذا في بداية المعركة ، أما في منتصف المعركة فقد دخلت روسيا الحرب ، الأمر الذي جعل قوة الجيش الالماني تفك الحصار عن بريطانيا

وتذهب بجيشها اللجب الى روسيا .. فتنفست بريطانيا أيضاً الصعداء مرة ثانية .. ثم جاءت خاتمة المطاف بدخول امريكا الحرب بجانب بريطانيا .. يضاف الى ذلك ان امريكا من أول بداية الحرب وهي تمد بريطانيا بالغذاء والمعدات الحربية ..

إذن لم تقف بريطانيا وحدها ضد الألمان كما يزعم ويفتخر تشرشل ، ولو وقفت بريطانيا وحدها ضد المانيا وجهاً لوجه بدون معونة ومؤازرة أية دولة ، لو كان الأمر كذلك لما بقي اليوم دولة في الدنيا تسمى بريطانيا !

ومن هنا نستطيع أن ندرك مدى مناعة العالم العربي الذي كان ولا يزال صامداً وحده منذ قرون عديدة ضد جميع القوى المتكالبة السالفة الذكر ..

ومما هو جدير باعجابنا بقوة المناعة الوقائية التي يتمتع بها العالم العربي، هو أن معاول الهدم التي تتصدى لسحقه وتحاول تقويض صرحه لم تكن محصورة بأعدائه الذين جاء ذكرهم في السياق ، بل حتى الانانيين والعاقين من أبنائه يسعون لسحقه بقصد أو بغير قصد .. فكم سمعنا ورأينا وقرأنا من العبارات التي دبجتها اقلام بعض الكتاب العرب الذين لا يخلون من أحد امرين : أما ان قوة الاجانب المادية أعمت بصائرهم عن كل ما هو حسنة من حسنات أمتهم ، وجعلتهم ينظرون الى كل مـا يصدر عن المنتصرين بعين ملؤها الاعجاب والتقدير وفقاً للمثل القائل :

(المغلوب الضعيف معجب بكل ما يصدر من غالبه ، وزاهد بما يصدر من ذويه)..وأما انه يخيل الى أحدهم انه لاينظر اليه كمثقف أو كفيلسوف

إلا بعد ان يعلن ازدراءه لأمته ، وفي الوقت ذاته يشيد بإعجابه بالغزاة بكل تعبير عار من الكياسة والذوق والأدب ..

اجتمعت ذات يوم بعربي من النفر الذين لديهم ثقافة واسعة النطاق وذكاء متوقد وتفكير عميق .. بل ومؤلفات متباينة الاهداف ، فوجه اليّ صاحبي السؤال التالي :

– أراك ذكرت في مؤلفك «التطور الفكري» جملة تشير بها الى (انه لا يوجد أمة توفر لديها من المثل العليا كما توفر للأمة العربية) الخ ..

ولما كنت أعرف أن محدثي من النوع الاول السالف الذكر أي من المغرمين بأفعال المنتصر بقدر ما هم زاهدون وماقتون لما يبدو من المغلوب .. لما كنت أعرف هذه الحقيقة عنه فقد وجدت نفسي مضطراً لأن أجيبه جواباً مفحماً ومعقولاً فقلت :

« ترى لو أن هذه الجملة التي تريد أن تحاسبني عليها صادرة من كاتب ما بحق الأمة الانجليزية في القرون المنصرمة التي كان الانجليز فيها يباعون ويشرون في أسواق روما كما تباع السائمة والامتعة .. أما يجد ذلك الكاتب الذي يقول مثل هذه الكلمة من يلومه على كلمته هذه ويؤنبه كما تلومني أنت الآن ؟.

ثم استطردت وقلت : ان الظروف التي جعلت من الانجليز الذين يباعون في الاسواق بالامس شعباً يعتبر اليوم من أرقى الشعوب الغربية ، حرى بها الف مرة ان تجعل من الامة العربية أمة تسترد مكانتها في عالم التاريخ لانها أمة لديها مجد موروث في الحين الذي لم يكن للانجليز أدنى تراث

تاريخي عريق يضاهي تاريخ أمة العرب ..

فصمت صاحبي صمتاً لا أظن انه آمن بما قلت، كما انني لا أظن أن لديه جواباً يدحض به حجتي أو يفند به رأيي ..

* * *

ولما كان العالم العربي فيه من هو مريض مرضاً مزمناً موروثاً ومع ذلك لم ييأس ولم يستسلم للمرض الخطير ، وانما يحاول أن يسير في الطريق الذي سلكه الاصحاء ومن سار على الدرب وصل . وفيه من هو اليوم يمر بدور النقاهة الذي لم يتجاوزه بعد .. فإنه يجب علينا والحالة هذه أن نلتمس له جميع المبررات وان نؤمن بأن الزمان يسير لصالح العرب.. وان كانت بعض الدلائل الحالية لا توحي بالاطمئنان .. ولكن تطور الزمان يسير كله في جانب العرب .. وكل ما أرجوه هو أن يذكر أولئك الزاهدون بأمتهم العربية والمعجبون بأعدائهم ، عليهم ان يذكروا أن الفترة التي تسمى عند الاوروبيين بالقرون الوسطى .. أي فترة التدهور والانحطاط،هذه الفترة تعتبر عند العرب فترة الانتصارات والفتوحات والازدهار .

* * *

هذا وقد اجدني ملزماً بأن أذكر ان هناك من الكتاب من وجه الي

نقداً خاصاً في ما له علاقة بكتابي الجزء الاول ، والنقد الذي وجهه اليّ الناقدون هو قولهم : كان من الافضل على حد زعمهم أن أترك القصة على ما كانت عليه في لغتها الشعبية .

والحق ان الذين وجهوا اليّ نقداً بهذا المعنى أكثر من واحد سواء منهم من نقدني كتابة ومنهم من نقدني برسالة وجهها إلي بدون أن اعرفه – ومن صارحني بنقده شفهياً وجهاً لوجه . وعلى كل فانني متوقع مثل هذا النقد وفقاً للمثل القائل : « من ألف فقد استهدف » .

وكان جوابي عليهم جميعاً ما يلي :

أولاً – انني لو نقلت القصة باللغة الشعبية كما رويتها فانني لا أجد من يقرأها من الناقدين أنفسهم .

ثانياً – انني عندما أكتب هذه القصص العربية لا أقصد من وراء كتابتي لها ان اعرضها على العوام الشعبيين وإنما أقصد بأن انقلها بمعانيها الى عشرات الملايين من أمة الضاد بدون أن أبدل بأصل المعنى وجوهره أدنى شيء .

ثالثاً – لو كتبتها بلغتها الشعبية فانني سوف لا أجد من يقرأها من القوم الذين كتبتها بلغتهم اللهم إلا العدد القليل جداً ، وذلك للأسباب الآتية :

منها ان الذين يعرفون اللغة الشعبية بصفتها لغتهم المحلية فهؤلاء الكثير منهم عوام لا يحسنون القراءة كالبدو وأمثالهم .

ومنها ان الجيل الحديث من أبناء الجزيرة أصبح الكثير من متعلميهم

لا يعرف شيئاً من الأدب الشعبي بحكم شيوع الثقافة العربية الفصحى ، وحتى اذا وجدنا منهم من يعرف مثلاً معاني الشعر القومي فانه لا يتذوقه كما يتذوقه أهله القدامى ..

ومنها ان القصص الشعبية التي أوردتها في هذا الكتاب ليست مقصورة على جهة ما ، بل كما هو واضح انها من جهات شعبية مختلفة .

ومن المعلوم ان اللغات الشعبية عند قبيلة ما تختلف لهجتها عند القبيلة الأخرى ..

وما يقال عن اختلاف لغات القبائل الشعبية يقال عنه أكثر في اختلاف اللغة الشعبية مثلاً بين الجزائري والسوداني وبين الليبي واليمني - بل حتى بين ساكني شبه جزيرتنا العربية انفسهم ..

فهل يطلب مني هؤلاء الناقدون أن سرد القصة التي رويتها بلغة الليبي الشعبية أو بلغة السوداني أو الجزائري الخ ?... هل يريد هؤلاء على حد رأيهم ان يكون كتابي مزيجاً من هـذه اللهجات الشعبية المتباينة - تلك اللغات التي لو لم تسنح لي الفرصة بزيارة تلك البلاد ، ومخالطة اهلها لولا ذلك لما استطعت ان افهم من لغتهم الشعبية ادنى شيء ?.

وهل ألام فيما اذا كتبت هـذه الحوادث باللغة العربية الفصحى لكي يقرأهـا جميع ابناء الامة العربية من المحيط الى الخليج على مختلف لغاتهم المحلية?..

وجوابي على بعض الادباء الذين تحدثوا معي صراحة قائلين : أما كان

الاحرى بكتابك « من شيم العرب » أن يكون ككتاب الاغاني وككتاب قصص العرب الخ من الكتب التي نقلها المؤرخون والكتاب عن العرب في لغتهم العربية ، ودونوها في نفس تلك اللغة .

جوابي على ذلك هو ان اولئك الكتاب الذين ألفوا تلك الكتب باللغة العربية انما نقلوها عن اهلها الذين كانوا يتحدثون اللغة العربية السليمة عندما كانت تلك اللغة هي لغتهم المحلية بدون ان يطرأ عليها اي تبدل يفسد جوهرها الاصيل .

* * *

وليس لدي من الجواب النهائي للاخوان الناقدين إلا أن أقول - هذا مجهودي الخاص الذي بذلت فيه جل جهدي منذ زهرة شبابي فمن كان لديه رصيد من هذا التراث فما عليه الا أن يدونه ويكتبه بالاسلوب الذي يختاره ، مع العلم بأن الفترة التي طبعت فيها كتابي الجزء الاول أخذت مدة بلغت ما يقارب عشر سنوات ، وكان الاحرى بالناقد أن يكون في خلال تلك الفترة ما استطاع أن يؤلف كتاباً « عن شيم العرب » التي لا حصر لها . وان يقدم لأمته شيئاً من هذا التراث بالاسلوب الذي يهواه ويختاره .

هذا جوابي على من ينقدني بما أشرت اليه من حيث نقد الكتاب من الذين لا شك عندي بأن نياتهم حسنة .

أما جوابي على الناقدين الآخرين الذين منهم من نقدني عن

قصد حسن ومنهم من نقدني عن نية الله أعلم بهـا ، وأعني اولئك الذين قالوا انني لم أكتب الا عن جهة معينة ، بل وقد بلغ ببعضهم الفقر من العلم والانصاف حداً لا مزيد عليه كما بلغ رصيدهم من العقلية القبليـة الجوفاء درجة جعلت نقدهم اليّ موجهاً بمعنى يفهم منه بأنني لا اكتب الا عن جهة ما من الجهات التي تربطني بها رابطة القربى .

فجوابي على هؤلاء هو أنني كأي عربي مخلص لأمتـه أعتقد جازمـاً أن آية مكرمة تنالها آية جهة كانت من أمة العرب فإنما هي ملك مشاع للعرب جميعاً .

هذا جوابي بشكل عام – أما جوابي بصورة خاصة فهو انني أعلنت في صحف بلادنا المحلية أكثر من مرة طالباً من أي واحد له المام بالاحداث التي تمت الى الشيم العربية بأدنى صلة أن يوافيني بأي شيء من هـــذ التراث كما أوضحت فصول الكتاب الذي يشمل المعاني التي أطلبها من الرواة – ومن المؤسف انه لم يردني أي شيء من الحوادث التي تستحق أن أسجلها في حقل شيم العرب .

ترى هل يظن هؤلاء الناقدون او الحاقدون السطحيون أنني وجدت شيئاً من شيم العرب لجهة ما وانني اغفلته ؟

وانني اذ أرد على الناقدين من كلتا الجهتين . فإن من دواعي فخاري أن أقدم للقراء تعريفاً عن هذا السفر المتواضع موضحاً كما يلي :

الجزء الأول فيه ٣٢ قصة موزعة على الفصول الآتية :

الفصل الاول – الوفاء

الفصل الثاني – العفو

الفصل الثالث – الامانة

الفصل الرابع – عفة نساء العرب

الجزء الثـــاني ٤٥ قصة

الجزء الثالث ٣٨ قصة

الفصل الاول - الشجاعة الحربية

الفصل الثاني - الشجاعة الادبية

الفصل الثالث- الشجاعة الفكرية

الفصل الرابع- شجاعة الساعد

الجزء الرابع ٤٢ قصة

الفصل الاول - إكرام رفيق السفر والذود عنه

الفصل الثاني - النخوة العربية

الفصل الثالث-المروءة

الفصل الرابع-الفراسة

وأخيراً أرجو القارىء الكريم أن يقبل معذرتي فيا اذا وجدني اطلت الكتابة في هذه المقدمة ، وذلك لانها مقدمة لجميع الأجزاء الثلاثة - كما أن هناك بحوثا ذات علاقة بصميم هذا الكتاب اضطرتني الى أن استرسل في هذا الموضوع

كما أكرر رجائي من الناقدين الكرام من كلا الجانبين إن يكونوا الى جانب التسامح أكثر . ولا سيا اذا أكدت لهم ان ما قمت به بجمع هذا التراث هو اقصى ما بذلته من الجهد وابعد ما وصلت اليه من الاجتهاد والاخلاص وقديما قالت العرب لا يلام المرء بعد الاجتهاد

المؤلف

الفصل الأول

حماية المستجير

« وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه »

(قرآن كريم)



منتهى التضحية وأسمى معاني المروءة

- ١ -

قرأنا في كتب الأدب العربي وفاء كل من الأديبين المشهورين عبدالحميد الكاتب وعبدالله بن المقفع ، والرواية تفيد أن الاول كان متوارياً في بيت الثاني، خوفاً من سلطان الدولة العباسية التي كانت تنقب عنه لتضرب عنقه ، بصفته أمين سر مروان آخر خلفاء بني أمية الملقب بمروان الحمار ، وعبد الحميد بالاضافة الى أنه امين سر مروان كان كاتبه الخاص، بمعنى رئيس الديوان الملكي بالعصر الحديث وبعد الجهد الكبير الذي بذلته الدولة العباسية للعثور على عبد الحميد ، وجده جنود السفاح العباسي مختبئاً في منزل صديقه عبدالله بن المقفع حسب الرواية المنقولة .. وكان الجنود لا يعرفون شخص عبدالحميد مما جعل عبدالله بن المقفع يتطوع بمحض ارادته ووفاء منه ويلقي بنفسه بين جنود السفاح الجبار قائلا :

– ها أنذا عبدالحميد الكاتب الذي تسألون عنه، وعندما أراد أن يقوده الجنود الى عالم الاموات أسرع الكاتب وقال :

– ان الرجل افترى عليكم إنني أنا عبدالحميد الكاتب أما هذا فإنما هو عبدالله بن المقفع. فأخلوا سبيل المقفع ثم قادوا الكاتب وقتلوه ..

لقد كان لهذه القصة مكانة مرموقة في كتب الأدب، مع العلم اليقين اننا عندما نوازن بينها وبين قصتنا لتي سوف نوردها في هذا الباب نجد أن هناك تبايناً كبيراً بين هذه وتلك :

أولاً – ان قصة ابن المقفع وصديقه وقعت في مستهل القرن الثاني الهجري أي من مدة اثنى عشر قرناً ونيف .. فإذا سلمنا جدلاً بصحة وقوعها فلنا أن نقول : ان الوفاء والتضحية بين الاصدقاء في ذلك العهد شيء مألوف ، ولم يكونا موضع غرابة كغرابتها بعصرنا الحديث الذي لا يقال عنه إلا انه عصر مادي عار ومجرد من أي شيء يمت الى الامور المعنوية أو الروحية بأدنى صلة من الصلات.

ثانياً – هناك من الاضطراب في الرواية ما يجعلنا نشك في صحة الحادثة عندما ناقشها من الناحية التاريخية على الوجه الآتي :

من المعلوم ان ابن المقفع كان مجوسياً ولم يسلم إلا في عهد الدولة العباسية على يد عيسى بن علي ، فيكون بين المقفع والكاتب تباين في الرابطة الروحية العقائدية التي هي أقدس الروابط وأوثقها صلة خاصة في ذلك العهد فإذا أمكن أن نصدق بأن أحد علماء المسلمين المتعصبين الاتقياء يفتدي نفسه بشيوعي متعصب كخالد بكداش مثلاً أو العكس ، إذا أمكن أن نصدق بذلك جاز لنا أن نصدق أن مجوسياً كأبن المقفع يفتدي نفسه ويدفعها قرباناً لمسلم كعبد الحميد الكاتب ..

ثالثاً – من المعلوم أن ابن المقفع قتله المنصور في العراق سنة ١٤٦ هـ . وكان سنه وقتذاك ثلاثين سنة بينما نجد عبدالحميد الكاتب قتله السفاح في مصر سنة ١٣٢ هـ . فمعناه أن ابن المقفع في سن السادسة عشرة في التاريخ الذي قتل فيه عبدالحميد، أي في سن المراهقة فكيف ترسخ عرى الصداقة بين كهل كعبدالحميد وصبي مراهق كأبن المقفع .. ومن هنا يكون التباين سافراً بالعقيدة وبالسن ..

ومثل فصول هذه الرواية المضطربة يجعلنا لا نؤمن بصحة قصة ابن المقفع والكاتب كإيماننا الراسخ بهذه القصة التي لا زال بطلها حياً، وروانها على قيد الحياة وتاريخ حدوثها في عام ١٣٦١ هـ .

في قمم الجبال

في جنوب شبه الجزيرة العربية وفي رؤوس الجبال الواقعة بقرب قرية تسمى (بيش) من قرى جازان تقيم هناك قبيلة من قبائل العرب يقال لها قبيلة الصهاليل قحطانية النسب يعيش رجالها ونساؤها من ألبان ولحوم اغنامهم وزراعتهم .. وقل أن يأتي أحد منهم لمدينة جازان ، اللهم إلا في المناسبات الطارئة النادرة، وإذا قدر لأحدهم أن يأتي المدينة لقضاء غرض ما فيدخلها بحذر وبسرعة خاطفة ، فكأنه طير في قفص لا يهدأ له بال حتى يفارق البلاد وأهلها ويعود الى رؤوس جباله يغرد بين أشجارها وهضباتها كالبلبل عندما تزدهر الاشجار وتينع الاثمار في ليالي الربيع ..

ويعيش بين رجال هذه القبيلة فتيان أقوياء الشكيمة شديدو المراس وكل فتى منهم يرى لنفسه من الشجاعة والاعتزاز بالنفس القسط الوافر. ومن النادر أن يذعن بعضهم لبعض وكانوا مختلفين في سيرتهم وفي حل مشاكلهم المتعددة ، فمنهم من لا يتورع من أن يكون قاطعاً أو سارقاً أو معتدياً على ضعيف لا حول له ولا طول ، ولا يهمه إلا أن يثبت قوة عضلاته وشجاعته بين رجال قبيلته حتى يكون مهاباً بصرف النظر عن كون شجاعته هذه على حق أو على باطل فكله سيان ما دامت النتيجة أن يهابه فتيان الحي ويخشون سطوته، ومنهم من يبتعد كل الابتعاد عن أذية أي كان ويحاول ما استطاع أن لا (يتحرش) بأولئك الذين يؤذون ويظلمون من يقع بين أيديهم ..

أسد لا يؤذي ولا يرحم من يؤذيه

وكان من بين أولئك الفتيان القلة الذين لا يجتنبون الأذى والايذاء ما استطاعوا، فتى يدعى (ناجع الصهليلي) قليل كلامه ، كثير حياؤه ، لا يعرف عنه يوماً من الدهر انه آذى أحداً أو أساء الى أحد ، كان في صمته يشبه الاخرس وفي حيائه

يشبه الفتاة العذراء ، كان جل همه رعي غنمه القليلة العدد التي لا يزيد لبنها عن حاجة أمه وأبيه ، ولكنه رغم اجتنابه المشاكل وابتعاده عن الأعمال العدوانية التي يقوم بها بعض اقرانه ، بالرغم من ذلك فان الفتى لا يدع البندقية تقع من يده لحظة واحدة ، فكان دائماً وأبداً متوشحاً بالذخيرة ومتقلداً بندقيته ومستبطناً خنجره ، وكان صمته الطويل ، وحياؤه الكثير ، لم يجعلا له وقاراً في صدور البعض من فتيان قبيلته ، الذين يعتبرون الصمت عجزاً ، والحياء ضعفاً ، وكذلك بندقيته التي لا تفارق يده وذخيرته التي يتوشح بها جنباً الى جنب مع بندقيته وخنجره المصقولة التي يضعها تحت صدره وفوق خاصرته من الجانب الايمن ، كل هذه المعاني لم تجعل له أية هيبة عند النفر الذين لا يعرفون لغة إلا اللغة التي من جنس عملهم الذي هو النهب والسلب والضرب ، والقتل اذا استدعى الأمر الى ذلك .

وفي احد الايام تجمع خمسة فتيان من الفتيان (القبضائية [1])وقدروا ان يهجموا على ناجع وينهبوا منه غنمه ويسلبوا منه بندقيته الجميلة وخنجره الفضية ، وفي غفلة منه أو عدم مبالاة منهم به ، هجموا عليه كما تهجم الذئاب على الحمل الوديع ، وفي أسرع من لمحة البصر انقلب الفتى الخجول الصامت الى اسد هصور ، فبرك على الأرض وصوب فوهة بندقيته التي كان في بطنها خمس طلقات نارية على الاول من المعتدين فأرداه قتيلا ، ثم صوبها نحو الثاني فكان مصيره كمصير زميله ، وهكذا أبادهم كلهم في دقائق معدودة بدون ان يترك لأي واحد منهم فرصة للقتال أو حتى للفرار ..

كان لكل واحد من هؤلاء الفتيان صولة وجولة في البلاد ، وكان مصرعهم على يد ذلك الفتى الخامل الخجول مبعث السرور والاطمئنان في صدور كثير من المواطنين الآمنين وفي الوقت ذاته أدخل الرعب والهلع في قلوب قطاع الطرق

---

١ – كلمة قبضائية تطلق على اسم الفتيان المفتولي الساعد الذين يخيفون ولا يخافون لكثرة مشاكلهم ، ومفردها قبضاي .وهي تركية الاصل .

الذين رأوا أن طليعتهم لقوا حتفهم على يد ذلك الفتى الذي لم يأبهوا له ولم يحسبوا له أي حساب .

وكان من حق الوالي على منطقة جازان الذي هو خالد بن احمد السديري أن يعاقبه فيما لو جاءته أوامر صارمة من المرحوم الملك عبد العزيز تقضي بعقاب ناجع وما دام الملك لم يهتم كثيراً بأمر المقتولين بعدما شرح له الوالي بأنهم قطاع طرق فانه من مسلمات الأمور ان الوالي لم يعر القضية اهتمامه أكثر من انه وضع اسمه في حقل القائمة السوداء .

بلغ الخبر (ناجع) ان حاكم المنطقة وضع اسمه في القائمة السوداء للمجرمين وانه اذا ظفر به سوف يحاكمه على قتله المواطنين الخمسة ، ولكن ناجعاً لم ينقل كثير هم لهذه الاخبارية لعدة أمور :

أولاً ـ انه لا يفكر ان يذهب الى المدن التي فيها شرطة للحاكم .

ثانياً ـ وثوقه من نفسه ألا يستطيع أحد من الشرطة ولا من غير الشرطة أن يلقي عليه القبض لا ميتاً بعدما يدفع ثمناً لحياته من الرجال الذين يحاولون تسليمه للحاكم .

ثالثاً ـ انه مطمئن بأنه حتى ولو قدر المستحيل وهجم عليه قوم من جنود الحكومة وهو نائم ثم شدوا وثاقه وقادوه مكبلاً الى سجن الحاكم فانه لا يدينه الشرع الاسلامي لا بالقود ولا بدفع الدية بدليل الحديث النبوي الشريف القائل: « قاتل دون شراك نعلك».

وما دام ان شريعته تأمره بالقتال دون شراك النعل لمن يحاول الاعتداء عليه، فان من بديهيات الأمور أن يكون قتال كقتاله دون نفسه وماله جائزاً شرعاً وعقلاً...وحتى لو قتله المعتدون فان حكمه يكون كحكم الشهيد بدليل الحديث الشريف القائل : « من قاتل دون ماله وقتل فهو شهيد » .

كل هذه الأدلة كافية ان تجعل ناجعاً لا يخاف من الحاكم حتى ولو وقع بيديه .

لا أعرف مخلوقاً يجيرني سواك

أصبح لناجع من الشهرة الممزوجة بالهيبة والوقار قدراً جعله محطاً للأنظار وأمسى صمته الذي كان يعتبر بالأمس عجزاً ، يعتبر اليوم حكمة ، وحياؤه الذي كان يظن انه ضعف ، أصبح بعين مواطنيه قوة ووقاراً ، وبات الذي يخاف من أية قوة كانت ولا يعرف من يجيره ويحميه يذهب الى ناجع فيجده حصناً منيعاً لا تخفر له ذمة ولا يهتك له جوار .

وعلى هذا الاعتبار ليس الأمر غريباً أن يأتي الى بطل قصتنا شخص مطالب من قبل أحد امراء تلك المقاطعة وهو المدعو راشد بن غنيم الذي ولاه حاكم المنطقة على قرية (بيش) سالفة الذكر . لا ليس الامر غريباً أن يستجير هذا الشخص بـ(ناجع)ويؤكد له بأنه لا يعرف مخلوقاً يجيره ويحميه سواه،ولم يكن ناجع مسروراً بمجيء هذا الرجل الذي سوف يجر له مصيبة بعيدة المدى ، لأنه لم يكن مستجيراً به عن أمير القرية راشد بن غنيم الذي لا يعدو أن يكون أميراً عادياً وضعه والي جيزان في قرية متواضعة ، ولكنه مستجير عن سلطة الحكومة التي من وراء الوالي وحاكم المنطقة ، ولم يسع ناجع إلا أن يسلم أمره لله ويتخذ أقصى ما لديه من التدابير الوقائية لحماية جاره وأهم تلك التدابير وصيته لجاره بأن يبتعد ما استطاع عن الاماكن التي يمكن أن يراه بها شرطة حاكم القرية لئلا يقع بأيديهم لعلمه انه ما من أحد من الشرطة يجرؤ أن يقدم على مستجيره ما دام انه قريب منه ، لأن الشرطة أنفسهم من أهل البلاد ويعرفون ناجعاً جيداً ..

ولكن مستجيره وجه الشؤم لم يأخذ بوصيته ، فراح يدور حول الحمى حتى وقع بيد شرطة حاكم القرية ابن غنيم الذي اشبعه ضرباً بالعصي بدون أن تأخذه به رأفة ..

أردت عمراً وأراد الله خارجة

يعتقد ناجع أن مستجيره لم يرتكب خطأ بحق أمير القرية يستحق هذا العقاب

القاسي ويخيل اليه أن عقاب الامير له من أجل انه مستجير به ، وهذا يعني تحدياً من أمير القرية لكرامته ، وامعاناً بخفره لذمته ، بالاضافة الى ذلك ان قضية الضرب عند أهل اليمن تعتبر مهانة وتحقيراً من الضارب بحق المضروب وحسب تقاليدهم ان الرجل يقتل أهون وأفضل له من أن يضرب لأن الضرب عندهم لا يكون إلا للحمار .. أما الرجل فلا يضرب .. ولو خير المضروب بأن يضرب بالعصا أو بالسيف لفضل الاخير ..

كل هذه الامور حفزت ناجعاً على أن ينتقم من ابن غنيم الذي تعمد اهانته بضربه لجيره ، وإنما كيف الطريقة التي يتمكن بها أن ينتقم منه ، فأبن غنيم في وسط القرية وهو أميرها وقصره منيع فيتحتم على ناجع والحالة هذه أن يعرف أولاً أسواق القرية .. والطريق الذي يؤدي الى القصر ، ثم ينبغي له بعدما يعرف القصر أن يعرف المكان الذي ينام فيه ابن غنيم في وسط القصر ، وإذا تأكد من ذلك عليه أن يقدم على تنفيذ خطته ..

وهكذا راح في احدى الليالي يتعرف أسواق القرية ثم راح في الليلة الثانية يتعرف الطريق الذي يؤدي الى القصر .. ثم الى معرفة المكان الذي ينام فيه أمير القرية وبطبيعة الحال كان يروح في لياليه هذه الثلاث مختبئاً وبعدما تأكد من معرفة هذه الاشياء وعرف كيف يحسن الدخول والخروج ، عند ذلك توشح ذخيرته وتقلد بندقيته واستبطن خنجره وراح الى القرية في آخر الليل ، حتى وجد الامير (كما يظن) نائماً في فراشه المعتاد الذي سبق أن سبر غوره فيه ، فوثب عليه وقطعه أرباً في خنجره بدون أن يحتاج الى اطلاق الرصاصة التي تحدث دوياً قد يصحو من أثر صوتها النائمون في القصر ثم عاد الى جبله هادىء البال بعدما قضى على حياة الرجل الذي تعمد اهانة مستجيره لا لشيء وإنما من أجل أن يخفر ذمته ليس إلا ، ومن خفر ذمته بمستجيره ، فليس له إلا هذا العقاب..

ولم يخطر ببال ناجع قطعياً ان الامير ابن غنيم لا زال حياً سليم القوى وانه بتصرفه هذا الخاطيء قتل نفساً بريئة من أهل القرية الذين يبيتون في دار ابن غنيم ، هذه الخطيئة لم يعرفها إلا فيما بعد ، حيث ثبت لديه مؤخراً بأنه حصل معه

كما حصل مع الخارجي الذي تعهد بأن يقتل عمرو بن العاص عندما يؤم الجماعة في صلاة الفجر كالمعتاد . إلا أن عمراً في تلك الليلة بالذات تأخر عن صلاة الفجر ووكل عنه بالنيابة (خارجة) فقضى الخارجي على نائبه ظاناً انه عمرو ، وهذا ما حصل مع ناجع طبق الأصل الذي حصل مع الخارجي .

من يصطاد الأسد في مغارته

بلغ الخبر حاكم المنطقة السديري فتكدر جداً لهذا النبأ ، وإذا كان الحاكم ترك ناجعاً في قتله للخمسة الفتيان ولم يحاكمه فان السبب لذلك يعود الى أن الملك عبدالعزيز لم يأمر بعقابه ، أما الآن فأنه من المستحيل أن يتركه بعدما قام بعمليته هذه ، لأن بقتله لهذا الرجل في وسط دار الامارة تحدياً للحكم واستهتاراً بسلطة الحكومة بصورة علانية ، وإذا لم يؤدب الحاكم هذا المعتدي فانه سوف يتجاسر الناس على الفتك بعضهم ببعض فكل من له ثأر عند أي واحد من أهل البلاد فانه سوف يذهب ويأخذ ثأره بيده ، بدون أن يرفع الأمر للحكومة وعندئذ سوف لا يكون للحكومة أدنى هيبة وسوف تعم الفوضى جميع البلاد

وليس أمام الحاكم الا أن يلقي القبض على ناجع ليعاقبه بضرب عنقه ، ولكن المشكلة تأتي عند اختيار الجنود الذين يتولون تنفيذ هذه المهمة ، ولا سيما وقد بلغ الخبر ناجعاً أن الحاكم أهتم في أمره وانه سوف يأمر رجالاً من جنوده مهمتهم استلامه وتسليمه اليه ، لم يهتم ناجع كثيراً لهذا الانذار ولم يغير شيئاً من سلوكه ، فبندقيته التي أردى بها الخمسة لا يضعها من يده بل ظلت على ما هي عليه وخنجره الذي مزق بـه أشلاء المعتدي على مستجيره كما يتوهم ظلت مصقولة كما كانت ، فان يكن بدل شيئاً فإنما هذا التبديل يكون في ناحيتين :

الاولى - هي موضع منامه ، فقد غيره عن المعتاد فظل ينام في مكان مجهول ،

الثانية - قضية الذخيرة لم يتركها على ما هي عليه وانما باع عدداً من غنمه واشترى بثمنها زيادة من الرصاص ، كما ازدادت عنايته ببندقيته التي ظل يتولى

تنظيفها بصورة دائمة .. وعند ذلك أوصى ناجع جنود الحاكم بصورة غير مباشرة قائلًا لهم: من أراد أن تثكله أمه فليأت:

لم يكن الحاكم جاهلًا حصانة الجبال التي يختبيء في قلبها ناجع ولا جاهلًا باقدام وشجاعة الفتى .. ولذلك لم يفكر أن يعرض جنوده لمغامرة قد تكون فاشلة وقد تكون ناجحة فإن كانت الاولى فهي نقص على الحكم فيما إذا تظاهر بارسال جنود من عنده ومن ثم عجز الجنود عن استلامه أو قتله.

وان كانت الثانية وظفر جنوده بقتله أو استلامه فإن ذلك لا يتحقق إلا بعد أن يخسر من رجاله عدداً كثيراً، مع العلم بأن تسلمه حياً يكاد أن يكون مستحيلًا والحاكم في حالة كهذه يود أن يتسلمه حياً لكي ينكل به.. فيكون قتله له عبرة لمن يفكر أن يقوم بعملية اعتداء وتحد لسلطة الحكومة كعمليته هذه، أما قتله في جباله بطريقة اغتيال أو ما شابه ذلك فإن هذا ليس بذى أهمية بالنسبة للحاكم الذي يفضل أن يأسره قوياً سليماً ..

تضحية خارقة ومروءة نادرة

لم يجد الحاكم بداً من أن يجمع أهل الحل والعقد من رجاله ومن أهل المدينة ليأخذ رأيهم في موضوع هذا المعتدي المتحدي لسلطة الحكومة وحينما اجتمع القوم شرح لهم الحاكم موضوع جدول الاعمال الذي طلبوا من أجل دراسته فتداولوا الرأي وافترضوا شتى الاحتمالات وفكروا وقدروا فوجدوا كل الاحتمالات والافتراضات التي من شأنها أن يؤسر الفتى وهو سليم القوى، وجدوها احتمالات عقيمة وافتراضات مستحيلة، إذاً كيف الوصول الى الغاية ؟.. أيترك متحدي الحكومة، فهذا شيء ليس من الحكمة أن لا يؤدب معتد وقاتل كهذا.. وبعدما استعصى عليهم الامر أو كاد خطرت فكرة لأحد الرجال أو للحاكم ذاته.. تؤدي الى أسر ناجع

ومضمون هذه الفكرة يتلخص باعتقال الرجل الذي استجار به ، والذي كان السبب الرئيسي لاقدام ناجع على القتل ، وقد قدر صاحب هذه الفكرة انه في حالة اعتقال مستجيره فإنه سوف يحاول أن يفعل المستحيل لاختطاف مستجيره من السجن وسوف يكون التحدي له سافراً ، كما انه سوف يتبدل الموقف بدلاً من أن تكون المغامرة من جنود الحاكم عندئذ سوف تكون المغامرة منـــه هو ، وعوضاً عن أن يكون الهجوم من الشرطة وهو مختبيء ، يكون الهجوم منـــه ورجال الشرطة مختبئون لاقتناصه ، كانت الفكرة سليمة جداً ، وعلى الفور بعث الحاكم جنوداً ليأتوه بمستجيره المشؤوم ، ولم يكن اعتقال المستجير شيئاً فيه أدنى صعوبة لأن ناجعاً لم يخطر بباله أن الحاكم سيتركه ويذهب لمستجيره ليتخذه طعماً لاصطياده ، لا لم يفكر ناجع بهذه الفكرة قطعياً ،ومما لا شك فيه بأنه لو خطرت هذه الفكرة في باله لما تخلى عن حمايته ، وهكذا تم اعتقـــال مستجيره ليلاً وهو مختبيء في رؤوس الجبال لا يعلم شيئاً عما تم لجارهحتى إذا عاد الى أهله أخبره سكان الحي بما تم بأمر جاره ، وكانت التعاليم من الحاكم للشرطـــة تقضي بأن يضربوا جار ناجع بعد اعتقاله أمام سكان الحي لكي يثيروا حماسه أكثر حتى يتمكنوا من اتقان الطعم ونصب الفخ لاصطياده بكل سهولة ، وقد نقل السكان لناجع بكل أمانة المعاملة القاسية التي عامل الشرطة بها جاره من ضربه باعقاب البنادق الى ركله بالاقدام الى صفعه بالحذاء من الأمور التي لم يقصد بها المستجير طبعاً ،وانما يراد منها استفزاز ناجع لعله يغـامر لاخراج مستجيره من السجن ومن ثم يقع بيد الكمين من الشرطة الذي نصبه الحاكم له.

وكان الامر كما توقعه الحاكم فقد تسلل الفتى في الليلة الثانية الى مقر الحـاكم محاولاً أن يهجم على الشرطة ويخرج مستجيره من دار الحكومة بالقوة ويقتل من يقف بوجهـــه من الشرطة ، ولكن محاولته باءت بالفشل أمام رجـال الشرطة الذين بذلوا أقصى ما لديهم ليعتقلوه ، أو ليحولوا بينه وبين اختطافه للسجين ، وقد تمكنوا من الثانية ، ولكنهم ما استطاعوا أن يلقوا عليه القبض .

وقد استمرت محاولته وهجومه ليالي عديدة دون أن يفلح كلا الجـانبين بمهمته فلا ناجع تمكن من أن يختطف مستجيره من سجن الحكومة الذي كان محاطـــاً

بالشرطة ومن وراء الشرطة ابواب واقفال الخ .. ولا جنود الحاكم استطاعوا أن يعتقلوا ناجعاً الذي ظل يوالي هجماته الليلية بمزيد من الحذر واليقظة ، فهو كما يقال في المثل الدارج : (يثب وثوب النمر ويروغ روغان الثعلب) ..

طالت المحاورة بدون جدوى ، وسئم الشرطة من سهر الليالي المتتالية بدون أن يسأم ناجع أو يبدو منه كلل أو ملل ، ذلك الفتى ذو البأس الشديد والعزيمة الماضية ..

وبعدما طالت المدة بلا جدوى ، عندئذ احتبل الحاكم حيلة اخرى ذلك انه أشاع انه سوف يقتل السجين اقتصاصاً منه عن الرجل الذي قتله ناجع ، والحاكم عندما أشاع ذلك قاصداً أن يظفر بأحد الأمرين لا محالة ،وهما: أما ان يغامر ناجع مغامرة انتحارية لامغامراته السابقة التي فيها كر وفر ،أو أن تكون الاخرى وهي انه متى ما تعذر على ناجع اختطاف مستجيره وثبت لديه بأنه سوف يقتل بأسبابه عند ذلك يأتي ويستسلم عن طيب نفس ومحض ارادة ، مفتدياً مستجيره بنفسه ...

وثقة الحاكم بوقوع احدى الحالتين جعلته يؤكد لرجاله بأن يشيعوا ويذيعوا أن مستجير ناجع سوف يقتل في يوم كذا في بلدة كذا ، واتبع الحاكم هذه الاشاعة عملية اخرى ، وهي انه أمر بنقل السجين من المكان الذي كان فيه الى البلدة التي أشاع بأنه سوف يقتل فيها ..

وصلت هذه الاشاعات الى ناجع ، وفكر . وقدر كيف يفعل ؟.. أيترك مستجيره يقتل بسبب عمل هو قام به ؟ فهذا شيء لا يطيق احتماله شجاع أبي كناجع ؟ أيغامر مغامرة انتحارية لينقذ رقبة مستجيره من السجن ، فهذه العملية أيضاً قد لا يحصد من ورائها إلا الافلاس من ظفره بانقاذ حياة صاحبه ووقوعه في فخ الحاكم المنصوب له ، أو انه يسلم نفسه ليفتدي جاره ..

كانت الاحتمالات السالفة الذكر كلها يرى انها سلبية وعقيمة ما عدا الاخيرة فانها هي الحل العملي ، ولكن هذا الحل ليس بسهل المنال ، ولا هو رخيص

الثمن ، بل ثمنه غال وغال .. وأي ثمن أغلى من حياة المرء تلك التي كل ما يناله الانسان ويكسبه من مال وبنين وجاه ، كل هذه المعاني الحية يدفعها المرء فداء لحياته عندما يستوجب الأمر لأن الابن يمكن أن يأتي عوضاً عنه ابن ربما يكون أصلح منه ، والمال بالامكان ان يستعيض الانسان عنه بمال أكثر من سابقه وكذلك الجاه أو السلطة ...

كل هذه المظاهر بالامكان أن يأتي مثلها أو خير منها ، ولكن الحياة في هذه الدنيا لا يمكن أن تبدل بحياة ثانية ، وبالتالي قرر ناجع القرار الحاسم الصادق انه عندما يتعذر عليه اختطاف مستجيره ، فإنه سوف يسلم نفسه السلطة لتضرب عنقه فداء لمستجيره ، كانت السلطة قد اتخذت بعد ذلك اجراءات حاسمة أكثر منذي قبل ، كما أمرت بأن يؤخذ السجين من مكانه الى المكان الذي اشيع انه سوف يقتل فيه ، وكانت هذه الاخبار تصل ناجعاً وعندما قررت الحكومة نقل السجين الى المكان الآخر ، كان ناجع يعلم كما أشرنا آنفاً أن السجين نقل من مكانه ، ولكنه يجهل أن الغاية الاساسية من نقله هي التمويه عليه ، لكي يفعل المستحيل ويسلم نفسه ، هذه الناحية لم يدركها ناجع لأنه سر كامن في نفس الحاكم لا يعلمه أحد ، وكل ما يعتقده ناجع بأن مستجيره سيؤخذ من سجنه لينفذ فيه الاعدام في بلدة غير بلدته التي سجن بها ، فراح يتبع أثر الشرطة الذين يتولون نقله وحراسته ، فإذا نزلوا في مكان ما ، اختبأ وتوارى محاولاً أن يهجم عليهم لعله يوفق في اختطاف السجين ، ولكن الجنود كانوا كثيري العدد وبالاضافة الى كثرتهم كانوا واثقين بأن صاحبهم سوف يحاول ما استطاع الهجوم عليهم ، ولذلك ليس بالأمر أية غرابة فيما إذا اتخذ الجنود شتى الاحتياطات اللازمة التي من شأنها أن تحول دون اختطاف السجين من بين أيديهم ، وفي الحين الذي شعر ناجع بعجزه عن اختطاف مستجيره ، وفي تلك اللحظة التي كان فيها الجنود يسيرون بالسجين مطوقاً من جميع الجهات ، ساعتئذ قرب ناجع من الجنود فناداهم قائلاً :

— ها أنذا فلان .. قد عقدت العزم بأن أسلم نفسي اليكم على أساس أن تطلقوا سراح مستجيري ..

واعاهدكم الله على انني سأفي بما قلته لكم من تسليمي لنفسي بيدكم راضياً ، علماً مني بأن مصيري ضرب عنقي لا محالة ..

فأجابه كبير الجنود الذي لا يخلو من أن يكون لديه تعليمات من الحاكم فيما اذا اتخذ ناجع موقفاً كهذا فقال له :

– ان كنت صادقاً فيما تقول فما عليك الا ان ترمي بندقيتك وجميع سلاحك من يدك وتسلم نفسك مجرداً من أي سلاح ..

فأجاب قائلاً :

– هذه بندقيتي[1] فمن شاء منكم ان يستلمها فليتفضل . فاقبل اليه احد الجنود واستلم منه بندقيته وعتاده وخنجره كما أمر ان يطلق سراح السجين المرهون..

السجين يموت فجاة !!!

ذهب السجان ليبشر السجين الاول بالفرج وليدخل مكانه السجين الجديد معتقداً انها البشرى التي ما بعدها بشرى ، بينما هي السهم الذي مضى الى قلبه واوقفه عن الحركة .. ذلك انه عندما تأكد بالعفو عنه واطلاق سراحه وان مجيره جاء في محله فاديا نفسه عنه حتى شهق شهقة فارق فيها الحياة . فدنا منه السجان ليتأكد من أمره فوجد تلك الاخبارية التي خيل اليه انها بشرى سارة يزفها الى فؤاد السجين ، كانت حساماً صارماً مزق قلبه .

أصيب السجان بذهول ، وقبل ان يخبر مرؤوسيه بما حل بالسجين الاول ، راح مبدئياً يدخل السجين الاخير ويشد وثاقه وهو يرتعد خوفاً ، فكأنه كان يكتف اسداً لا يدري متى ينقض عليه فيقده بنابه، مع العلم ان اسده هذا لم يسلم نفسه الا بعدما قلع أنيابه بيده وقلم اظفاره بنفسه ..

أدخل السجان سجينه الاخير بدون ان يخبره بما حل بصاحبه .وأقبل ناجع الى صديقه ظاناً بأنه نائم فتركه رحمة به ، لا يريد أن يفاجئه بوجوده واثقاً، بأن ذلك يزعج مستجيره . ولم يخطر بباله ان الازعاج سيبلغ بـه الى مصيره النهائي .لا ، لم

---

١ – انهى لي الراوي الامير خالد السديري الذي لا زال على قيد الحياة والذي كان حاكما لتلك المنطقة بأن ناجعا عندما أشار الى الجنود بقوله (هذه بندقيتي)كان ممسكا بندقيته من فمها لا من عقبها لكي يؤمن الجنود .

يخطر ببـال ناجع ان مستجيره سبقه الى الموت . فكل ما يظنه ان مستجيره في سبات عميق . فظل ينتظر السجان ليتولى ايقاظه ، لكي يخرج من السجن كوفاء بالعهد المتبادل بينه وبين كبير الجند لأنه لم يعد في بقاء مستجيره أية فائـدة بعدما سلم نفسه للسلطة ! ولم يطل انتظاره للسجان ، فقد جاء السجان ونفر معـه لينقلوا جثمان الميت ، فكانت مفاجأة لناجع عندما أخبره السجان بالأمر الواقع ، وكم كان حريصاً على ان يذهب الى عالم الاموات قبل مستجيره، ولكن مستجيره هو الآخر يبدو انه رأى ان حياته بعد مجيره الوفي ستكون عبئاً ثقيلاً عليه ، فلم يكن لديه بد من أن يعمل بوصية شاعر المهجر المرحوم ايليا ابي ماضي :

واذا نبا العيش الكريم بماجد حرٌ رأى الموت الكريم صوابا

الامر يحال الى الحاكم الشرعي

أخرج السجان جثمان مستجيره بعدما طبعه بقبلة صامتة ، ان عبرت عن شيء فإنما تعبر عما يحدّث ناجع به عن نفسه من امنيته التي كانت تختلج في كيانه، وهي انه كان يتمنى من صميم قلبه أن يقبل صاحبه حياً لا ميتاً ، وكان عزاؤه الوحيد، أنه قام بواجبه وجعل حياته وفاء لحياة مستجيره .

بلغ الحاكم بما حدث من استسلام ناجع بمحض إراداته ، ومن موت مستجيره بالسكتة القلبية.

وعلى الفور رفع الحاكم القضية الى المرحوم الملك عبدالعزيز بكل تفاصيلها ، فكان الجواب من الراحل يشير الى أمره باعادة معاملة ناجع الاخيرة الى الحاكم الشرعي ، وان لا تثار قضيته الاولى التي قتل فيهـــا خمسة الأنفس ، بحكم أن أولئك معتدون عليه ، وان قتلهم لا يعدو ان يكون دفاعاً عن النفس . ومعنى ذلك ان الملك أمر واليه السديري ان يتجاوز عن حقوق الحاكم في اعتـداء ناجع على قصر الامير ابن غنيم الذي يمثل سلطـــة الحكومة في القرية ، معتبراً التقاليد العربية والعرف السائد في قضية حمـاية المستجير في عالم الشيم والعادات العربية ،

ومقدراً ايضاً الوفاء الذي قام به ناجع بتسليمه نفسه عن رضـــاء وسماحة نفس ، فأصبحت القضية الآن بيد القاضي الشرعي ، واصبح ناجع مطالباً من قبل ورثـة الشخص الذي قتله في قصر أمير القرية اعتقاداً منه انه الامير ..

والقول الفاصل الآن بيد القاضي ، وما تحكم به الشريعة الاسلاميـة في ظرف كهذا فهو الحكم الذي لا يقبل الاستئناف ، ولا المحاباة .

القول الفصل

كانت القضية بالنسبة للحكم الشرعي واضحة كوضوح الشمس في رابعة النهار ، ففي حالة كهذه يقول فيها القرآن الشريف : « أن النفس بالنفس... الآية » فلم يكن هناك حل إلا القود ، لأن قتله الشخص ، وان كانت خطـــأ من حيث الشكل ، ولكنه عمد من حيث الأصل والتنفيذ .

وكان المقتول ابن واحد فقط تجاوز سن الرشد ، كما ان له أخاً شقيقاً ، فالقضية بيد الابن بالدرجة الاولى ، والأخ ليس إلا مستشاراً للابن يأخذ برأيه في حـالة صدور الحكم ..

كان سكان تلك المنطقة ينتظرون متى يأتي اليوم الذي يذهب بـه ناجع وابن القتيل الى القاضي ، لينظروا مـــاذا تكون نتيجة الحكم الذي يتخذه القاضي بهذا الشأن ، وان كان الحكم كما أشرنا آنفاً واضحاً ولا يحتاج الى أخذ ورد ، ولكنه قد لا يكون وضوحه إلا عند القليل من القراء الذين يفهمون الاحكام الشرعية ، أما السواد الأعظم من الدهماء ، فانهم لا يعرفون شيئاً عن ذلك . ولم تكن المدة بين استسلام ناجع وبين البت في الحكم الشرعي طويلة اكثر من الفترة الزمانية التي يتبادل فيهـا (السديري) والملك الرسائل بشأن توضيح الموضوع من الاول وتلقي الاوامر من الثاني .. كما أن بت الحكم الشرعي بصورة نهائية من قبل القاضي ليس كالمحاكم المدنية التي تدور فيها معاملة كهذه مدة طويلة من الزمان ، بل كل ما في الامر أن عملية كهذه لم ينكر فاعلها ولا تحتـاج الى شهود ، لا يتجاوز البت

فيها اكثر من ساعة واحدة فقط . وهكذا عندما تلقى حاكم المنطقة السديري الامر من الملك باحالة القضية الى القاضي ، هب من فوره وجاء بالمدعي والمدعى عليه ، بين يدي القاضي وكانت المسألة بالنسبة للقاضي معروفة وكل ما في الامر انه أصغى أولاً الى ما قاله المدعي ، ثم بعد ذلك وجه اسئلة الى المدعى عليه . وكان جواب المتهم كله ادانة له فحكم عليه بالقود، والحكم هنا كما ذكرت آنفاً لا مجال فيه للاستئناف ولا للنقاش .

لقد خرجت القضية الآن من يد السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية واصبحت بيد أولياء القتيل ..

كأنه أسد يريد ان يثب على فريسته لا اسيراً مكبلاً بالقيود

وكان أمام هؤلاء الأولياء ثلاثة حلول : أما ان يعفوا ويتسامحوا عن قاتل رجلهم ، وأما أن يقبلوا الدية ، وأما أن يقتلوا القاتل. والذي له الحق في اختيار أحد هذه المعاني الثلاثة والبت النهائي بيد ابن القتيل . ويبدو ان الأبن كما يتضح من سياق القصة لم يكن حريصاً كثيراً على القتل ،بل ولا على أخذ الدية ، ولكن عمه أي شقيق المقتول ،كان هو الحاقد الذي يرى أن قتل ناجع هو منتهى أمنيته ، وهو المحرض الاول للابن على القتل .وكلما أراد ابن القتيل أن يسلك سبيل العفو والتسامح أصر عليه عمه وطلب منه بإلحاح أن لا تأخذه رحمة ولا رأفة بضرب عنق القاتل ..

كان المواطنون في تلك المنطقة يتساءلون عما يتخذه أولياء المقتول من المواقف الثلاثة ؟.. وكانت الاشاعات متضاربة بين اتخاذ الاجراء الاول والاجراء الثاني . وكانت قضية قبول الدية ليست موضع بحث قطعياً على أساس انها ليست محترمة عند العرب . وبينما كانت الاشاعات متضاربة رجحت الاخيرة بين صفوف المواطنين، الذين تتمنى اكثريتهم الساحقة أن يتخذ أولياء القتيل موقف العفو والا

قبول الدية . وكلهم مستعدون للاشتراك فيدفع الدية حسب مقدرة كل فرد منهم واحتماله . والامر الآن بيد أولياء القتيل ..

كان الحاكم محمد الاحمد السديري كما فهمت منه شخصياً يود من صميم قلبه أن يتجاوز أولياء القتيل عن المتهم بأية وسيلة كانت ، ولكن جميع الأماني والوسائل والوسائط ـ كل هذه المعاني تفتت على صخرة ارادة العم الحقود ، الذي لم يقبل أي حل سوى القتل ، ولا غير القتل .

كان الحاكم إذا شاء ان ينفذ الاعدام بالمتهم يعين الزمان والمكان ، وذلكقبل التنفيذ ، وكان غالباً ما يكون بعد صلاة الجمعة ، وفي قلب مدينة جازان لكي يحضر عدد اكبر من المواطنين فيكون القصاص بحالة كهذه رادعـــاً لمن يفكر بالقيام بعملية القتل . وكان أولياء القتيل قد أصروا على قتل ناجع وخاصة عمالفتى الذي يعتبر من الناحيـــة العائلية كبير الأسرة . وما على الحاكم الا أن ينفذ ما أمر به القاضي الشرعي راضياً كان أم كارهاً . ولذلك أعلن بأنه في يوم الجمعة من شهر لم استطع تحديده من سنة ١٣٦١ هـ سوف ينفذ حكم الاعدام بالمتهم ناجع الصهليلي .

لم يكن الخبر ساراً للاغلبية الساحقة من أهل المقاطعة كما أشرت الى ذلـــك بالسياق ، ولكن هذا لا يمنع من أن يحضر جميع أهل المدينـة والقرى لينظروا ميتة الابطال ، على اعتبار أن الشجعان البواسل ، كما أن في حياتهم عبرة كذلك في موتهم عبرة . ولذلك توافد الى مدينة جازان في ذلك اليوم جميع السكان من رجال واطفال ونساء المقاطعة ..

وما أنحان وقت الصلاة حتى كانت مدينة جازان غاصة بأهل القرى الذين توافدوا عليها من كل فج عميق . وعندما انتهى السديري من صلاة الجمعة أمر رجال الشرطة بأن يأتوا بالمتهم من سجنه ليسلم الى أولياء القتيل ، وكان النـاس منهم من يعرف ناجعاً ومنهم من يسمع به ولم يعرف شخصه .

وفي خضم هذا الحشد الكبير جاءت الشرطة بناجع يسير بخطى وئيدة ثابتـة

ويمشي مشية المستهين بالحياة الساخر بالموت،محاولاً أن يتحدى أولياء القتيل،وكأنه وهو بحالته هذه يناجي نفسه ببيت أبي الطيب المتنبي :

وإذا لم يكن من الموت بدٌ
فمن العجز أن تموت جباناً

وعندما توسط الحفل ووصل الى المكان الذي ستضرب فيه عنقه عند ذلك ثنى احدى رجليه ونصب رجله الاخرى مستنداً على ركبة رجله في الاولى وعلى سطح قدمه في الثانية بصورة بين الجلوس والوقوف . وفي هذه الحالة مد عنقه للسيّاف منتصباً لا ترف له عين .ولم يبد على محياه أية علامة من علامات الجزع..فكأنه أسد يريد أن يثب على فريسته ، لا أسيراً مكبلاً بالقيود وليس بينه وبين الموت الا اهاءة السيف على عنقه . وفي جلسته هذه طلب كاتباً ليملي عليه ما في ذمته للناس كما طلب المرآة والمقص ، ترى لماذا طلبها ؟.. أمن أجل أن يتجمل ليموت وهو جميل باسم الثغر .. وفي هذه اللحظة كان ابن المقتول حاملاً سيفه،ولا يدري هل ان تنفيذ القتل سيوكل اليه ، أو أن الحاكم سوف يتولى التنفيذ . ولكن الحاكم المحلي محمد السديري لم يدع ابن القتيل في حيرة من أمره بل استدعاه وقال :

ـ هذا ناجع الصهليلي قاتل والدك وقد حكم لك القاضي بالقصاص منه ولك الخيار في تنفيذ القصاص أو أخذ الدية ، وان عفوت عن هذه وتلك فهذه مكرمة واحسان منك..

فأجاب الفتى : انني أود أن تأمر الجلاد بقتله .

ويؤكد لي الامير محمد السديري الذي كان الحاكم لتلك المنطقة نيابة عن الملك فيقول :

عندما سمعت هذه الكلمة من الفتى وجدتها فرصة مناسبة للأخذ والرد مع

الشاب، فبذلت ما استطعت من الحديث الذي يجعل ابن القتيل يقبل الدية أو يعفو عن القاتل ، ثم قلت للفتى :

ـ نحن لا شأن لنا بقتله قطعياً فالأمر عائد اليك ..

ظل الفتى متردداً بين الاستجابة الى تحريض عمه له على القتل وبين الاستجابة الى نداء ضميره الانساني . وبينما الجمع الغفير من المواطنين المتفرجين ينظر بفارغ الصبر الى الطريقة التي ينجو بها ناجع ، من القتل ، خاصة بعد هذا الكلام الذي جرى بين الفتى والسديري في تلك اللحظة التي اصبحت حياة الصهليلي فيهاعلى كف عفريت ، أقبل شقيق المقتول وعم الفتى وصاح بابن أخيه قائلاً :

ـ اقتل قاتل ابيك ولا تأخذك بـه رحمة ولا رأفة ، وإياك ان تضرب عنقه ضربة جبان تخجلنا بها بين الناس أمام هذا الحفل ، وانمـــا عليك ان تشد حيلك وتجمع قواك وتضرب عنقه ضربة حاسمة تجعل رأسه يتدحرج فتكـــون آنئذ أخذت ثارك وقضيت على حياته كما قضى على حياة والدك ..

ما ألذ الحياة بعد اليأس منها ! !

كانت هذه الكلمات المليئة بالتحريض التي تحدث بها العم الحاقد مخيبة لآمال جميع المتفائلين بما فيهم السديري. وكان للشاب بعد تحريض عمه له امام ذلك الحشد ان لا يتردد عن المضي في ضرب عنق قاتل أبيه . وكان على ناجع ان يتهيأ لضرب عنقه بشكل فيه من التحدي لعم الفتى أكثر من ذي قبل . وهذا ما حصل . فقد مد ناجع عنقه وشخص بعينيه بحدة نحو عم الفتى وقال :

ـ انني مكبل اليدين ، وان قتلي بهذه الصورة ليس فيه ما تعتز فيه وتفخر به أيها الجبان الحاقد. وانني عندما قتلت اخاك كنت اظنه حاكم القرية المحلي ابن غنيم. وكنت متحدياً بذلك سلطة الحكومة أما اخوك فهو اضعف من أن اتعمد قتله .

وبين تحريض عم الفتى الذي لا يدع مجالاً للشك بأثارة حماس الفتى وإلزامه

بالاقدام على ضرب عنق القاتل ، وبين حسرة المواطنين ويأسهم من حياة ناجع بعد تحريض العم لابن اخيه ، وبين يقين ناجع بمصيره المحتوم ، وبين ثقـــة العم بأنه استطاع ان يؤثر على ابن اخيه في اللحظة الاخيرة ، وبين خيبة أمل السديري في تأثيره على ابن القتيل - بين هذه المعاني التي تدل كلها دلالة واضحة لا شك فيها على أن الفتى سوف يمضي جازماً الى ضرب عنق قاتل أبيه... في تلك الساعة التي اصبح الموت من ناجع اقرب من حبل الوريد ،اقبل الفتى نحو القاتل شاهراً سيفه، حتى اذا دنا منه وضع سيفه في غمده ثم ربت على كتف قاتل ابيه وقال :

اذهب فقد عفوت عن قتلك من أجل الأمور الآتية :

أولاً - انك لم تنو قتل والدي بالذات وانما اردت غيره فكان قتلك له خطأ بلا شك .

ثانياً - لا أرى في قتلي لك وانت مكبل بالاصفـــاد أي معنى من معاني الرجولة والشجاعة ..

ثالثاً - لم يكن مجيئك الى الحاكم بواسطة قوة اخضعتك وانمـــا جئت بملء رادتك وبوفاء منك راضياً لنفسك الموت من اجل وفائك لمجيرك . وتقديراً مني لوفائك فانني قـــد عفوت عنك عفواً مطلقاً لا أقبل عنه دية في الحاضر ولا في المستقبل ..

وقد انهى لي الراوي محمد السديري شاهد العيان ،والذي لا زال على قيد الحياة، ان ناجعـــاً بعدما سمع هذه الكلمات من ابن المقتول وثب من جلسته الاولى وانتصب واقفاً ثم قال : ما ألذ الحياة بعد اليأس منها .

كانت خيبة أمل عم الفتى لا تقاس ، لقد عاد حاقداً على ابن اخيه، ومحتقراً ومحقوداً عليه في مجتمعه ، بينما عاد ابن اخيه موضع التقدير والاجـلال في نفوس كافة بني وطنه في تلك المنطقة .

يريد الحرية على الطوى

بعدما انهى الامير السديري رواية هذه القصة التي تكاد ان تكون خيالا أو رؤية منام ، سألت الراوي بل استغربت منـه ان يترك مثل هـذا الشهم الوفي يروح في رؤوس الجبال ، بدون ان يستميله ويغريه بشتى الوسائل كي يبقى عنده في أي عمل يسنده اليه ، أو حتى بدون عمل. فقلت لمحمد السديري :

- يجب ان يحترم مثل هذا الفتى ويقدر من أجـل وفائه الذي لم يحدثنا التاريخ أن احـداً قام بمثله اللهم إلا النادر من القصص التي نقلت لنا في كتب الادب العربي منذ قرون بعيدة المدى ، وفي عهد لا يستغرب فيه الوفاء . وقد عرفت ان السديري كان حرصاً شديداً على ان يبقى ناجع عنـده محترماً ومكرماً على ان يؤمن له جميع لوازم حياته، ولكن جميع محاولاته باءت بالفشل وتفتتت على صخرة الحرية التي يريد ان يتمتع بها على رؤوس الجبال ، مفضلاً ان يبيت الطوى وهو حر طليق، لا يحتاج الى طلب الاذن اذا أراد أن يسافر ويذهب الى مكان ما ، ولا يخضع لنظام يفرض عليه . اللهم إلا ما يفرضه عليه ضميره الحر ونفسه الابية وخلقه الوفي . .

وبعد . . فان من يقرأ هذه القصة فانه ، كما اسلفت، يخيل اليه أنها رؤية منام أو من نسج الخيال .

وخير ما فيها هو أن رواتها أحياء وبطلها لم يزل على قيد الحيـاة الى وقت قريب . ولا استطيع أن احكم الحكم النهائي بأن بطل القصة في عالم الاحياء الآن بحكم اني اكتب هذه الأسطر وأنا في (أنقرة) كممثل لحكومة وطني ، وبطلنا ناجع في اليمن ، بل في رؤوس جبال اليمن وبيني وبينه مسافة بعيدة فيما إذا شئت أن اتأكد من حياته . وكم كنت أتمنى أن يكون لي من وضعي ما يشفع لي لكي أعيش عيشة الحرية التي يعيشها ناجع . فلو كنت كذلك لذهبت الى اليمن واصطحبت آلة تصوير لآخذ صورة لناجع اضيفها الى الصور الموجودة في هذا السفر . وهناك ملاحظة لا بد لي من الاشارة اليها وهي ما ذكرته عن موت

الرجل في السجن بالسكتة القلبية ،وأعني به المستجير بناجع، والذي هو طرف ثان في القصة . فقضية موته كنت رويتها عن محمد السديري . ولما كانت القضية أولها في عهد امارة خالد السديري شقيق محمد وآخرها في عهد محمد أو هي العكس ، فقد سألت الامير خالدا عن القضية ،وذلك بحضور أخيه محمد في مدينة الطائف عام ١٣٨٢ هـ ١٩٦٢ م .لقد كنت واثقاً من صحة رواية محمد وإنما أردت أن ازداد تأكيداً لكي لا أنقل للقراء إلا الحوادث الحقيقية التي لا مجال للشك في صحتها . وكانت إجابة خالد طبقاً للأصل الذي رويته عن شقيقه محمد ،إلا أن خالداً توقف عند قضية موت المستجير ، بينما أكدها محمد . واعتقد أن في هذه القضية اكثر من معنى :

أولاً – انها كما ذكرت قريبة العهد ورواتها وشهودها أحياء .

ثانياً – وهو الأهم عندي أن القارىء بعدما ينتهي من قراءة هذه القصة القريبة ثم يعود بذاكرته الى القصة الاولى في الجزء الاول من هذا الكتاب التي هي بعنوان (القصة العالمية) أي قصة (المهادي) تلك التي قلنا أن لها ما يقارب أو ينوف على مئتي سنة – عند ذلك سوف يزداد يقينا بأن تلك القصة وأمثالها من شيم العرب حقيقة لا شك فيها ولا ريب .

الشيم العربية لا تذعن للمعاهدات السياسية

- ٢ -

لما كان رشيد عالي الكيلاني رئيس الحكومة العراقية السابق محكوماً عليه بالاعدام من قبل الحكومة العراقية ، أو الانكليزية على الاصح ، فإن من مسلمات الأمور أن يفتش عن ملاذ يلتجىء اليه. وقد وجد في الحكومة الألمانية الامل الوحيد الذي يمكن أن يركن اليه ، بصفتها العدو اللدود لبريطانيا . وكانت الدول العالمية الكبرى وقتذاك منقسمة الى معسكرين : معسكر الحلفاء ومعسكر المحور، وكانت الحرب بينهما قائمة على قدم وساق .

وإذا كان كل انسان على وجه البسيطة ينظر الى نتائج الحرب بعين ملؤها الحذر والرعب ، فان طبيعة حال الكيلاني ومقتضيات ظروفه تجعله ينظر الى نتائج تلك الحرب نظرة حياة أو موت .

وعندما كانت الجيوش النازية تزحف قدما الى الأمام بانتصارات مذهلة ، كان الكيلاني ولا ريب يرى ان كل خطوة تتقدم بها المانيا نحو النصر ، انما هي امتداد في أجَله. هذا اذا لم تكن باعثة لآماله. وعندما خسرت المانيا الحرب، لا يكفي ان يقال ان آماله تحطمت فحسب ، بل لقد أصبحت ايام حياته معدودة وأصبح شبح الموت منه قاب قوسين أو ادنى . وكان طبيعياً ان تضيق به الارض بما رحبت . .

فأين يذهب الكيلاني ؟.. أيفر الى روسيا وهل هو آمن على نفسه فيما إذا ذهب

اليها ؟. طبعا لا ، فروسيا حليفة بريطانيا حينذاك . وما يقال عن روسيا حريّ به ان يقال عن امريكا بل وعن جميع الدول الاوروبية .

او لعله يذهب لدول الحياد الايجابي ولكن أين هي هذه الدول ؟.

انها لم تكن بل ولم يوجد من يفكر بها من الناحية العملية .

أينتحر ويريح نفسه من هذا المستقبل الاسود الذي يهـــدده بكل وحشية وضراوة ؟..

ولكن كيف ينتحر وهو مسلم ومؤمن بالله واليـــوم الآخر ، والمسلم يعتبر الانتحار جريمة ما بعدها جريمة ! وقد حكم على مرتكبها بالنار في الآخرة على اعتبار ان الانتحار يأس وقنوط بينما تعاليم الدين الاسلامي تنهى عن اليأس والقنوط وتحذر عنها ! بل وتعتبر مرتكبها من أحط الظالمين ! كان الأمر طبيعياً ان تضيق به الدنيا فالأرض التي حملت الثقلين وجد انها اضيق من ان تحمـــله ... والسماء التي اظلت الانسان والحيوان وكل من على وجه الأرض خُيِّل الى الكيلاني أنها أعجز من أن تظله .

وبعد هذا اليأس المرير لاح له بريق من الامل .وهو أمل كالوهم ولكنه خير من القنوط .. أمل في حكام العالم العربي، اعتقادا منه ان العربي سوف يتفانى في في حماية من يستجير به انى كانت جنسيته ومهما عظمت جريمته .. فكيف به اذا كان عربياً كالكيلاني !!

لقد داعب خياله هذا الأمل. ولكن أمله هذا سرعان ما تلاشى وتبخر من فوره عندما استعرض الدول العربية ووجد اغلبها او كلهـــا يرزح تحت نير الاستعمار حينذاك ، ما عدا حاكمين - وهما ملك السعودية المرحوم عبد العزيز آل سعود وملك اليمن المرحوم يحيى حميد الدين ..

وحتى حاكما هاتين الدولتين لم يجد فيهما من الأمل ما يشجعه على ان يغـــامر بنفسه مغامرة ليست مضمونة السلامة .. وذلك انه يذكر بأن للأول مبرراً فيما

اذا رفض ان يجيره ، بل ولديه حجة سياسية تبرر تسليمه للحكومة العراقية التي تطالب برأسه . وخلاصة تلك الحجة هي أنه بين الحكومة السعودية والحكومة العراقية معاهدات تقضي بأن تسلم الاولى المجرم السياسي العراقي لحكومته فيما اذا طالبت به حكومته وان تقوم الحكومة العراقية بمثل العملية نفسها . وقد نفذت هذه المعاهدات من الجانب العراقي حيث سلمت حكومة العراق للحكومة السعودية فيصل الدويش رئيس قبيلة مطير كما سلمت ايضـــاً مثل النمياط رئيس عشيرة التومان من قبيلة شمر .

وهذه المعاهدات السياسية جديرة ان تجعل الكيلاني يتردد في الالتجاء الى الملك ابن سعود .. اما ملك اليمن فانه يخشى في حالة التجائه اليه انه لا يقف منه موقف المجير الصلب فيما اذا طلبت الحكومة الانكليزية ان يسلمه لها . وللكيلاني ما يبرر نظريته هذه بالنسبة لملك اليمن . لأنه يذكر ان الامـام يحيى سلم الادريسي للملك ابن سعود رغم ان الادريسي مستجير به .

لقد اشتدت حيرة الكيلاني واسودت الدنيا في وجهه ولم يكن له من بد إلا ان يرمي نفسه بأحضان الملك ابن سعود ،اعتقاداً منه أن شبه الجزيرة العربية موطن لم يدنس أرضه قدم مستعمر قط وايماناً منه بأن بلاداً عربية كهذه ، لم يأت على عادات اهلها وتقاليدهم من عهد الجاهلية الى يومهم ذاك أي طارىء . فبلاد بهـذه الصفة خليق بأبنائها ان تطغى شيمهم العربية على المعاهدات الشكلية والبروتوكولات السياسية .

هذا وقد شخص الكيلاني نحو الملك عبد العزيز ، ولكنه لم يصل اليه إلا بعد مغامرة عنيفة .

ولسنا بصدد شرح تلك المغامرة التي قام بهـــا الكيلاني حتى وصل الى شبه الجزيرة ،لأن شرحها يحتاج الى بحث مطول خاص . وعلى كل ،فان الفضل يعود للشابين البطلين ممدوح الميداني وجميل الجابي اللذين سوف اضع لهما بحثاً خاصاً تقديراً لوفائهما مع رفيقهما وتخليداً لذكرهما .

وعلى كل حال فقد وصل الكيلاني بصورة أود ان اختصر شرحها ما استطعت. وهي مع الايجاز على الوجه الآتي :

حرص الكيلاني بأن يفعل جل الأسباب التي تجعل الملك ابن سعود لا يعلم شيئاً عنه حتى يلتقي به وجهاً لوجه. وفعلاً وصل الرياض بدون أن يعلم ابن سعود شيئاً عنه ، وكل ما في الأمر ان الملك أخبر ان نفراً جاءوا من سورية يقصدون الاتصال به لمهمة ما. فرحب بهم الملك واذن لهم بمقابلته . فدخل عليه الثلاثة وكان الكيلاني هو آخرهم في السلام . وبعدما أدوا التحية التقليدية استأذن الاثنان من الملك بالذهاب كما استأذن الثالث أي الكيلاني في البقاء من أجل أن يشرح للملك المهمة التي جاءوا من أجلها .

وهكذا التقى الكيلاني بالملك عبدالعزيز بصورة لم يشعر بها الاخير حتى فاجأه قائلاً انه رشيد عالي الكيلاني .

دهش الملك طبعاً .. وظل في شك من صحة النبأ ،فظن أن هذا الرجل مدعٍ ، ولكن سرعان ما اتضح للملك بأنه الكيلاني بلا شك. وذلك بعدما نودي السيد حمزة غوث الذي كان يعرف الكيلاني جيداً لأن هذا كان قنصلاً للمملكة العربية السعودية في بغداد . وغوث هو الذي أزاح الشكوك عند الملك وأثبت له أن ضيفه هذا هو رشيد عالي الكيلاني بذاته. وعندما تأكد الملك من شخصية ضيفه أبرق لسفير بريطانيا المفوض في جدة بأن يحضر لمقابلة الملك فوراً وعندما حضر الوزير أمره الملك بأن يبلغ حكومته بأن رشيد عالي الكيلاني قد وصل الى المملكة وانه سوف يعتبره عربياً مستجيراً بعربي . وقد أكد الملك السعودي للسفير أنه سوف يجيره ولن يسلمه مهما كانت النتيجة وفقاً للعادات والشيم العربية.

ولما كانت الحكومة الانجليزية تعرف جيداً أن أي عربي يغار على كرامته لا يمكن أن يسلم من يستجير به ولا بوجه من الوجوه، فقد رأت انه ليس من الحكمة أن تتحدى الملك ابن سعود . ولذلك كان جواب حكومة بريطانيا ان الكيلاني مطالب من قبل حكومة العراق لا من قبل حكومة بريطانيا. وعند ذلك

راح الملك يتفاهم مع حكومة العراق بنفس الطريقة التي تفاهم بها مع حكومة انجلترا .. وقد حاولت حكومة العراق الخاضعة للنفوذ الانجليزي وقتذاك أن تغضّ طرفها وتتجاهل العادات والشيم العربية التي أشار اليها الملك عبدالعزيز .. ولكن محاولتها باءت بالفشل أمام الشيم العربية الأصيلة التي هي أعز جانباً من المعاهدات السياسية في نفسية العربي .

« قلت لو أن حكام العراق في ذلك الوقت تأثروا بالعادات العربية وآمنو بالشيم العربية لكان بامكانهم أن يريحوا أنفسهم من مطالبتهم ابن سعود بتسليم مستجيره .. وكل من يعرف العادات العربية او أطلع على ما جاء في حقل كتابنا الجزء الأول من « شيم العرب » - يدرك للوهلة الاولى ان الموقف الذي اتخذه المرحوم عبدالعزيز ابن سعود بصدد قضية رشيد عالي الكيلاني انما هو موقف تفرضه عليه الشيم العربية ويفرضه عليه عرف المجتمع العربي في شبه جزيرة العرب .. وحتى لو قدر المستحيل وأراد الملك عبد العزيز أن يتساهل مثلاً ويسلم الكيلاني لأعدائه ، فإنه سوف يعرض نفسه لا لسخط عرب شبه الجزيرة بصورة عامة فحسب ، بل لسخط أسرته وحتى أبنائه أيضاً . »

ومن أوضح الأدلة على صحة ما أشير اليه هو ان مجرد أن سمع كبار أبناء الملك أن رشيد الكيلاني قد وصل الى الرياض مستجيراً بوالدهم ذهبوا الى والدهم فوراً ، وأكد له كل فرد منهم بأنه على أتم الاستعداد أن يسلم نفسه لحكومة بريطانيا أو لحكومة العراق المدفوعة بإيعاز من الاولى - وهو مطمئن البال - بدلا من تسليم ضيفهم المستجير بحماهم واللائذ بدارهم..

وبصفتي عربياً نشأت في صميم الجزيرة العربية وتأثرت بالعادات العربية تأثراً جاء بعضه عن طريق البيئة والمجتمع والمحيط الذي ترعرعت به يافعاً كما جاء بعضه الآخر عن طريق دراستي للأدب العربي المدون في كتب الأدب من تاريخ وقصص وشعر ونثر الخ.. فإنني لا أرى ما قام به الملك المرحوم عبدالعزيز من حمايته لمستجيره أمراً غريباً . بل انه شيء طبيعي بالنسبة لملك عربي منيع الجانب كعبد العزيز.. وانما

الذي استغربه بل أمقته هو ما قام به حسني الزعيم بتسليمه مستجيره انطون سعادة لحكومة لبنان .. تلك العملية المستحقرة .. وقـــد كان لي صلة بالمرحوم حسني الزعيم قبل انقلابه عام ١٩٤٨ وبعد الانقلاب وذلك بصفتي ممثلا للفوج السعودي المرابط بسوريا ايام حوادث فلسطين ومساعداً لآمر الفوج المذكور .. وقد كنت اشعر ان لدى حسني الزعيم بعضا من صفات الرجولة التي احببته من اجلهـــا .. ولكنه ما أن قام بعمليته تلك الشنعاء ،واعني تسليمه مستجيره سعادة لحكومة لبنان حتى سقط الرجل من عيني وعين كل عربي يؤمن بشيم العرب .

وهنا نجد الاديب الشاعر الاستاذ راغب العثماني بقدر ما يمتدح الملك عبد العزيز في البيت الأول يسخر ويهجو حسني الزعيم في البيت التالي كما جاء بقوله :

وضيف مليك العرب امنـــع حوزة
من الليث في البيد الذي ليس يقرع

وبعض مـــلوك الناس يغدر ضيفه
ويلقى بأحضان الطغـــاة ويصرع

لكم أن ترهنوا أخي

-٣-

في الحين الذي كانت فيه الحكومة العثمانية باسطة سلطانها على الكثير من الأقطار العربية ، في تلك الفترة كان العربي الذي يُدان من قبل الحكومة بأية جريمة تضيق به الارض بما رحبت .فاينما يولي وجهه يجد نفسه محاطاً بجنود الحكومة . وهذا ما حصل مع شخص يدعى (شلاش العِر[1])الذي ادانته الحكومــة بتهمة مـا ، في سنة ١٢٩٩ ، فاسودت الدنيـا بوجهه ولم ير أرضاً تقله ولا سماء تظله ولا قوة تحميه ، فأينما يذهب يجد نفسه مطارداً من جنود دولة بني عثمان ..

وكلما فكر الرجل في مأوى يلتجيء اليه أو ملاذ يحميه ، لم يكن يجد ولن يجد ، فكل الابواب موصدة .. وأخيراً خرج الرجل من اهله هائمـاً تعلو وجهه علامات اليأس والبؤس ، يسير ولا يعلم أين يسير.وكان كلما رأى شخصاً يسير خلفه أو أمامه ازداد رعباً ، ظاناً انـه من رجال البوليس السري الموكلين باعتقاله . وبينما هو في مسيره هذا رمى به الفال الى جمـاعة من بادية الشام .. وكأنه اطمأن اليهم بعدما وجدهم بدوا فسار معهم بلا شعور وبدون أن يعين المكان الذي يسير اليـه .. وقد لفت نظره رجل وسيم يمتاز عن سائر

---

١ ـ شلاش من عشيرة العمور بادية سورية .

الركب لا بهندامه فحسب ، بل حتى في منطقه وهدوئه ورزانته ووقاره ، فبدأ يحاول أن يتقرب منه ليتعرف عليه . وكان من غرائب الصدف أن هذا الرجل الوسيم بدوره نظر اليه نظرة عطف ، حيث وجده شارد الذهن تلوح على وجهه الشاحب المتجعد دلائل الهم والحزن والبؤس فاهتم بأمره إلا انه لم يحاول أن يستفسر منه وانما ظل يتودد اليه ويلاطفه قاصداً أن يخفف عنه ما يختلج في كيانه من الهموم البارز أثرها على محياه .. فأمره أن يركب على احدى الرواحل التي تحمل كسوة اشتراها لأهل بيته من الشام وركب شلاش الراحلة وظل يباري صاحبه الذي لم يترك كلمة وديعة ولا مثلاً يدخل السرور والاطمئنان على قلب شلاش إلا جاء به حتى إذا دنا وقت الظهيرة ، أمر قومه أن يحطوا عن رواحلهم ليتناولوا طعام الغداء ، فنفذ رجاله ما أمرهم به وفرشوا له سجادة ووضعوا شداد احدى الرواحل ليستند اليه فأخذ بيد الرجل البائس وقدمه حتى أجلسه على الفراش ثم وضع الشداد بينهما وظل ينادمه ويقاسمه همومه بينما تفرق رجاله فمنهم من ذهب بعد الغداء ومنهم من يسعى بتهيئة القهوة ، ومنهم من ذهب يتولى رعاية الركائب ، والبقية جلسوا أمامهما على سجادة اخرى وسرعان ما انتهى صاحب القهوة من قهوته فجاء وسكب الفنجان للرجل الوسيم فأمر هذا صاحب القهوة أن يقدمه للرجل الشارد الذهن فرفض البائس أن يأخذ الفنجان قبله ، فأكد عليه قائلاً :

ـ ألست عربياً ؟..

فقال : بلى . فرد عليه وهو يبتسم ..

ـ متى كان صاحب المكان يأخذ الفنجان قبل ضيفه !!

فقال الرجل وقد اطمأن الى حد ما ..

ـ أنا لست ضيفاً بل صاحب مكان ..

فرد عليه قائلاً :

ـ لا شك بأنك صاحب مكان ولكن العرب تقول: « الضيف الاول معزب

الثاني » ، فعلى هذا الاساس اكون أنا قبلك في المكان وان كنت انت صاحب مكان هنا بلا شك ..

فأخذ الفنجان وهو يتصبب عرقاً حياء من اكرام هذا الرجل الذي اعتنى بـه هذه العناية بدون سابق معرفة . وبعد مدة قليلة قدم الرجال وجبة الغداء فتصدر الضيف المكان وبدأ المضيف كعادته يسليه ويلاطفه حتى انتهى من ذلك الطعـام الذي لم يهنأ بطعام مثله منذ مـــدة طويلة .. وبعد الغداء أديرت اكواب القهوة وسار الأمر على ما كان عليه ، أي أن المضيف قدم الضيف على نفسه . ثم بعد ذلك أمر الرجل الوسيم بأن تحضر الرواحل لأجل الذهاب الى الاهل ، وعند ذلك انحرف المضيف الى ضيفه فقال :

– اعتقد انك لم تعرفني ولذلك أحب أن اعرفك بنفسي: أنا محمد بن سمير[1] .

فأجابه الضيف :

– حقيقة انني لم أعرفك شخصياً ولكنني اعرفك بالذكر .. ثم أردف قائلًا :

– كم كنت أود واتمنى ان اذهب معك الى أهلك ولكنني لا أريد أن أجرّ عليك المشاكل ، فالمصيبة التي ابتليت بها أسأل الله ان لا يبتليك بمثلها ..

فقال السمير :

– خير ان شاء الله وكل الامور تهون وتتسهل بعون الله.. ثم استرسل وقال:

– ما هو أمرك ؟

– انني مطارد من قبل الحكومة ..

– ما هو السبب ؟..

– لم يكن ثمة سبب إلا أن ضابطاً أراد أن يعتدي على امرأة جاري فسمعت صراخها فهجمت عليه والتقطت حجراً وقذفته به فسقط على الارض وتركته هارباً

---

١ – محمد بن سمير من رؤساء قبيلة عنزة وهو مشهور بالكرم كما انه شاعر مجيد ، ولكن شعره قليل .

ظاناً انه لم يرني أحد ، لكن ظني كان في غير موضعه، اذ فهمت ان هناك جندياً كان ينظرني عندما سمعت صراخ جارتي، ورآني حين اقدمت على ما قمت به دون شعور ولا وعي . ثم ختم كلامه بقوله :

– وهل يلام العربي على أي عمل يقدم عليه حينما يفاجأ بحادثة كهذه ..؟

وما ان انتهى شلاش من حديثه حتى قال السمير بصوت عال مرتفع يختلف عن صوته المعتاد الهادىء الرزين :

– لعلك قتلت الخبيث ؟

– لم أعلم آنذاك وانما بلغني فيما بعد ان الحجر اصاب منه مقتلاً ..

– الآن اصبح من الضروري ان تذهب معي الى أهلي كما أصبح احترامك واجلالك عليّ واجباً محتوماً ، وأصبحت حمايتي لك فرضاً الزامياً لا محيص لي عن القيام به ..

– ان أقصى ما أتمناه أن أجد عربياً كريماً شجاعاً شهماً مثلك لألوذ بجماه ، فيما لو كنت مطالباً من أي زعيم من زعماء العرب ، ولكنني مطالب من قبل دولة لا أجد منها ملجأ التجيء اليه . ولذلك لا أرى فائدة من ذهابي اليك لأن النتيجة الحتمية لمثل قضيتي انه سينالك بسببي اهانة أو مصادرة لأموالك وربما أعظم من ذلك ..

– ما هو الاعظم من ذلك ..؟

– ربما تسجنك الحكومة أو تقتلك .

– مهما تكن النتائج التي أدناها مصادرة أموالي وأوسطها سجني وأقصاها قتلي ، فانني لن أتركك ولن أتخلى عنك بل سوف أجعل مصيري واياك سوياً في الخير وفي الشر .. فهيا بنا الى اهلنا والذي يختاره الله من خير وشر ينبغي لنا أن نستقبله بصدر رحب وإيمان راسخ وصبر جميل ..

ذهب شلاش بصحبة الشيخ محمد بن سمير الذي ضاعف له الاحترام وظل يسليه ويدخل على قلبه السرور ما استطاع ، حتى اذا بلغ أهله أمر له بخيمة مفردة

وضع فيها احسن ما لديه من الفراش ، وهكذا ظل شلاش في جوار ابن سمير وضيافته وهو كل يوم يرى من الاكرام والاجلال أكثر من اليوم الذي قبله حتى مضت سنة كاملة بدون ان يأتي من الحكومة أية اشارة اليه ، فازداد المجير والمستجير اطمئناناً بجهل الحكومة للرجل المطارد ..

كان الشيخ محمد بن سمير ومستجيره يظنان ان الحكومة لا تعرف شيئاً عن المكان الذي يقيم فيه شلاش .

اما السجن المؤبد او الاعدام او بحضر المطالب

كانت الحكومة أخيراً قد عرفت مكان شلاش ولكنها تجاهلت وجوده عامدة متعمدة وذلك لتوهم ابن سمير ، حتى اذا قدم الى احدى المدن السورية اعتقلته وهددته بالسجن المؤبد أو القتل فيما اذا لم يسلم صاحبه . ولم تخطىء الحكومة الرأي من حيث زيارة ابن سمير لاحدى مدن سورية، وذلك انه بين كل فترة واخرى يأتي الى دمشق ليشتري اللوازم الضرورية لأهل بيته من كسوة وقهوة وطعام الخ .. فجاء الآن الى الشام كالمعتاد هو وشقيقه في الحين الذي كانت عيون الشرطة ترقب مجيئه هذا بفارغ الصبر ، وكانت امنيتها الوحيدة ان يقع بين يديها ابن سمير مجير القاتل لضابط الحكومة ومن حسن حظ الحكومة ان ابن سمير وشقيقه جاءا هذه المرة الى دمشق فظنت الحكومة انها عندما تعتقلها تكون قد صادت عصفورين بحجر ويكون ابن سمير وقتها ملزماً بتسليم مستجيره لينجو من أحد الشرين السجن المؤبد أو الاعدام .. وفي الحين الذي كان ابن سمير وأخوه يسيران في الشارع الذي يسمى الآن سوق مدحت باشا في الشام ساعتذاك القي عليهما القبض وسيقا مكبلين بالأصفاد الى الزنزانة ..

لم يستغرب ابن سمير ذلك،الا انه لام نفسه على مغامرته هذه التي جاء فيها الى الشام ، وكان بإمكانه ان يبعث غيره لهذه المهمة وان لا يقرب المدن قطعياً ، ما دام انه مجير في بيته رجلاً قتل ضابطاً من جنود الحكومة فهو مطارد من قبلها.

ولم يكن يسعه وقد وقع في الفخ الذي نصبه له رجـال الدولة بمكر وحنكة ، إلا ان يقابل مكرهم بمكر مثله، وان يعد نفسه وأخاه للصبر مهما طالت مدة السجن، ولاحتمال المشاق من تعزير وتعذيب مهما قسى الحاكمون في ذلك..وقد ظل ابن مهير وأخوه في السجن اكثر من شهرين دون ان تسأل الحكومة عن الاسباب التي اعتقلا من أجلها . ظلت متجاهلة وجوده اعتقاداً من المسؤولين انه اذا طـالت على السجينين مدة السجن فإنهما سوف تخور عزائمهما ويخنعان لكل طلب تريده منهما الحكومة ، وبعد مضي تلك المـدة في ذلـــك السجن الرهيب استدعاهمـــا والي دمشق وأملى عليهما ارادته المتضمنة البنود الثلاثة : تسليم القـــاتل ـ أو السجن المؤبد ـ أو الاعدام . وندد به بكلام لاسع على تحديه لسلطة الحكومة .

ولم يستغرب ابن مهيران يسمع هذه الاشياء من الوالي لأنه كان متوقعاً لها ولذلك نجده أعد العدة لجواب الوالي بقوله :

ـ أنا أقل من ان اتحدى سلطة الدولة ولذلك فإنني مستعد كل الاستعداد لأن أسلم لكم المجرم .. ثم استطرد وقال : ولكن كيف أتمكن من تسليمه لكم مـا دمت سجيناً هنا .. فقال الوالي :

ـ الطريقة الى ذلك سهلة جداً ، فبالامكان أن نأتي اليك ببدوي يعرف المكان الذي فيه المجرم في الصحراء بعدما تصفه له ونبعث مع البدوي جنوداً من عنـدنا يعتقلوه وحين يصل الى هنا نخلي نحن سبيلك انت وأخاك ..

ـ هذا ليس هو الرأي الذي يضمن استلامكم للقاتل. وفي الوقت نفـسه يضمن ايضاً اطلاق سراحي وأخي ..

ـ ما هو وجه الخطأ في ذلك ؟..

ـ الخطأ واضح وهو ان المجرم سوف ينهزم قبل أن تستلموه لأنه حذر جداً ولا سيما بعد ان عرف انكم حبستموني وأخي من أجله..ولكن الطريقة التي تضمن لكم ولنا استلام المجرم هي ان اذهب وحدي الى هنـــاك وعندمـــا يراني يأمن ولا يهرب وعندذاك أتمكن من اعتقاله وآتي به اليكم هنا..ثم استطرد في حديثه مع

الوالي وقال : واذا لم تكونوا واثقين من عودتي فلكم أن ترهنوا أخي ولا تطلقوا سراحه حتى آتي اليكم بالمجرم ..

خدعة مدروسة

لم يتردد الوالي في الموافقة على ذلك الرأي الذي ظهر له وجيهاً وسديداً. فأطلق مراح محمد حالاً بينما أبقى أخاه في السجن الى ان يعود بمستجيره ويسلمه اليه . وكان الوالي يتمتع بقسط وافر من الجهـــل العميق بمعرفة اخـــلاق العرب وعاداتهم ..

أما الأخ الذي ظل في السجن فكان متفقاً مع أخيه في دراسة الخدعة وراضياً لنفسه كل الاحتالات التي سوف تتخذها معه الحكومة سواء كان السجن المؤبد أو الاعدام وهذا المنطق في عالم الشيم العربية لا يمكن أن يفهمه حضرة الوالي. وحتى لو افهم به فإنه لا يستطيـع أن يهضمه ولو هضمه فإنه لم ولن يؤمن به ، وكل مـا لدى فخامة الوالي من الوسائل التي فعلها هي ان يبعث جنوداً يحملون الاصفاد التي سوف يضعونها في يد القاتل عندما يسلمه لهم مجيره ..

ذهب محمد بن سمير وبصحبته اربعة من جنود(الوالي)المغفل الذي لم يبعثهم إلا وهو على يقين من أن ابن سمير بمجرد وصوله الى هناك سوف يسلم مجـــيره للجنود ليضعوا في يديه الاصفاد ..

كان في الشام شباب من أقارب ابن سمير أقاموا في المدينة طوال المدة التي كان قريبهم وأمير عشيرتهم سجيناًفيها ليقدموا له القهوة العربية التيلا يستطيع أن يسلو عنها، كما يقدمون له طعام البادية الذي ترغب فيه نفسه ويألفه اكـثر من طعـــام السجناء ..

وعندما خرج محمدمن السجن ترك بعضاًمن أقاربه عند أخيهوالبعضالآخر بعثه يبشر أهله بخروجهويخبر فرسانعشيرته بأنه سوف يحضر في يوم كذا وانعليهم أي فرسان العشيرة ان يهيئوا انفسهم(لعرضة)شعبية تشمل رجال العشيرة بكاملها من الفرسان الى المجانة الى المشاة . فذهب الرسل الى اهلهم يحملون البشرى ، بخروج

اميرهم كما يحملون وصيته التي بلغوها لرجال العشيرة بكل امانة ..
وصل الرسل الى اهلهم قبل اميرهم حسب خطته المرسومة، بينما تأخرهو في دمشق ريثما اشترى بعض ما يلزم بيته من قهوة وكسوة لأهله .. ومن بعد ذلك غادر دمشق هو وجنود الوالي حملة الاصفاد ، وظلوا يواصلون سيرهم حتى بلغ اهله . وهناك وجد الفرسان والهجانة وجميع رجال ونساء العشيرة كلهم مستبشرين ومعلنين فرحهم وسرورهم بطريقة الاستعراض الشعبي ، ومن بينهم طبعاً شلاش.. كان منظر رجال العشيرة يوحي بالنشوة والأعتزاز في نفسية الخائف المستجير كشلاش وهو في الوقت ذاته يوحي بالهيبة والرعب في كيان الجنود حملة الاصفاد ..

رجع حملة الاصفاد خائبين مطرودين

وعندما انتهى الاستعراض جاء رجال العشيرة يتقدمهم شلاش ليسلموا على اميرهم وكان حملة الاصفاد جالسين عن يمينه فأشار الامير بأن يسلموا بادىء ذي بدء على الضيوف أي الجنود . وكان ابن سمير يقوم بدور رجل التشريفات ، وحين جاء مستجيره يتقدم صفوف المرحبين أخذ بيده وقدمه الى حملة الاصفاد قائلًا :

– هذا شلاش العر . فصافحهم واحداً واحداً بدون ان يكترث بهم مما جعلهم ينظرون اليه شزراً وجعله ينظر اليهم نظرة الساخر المتحدي . وباتوا تلك الليلة عند مضيفهم الذي لم يدخر وسيلة من وسائل الحفاوة والاكرام إلا بذلها لهم . وفي صباح الغد نادى ابن سمير جنود الوالي واجلسهم عن يساره بينما كان مستجيره جالساً على يمينه، فقال:
– هذا مستجيري (شلاش العر) الذي عرفتكم به امس الماضي وهو الذي بعثكم حضرة الوالي الجاهل لأسلمه لكم اذهبوا اليه وقولوا له : بالنيابة عني مادمت ايها الوالي جاهلًا بشيم العرب الى هذا الحد الذي جعلك تبعث جنودك معي لأسلمك

مستجيري فما عليك إلا ان تسأل ادني فرد ممن له أقل المام بعادات العرب – هل يمكن لعربي ذي اباء وشمم ان يرضى بتسليم مجيره لأية قوة كانت ما دام يوجد في دمه عرق ينبض بالحياة ؟ ثم واصل حديثه وقال : أكدوا للوالي على لساني انه من المستحيل ان يستلم مستجيري، اللهم الا بعد ان يمشي على جثتي وعلى جثث جميع رجال عشيرتي هذه ، والذي يمكن ان نفعله تجاه الوالي الذي يمثل سلطة الخليفة العثماني هو ان يطلب مني دية الضابط المقتول ، ثلاثة اضعافها ، وله علي ان ادفع طلبه هذا الذي فيه فائدة لأهل ضابطه المقتول . ان هذا خير وابرك الف مرة من عقابكم لمستجيري الذي أكرر لكم ثانية بأنكم لن تستلموه ما دمت أنا وعشيرتي على قيد الحياة ..

عاد حملة الاصفاد الى سيدهم الوالي صفر اليدين وبلغوه كلام ابن سمير حرفياً .

لم يكن من الوالي إلا ان اشتدغيظه وأرغى وازبد، وفكر في ان يقتل أخا السمير السجين . لكن المخلصين اشاروا عليه بأن قتل السجين لم يكن حلاً مجدياً ، وبالتالي رأوا ان من الافضل ان يأخذ برأي ابن سمير الذي نقله جنوده، أي ان يطلب منه دفع الدية ولكن بطريقة فيها شيء من الامتحان والتعجيز، بصورة يعتقد معها ان ابن سمير سوف يرفض دفع مطاليبه الباهظة . وكان الطلب الذي حمله رسول الوالي لأبن سمير ينص على دفع اربعمائة ناقة من طيبات الابل وثمانمائة شاة من خيرة الضأن، فلم يتردد ابن سمير من تنفيذ كل ما طلبه الوالي على شرط ان يتعهد له بضمانة خطية تحمل توقيع الوالي . والقاضي الشرعي معاً ، وإذا تم ذلك فإنه على أتم الاستعداد بأن يدفع كل ما طلبه الوالي ، وعند ما عاد رسول الوالي يحمل موافقة ابن سمير على تنفيذ الطلب ، كما يحمل في الوقت ذاته شرطه الخاص بطلب الوثيقة المصدقة من السلطة التنفيذية والسلطة القضائية ، التي تشير الى تنازل الحكومة وأولياء المقتول عن حقوقهم ، وافق الوالي واتخذ الاجراءات القانونية التي طلبها ابن سمير . فأحضر ابن سمير الطلب المشار اليه من الابل والغنم وجعلها جاهزة .. وكان أخو ابن سمير هو الوسيط الذي استلم الوثيقة من الوالي . وبعدما أيقن ابن سمير ان الوثيقة وقعت وان الوالي صادق وجاد في الموضوع عند ذلك ارسل ما قرره

الوالي كاملاً من الابل والغنم ثم سلم الوثيقة الى مستجيره شلاش الذي ضمهـــا الى صدره وراح بعد ذلك الى اهله آمناً غير خائف ..

وبعد ذلك جادت قريحة محمد بن سمير بقصيدتين لم يردنا منها مع الأسف إلا ما هو أقل من القليل . وعلى سبيل الاستشهاد يطيب لي ان آتي بما وصل الينـــا من قوله :

يا شلاش ما نعطي دخيل [1] نصـانا
لو جمعوا كل العساكر والارواм

تعي[2] على الشيمة سوا لد لحانا
قصيرنا [3] ما هو قصير لصطـام

الشرح : يخاطب الشاعر شلاشاً الذي استجار به ويقول انه من المستحيـل ان نسلمك للدولة حتى ولو جاءت الحكومة بجميـع عساكرهـــا من الاتراك ومن الرومـــان .. فإننا لن نتخلى عنك، وما عليك إلا ان تنام قرير العين هادىء البـال ..

وفي صدر البيت الثاني يقول ان شيمتنا العربية تأبى ان نسلمك للحكومة. وفي عجز البيت يهجو الشاعر رئيس قبيلة من اكبر رؤساء القبائل في شمال الجزيرة وهو صطام بن شعلان فيقول ان جاري ليس جاراً لصطام ..

واليك بعضاً من أبيات قصيدته الثانية التي تشبه بمعناها الاولى :

يا شلاش ما نعطيك حمر الطرابيش
لو جمعوا كل العساكر علينـــا

دونك نسوق المال والخيل والجيش
وان لزموا يا شلاش نرهن حدينا

اخوان عذرا ما بهم ماكر كديش
وعمارنا يا شلاش ترخص علينـــا

الشروح : يقول ابن‌سمير مخاطباً مستجيره المدعو شلاش إياك ان‌تخشى أو يخطر ببالك ان نسلمك (لحمر الطرابيش) يقصد رجال الدولة العثمانية الذين كانوا يتخذون الطربوش أي الطاقية الحمراء التي توضع فوق الرأس شعاراً لهم وقتذاك.. وفي عجز البيت الاول يعيد الشاعر المعنى نفسه سالف الذكر أي الذي في البيت الاول من قصيدته الاولى فيقول : لن نسلمك يا شلاش للحكومـــة حتى ولو جمعت جميع جنودها وساقتهم الينا ..

وفي البيت الثاني يقول : عندما تطالبنا الحكومة بتسليمك فإننـا سوف ندفع جميع ما نملك من المال وما نملك من الابل وما نملك من الخيل.. كل ذلك سوف ندفعه فداء في سبيلك ـ وفي صدر البيت الثاني يشير الى العملية التي قام بها في وضعه لأخيه رهيناً في سجن الحكومة ويقول : ان هذا العمل كله في سبيل حمـــاية جاره شلاش ..

وفي البيت الثالث يفتخر الشاعر بإصالة نسبه وعراقـــة حسبه كما هو شأن الاعراب منذ قديم الزمان فيقول : نحن اخوان عدرا ، عَذْرا كما نقله الينـــا الرواة هي القرية التي بقرب الشام فيقـــال ان هذه القرية كانت ملك لأبن سمير وكأنه يقول : نحن حماة بلدنا عدرا [1] .

---

١ ـ القصيدتان فيهما ابيات شيقة وتعبر عن الحادثة بوضوح .. ولكن لم نعثر على اكثر مما جاء في السياق واعتقد ان الكثير من القصيدتين انطوى في صدور الرواة الذين تحت الثرى ..

حتى ولو كان عمداً عفونا عنه

- ٤ -

كان ذلك في عام ١٣٣٣ هـ عندما هرب معضد [١] بن منيع من قبيلتـه شمر خوفاً من عقاب أحد رجال القبيلة الذي يطلبه ثأراً وينوي الاقتصاص منه وراح واستجار بحمى شافي[٢] بن شامان البجيدي. وقد عاش المستجير في حمى مجيره أكثر من خمس عشرة سنة وهو موفور الكرامة ، لا يستطيـع ابن عمه الذي هرب منه أن يمسه بسوء .

وكان لكل من المجير والمستجير فتى في ريعـان شبابه ، وكما ان الأبوين يعيشان كالأخوين كان ابناهما يعيشان أيضاً كالأخوين التوأمين .. كانت الالفة بينهما متصلة كاتصال الروح بالجسد ، وكان كل منهما بكر أبيه واذا طـــال غياب ابن الشمري عن أهله وأراد أبوه أن يتفقده فانه لايذهب بعيداً ولا يسأل عنه أي أحد وانما يذهب الى بيت مجيره العنزي فان وجده فيها والا فيسأل عن ابن رفيقه فان لم يجده عاد راجعاً وكله ثقة ان ابنه وابن مجيره ذهبا سوية الى أحد الأمكنة التي يمرح فيها فتيان البادية الذين لا يملون الألعاب الرياضية ..

كان هـذا ديدن الفتيين منذ ان كانا في سن الطفولة الى سن المراهقة ثم سن الفتوة الذي يعيشانه الآن ، وفي هذه السن أي سن الفتوة كان الفتيان كثيراً مـا

---

١ – معضد من قبيلة شمر الفرات ومن بطن يقال لهم الثابت .

٢ – شافي بن شامان من قبيلة عنزة ومن عشيرة العمارات ومن بطن يقال له السلقا.

يحمل كل منهـــما بندقيته ويذهبان الى الفلاة لأصطياد الأرانب البرية ثم يعودان قبل غروب الشمس ، وهمـــا يحملان مختلف أنواع الصيد من أرانب الى طيور الى غزلان أحياناً ، وقل ان يعودا صفر اليدين . كانا اذا أفلس احدهمـــا من الصيد ووفق الآخر فان هذا الاخير يقسم صيده بينه وبين رفيقه هكذا اصبحت قضية ذهابهما للصيد لها اكثر من معنى :

أولا — انها تعبر عن رسوخ الفتهما بحيث لا يمكن ان يذهب احدهمـــا للفلاة دون أن يصحب رفيقه .

ثانياً — تشير الى ما يتمتعان به من صدق الأخوة والمودة بينهما بصورة تجعل كلًا منهما يساوي صديقه بنفسه فيوزع صيده بينه وبين رفيقه في حالة افلاس احدهما من الصيد أو عندما يزيد صيد احدهما على الثاني .

ثالثاً — يجد الفتيان في رحلتهما للصيد لذة ورياضة علاوة على ما يقدمانه لأهلهما من لحوم صيد البر اللذيذ الشهي .

ظـل الفتيان على هـــذه السيرة ، يخرجان بعـد انبثاق الفجر ، وقبل بزوغ الشمس ممتطياً كل منهما ذلوله واضعاً (شداداً) وخرجاً صغيراً فيه قبضة من التمر ومثلها من طحين البر ، ويعادلها على جانب الذلول الثاني قربة ماء ، وبندقيته التي . تظـــل معلقة في (غـزالة) الشداد الاخيرة ، وعندمـــا يقطعان مسافة عشرة اميال تكون الشمس قـد بسطت اشعتها على الصحراء النقيـــة الهواء ، في تلك اللحظة ينيخ الفتيان راحلتيهما ثم يتولى احدهما وضع قيد في ذلوليهما بينـما يقوم الثاني بأخذ حفنة من الطحين فيعجنها ثم يختار لهـــا أرضاً رملية نقية فيضعها فيها ثم يشعل جذوة حتى اذا خمد اللهيب جاء بالجمر ووضعه فوقهـا واذا أيقن ان وجهها الأعلى نضج قلبها على الوجه الأسفل ، واذا وثق من نضوجها من كلا الجانبين أخرجها ومزجها مع التمر ، فان كانت سنتها كثيرة الأمطار والبركات اضافا الى الرغيف والتمر سمناً ، وتسمى هذه الأكلة (حنيني) وهي ألذ الأكلات لا عند البدو فحسب ، بل حتى عند حضر نجد في ذلك العهد ولا يتوفر وجودها الا عند الطبقة الراقية .

أما اذا كانت السنة من السنين العجاف التي كثيراً ما يهلك فيها الضرع ويذوي الزرع من شـــدة الجفاف ـ اذا كان الأمر كذلك فان الفتيين يكتفيان بالتمر والرغيف ، وأحياناً يكتفيان بأحدهما مع الماء الزلال ..

وقـد ذكرنا من قبل انهما كانا يعودان قبل غروب الشمس،وقل ان يتأخرا الى مـا بعد ذلك ، اللهم إلا في الحالات النادرة ، عندما يتعذر عليهما وجود الصيد ، فيصعب عليهما ان يعودا صفر اليدين . وحتى ولو لم يجدا إلا ارنباً واحداً فانهما اما ان يتقاسماه أو يتركه ابن المجير لجاره الذي عنده من الاطفال اكثر من واحد ، بينما المجير لم يكن عنده من الذرية سوى هـــذا الفتى الذي هو بكر أبيه وأمه ووحيدهما ..

وفي احدى الليالي تأخر الفتيان عن مجيئهما المعتاد ، فظن اهلهما انهما سيأتيان أول الليل . ولكن أول الليل مضى بدون أن يأتي الفتيان، فدب في قلوب والديهما الرعب . وذهب المستجير الى بيت مجيره في آخر الليل ظاناً ان ابنه جاء متأخراً أو انه بات عند رفيقه ، ولكنه عندما وصل هناك وجد مجيره يقظاً ومشعلاً ناره ويحتسي أكواب القهوة بنهم ومزيد من القلق .. كما وجد أم الفتى بجانب بعلها بحـالة تزيد قلقاً عن زوجها . فسلم وجلس بدون أن يحاول أن يسأل عن ابنه لأن مظهر الزوجـــين أبدى له أن مصير ابنه وابن مجيره واحد . ولذلك جلس صامتاً ، وبعد أن ناوله مجيره عدة أكواب من القهوة ورشفها الآخر بنهم لا يقل عن نهم مجيره ...بعد ذلك غشي المجير ومستجيره فترة من الوجوم دون ان يحدث أحدهما الآخر ، إلا أن زوج المجير لم يعد بوسعها أن تصبر أكثر مما صبرت فوجهت الى مستجيرها السؤال التالي :

ـ ما هو الأمر الذي تتوقع أن يكون السبب الرئيسي لتأخير ولدينا ..

وقبل أن يجيب المستجير أجاب المجير قائلاً :

ـ انه يجهل السبب كما نجهله نحن .. ثم بعد ذلك أجاب المستجير :

ـ ان الاحتمالات كثيرة ..

فتنهدت الأم بزفرة شديدة ثم قالت :
– ما هي الاحتمالات التي تعني ؟
– ربما ضاعت احدى راحلتيها وراحا ينقبان عنها حتى امساهما الليل. او ربما انها لقياصيداً كثيراً وظلا يلاحقانه الى ان دهمها الليل وعندما انهكهما التعب ناما لكي يرتاحا قليلا فغلبهما النوم كشأن الشباب في مثل هذه السن ، فظلا غارقين بنومهما حتى هذه الساعة ..
فقال الجير :
– كلا الاحتمالين معقول جداً ، فبادرت الام وهي تحاول ان تخفي عبرتها وقالت :
– ولكن اذا انبلج الضحى غدا دون أن يأتيا جميعا او يأتي واحد منهما فماذا يكون الاحتمال ؟
فأجابها بعلها :
– مالك متشائمة وتفترضين احتمالات سابقة لأوانها ؟..
فأجهشت بالبكاء قبل ان تقول :
– لا تلمني فيما اذا تشاءمت لأنني رأيت في منامي الليلة الماضية رؤية افزعتني وأقضت مضجعي .. فنهرها بعلها محاولا ان لا تمضي في شرح رؤيتها التي توحي بأنها لا تبشر بخير وأن تترك بكاءها الفاجع قائلا ..
– قولي خيراً او اصمتي .. ولكنها لم تصمت ولم تقل خيرا بل ازدادت في بكائها وقالت كلمات يكاد ان لاتفهم معانيها من شدة بكاها وشهيقها ..
– أجل لقد رأيت البارحة ان نارا أدخلت في فؤادي واحرقته .
فنهرها بعلها ثانية بشدة .
– استعيذي بالله من الشيطان الرجيم .
وشاء الضيف المستجير ان يحسم النزاع فقال :
– من الاجمل ان اذهب الآن على مطيتي واتبع اثرهما علّني أجدهما نائمين كما اظن ..

فبادره مجيره العنزي قائلا :

ــ هدىء روعك ولا تعجل ولا يستخفنك هذيان هذه المرأة.. ولا مرد لقضاء الله وقدره ، والخير كله عاجله وآجله بما يرضاه الله لنا والعجلة من الشيطان والاناة والصبر من الرحمن .

ــ لم يكن في الامر عجلة ولست ممن لا يصبر ولا يحتسب فيما إذا قدر الله أمراً مهما بلغ من الهول والفظاعة وإنما أردت ان افعل الاسباب ليس الا ..

ــ أنا اوافقك الرأي على فعل السبب من حيث المبدأ ولكنني لا اوافقك بأن تمضي على راحلتك من الآن وإنما الافضل ان ننتظر حتى تبزغ الشمس أو على الاقل حتى ينبثق الفجر فإذا لم يأتيا عندئذ نذهب سوياً ..

ــ ها هو الفجر قد انبثق ..

ــ هذا الفجر (الكذاب) [1].

ليس بين هذا وذاك الا فترة وجيزة لا تتجاوز المـــدة التي آتي براحلتي من مراحها وانيخها وأضع على ظهرها شدادي فعندها يكون الفجر قد اسفر ..

ــ إذا كان ولا بد فلنذهب سوياً ..

ــ أرى ان لا داعي لذهابك ..

ــ اريد ان أؤنسك وأسليك في خلوتك..

ــ الأمر بعد الله لك . ومن هنا تدخلت المرأة وقالت :

ــ ولا بد لي من ان اذهب رديفة لك . (تعني زوجها) ..

فرد عليهـا بعلها :

ألم أقل لك استعيذي بالله من الشيطان الرجيم . فصمتت المرأة على مضض بينما ذهب الشمري والعنزي كل منهما يدني راحلته .وقبل ان يمتطي الاول منهما ذلوله سمعا مؤذن الفجر ينادي (حيّ على الصلاة) .. فأديا صلاة الفجر ثم ذهبا نحو الجهة

---

١ ــ يسمي الفجر الاول عند البادية الفجر الكذاب .

التي اتجـه اليهـــا الفتيان ، وبعدما اشرقت الشمس وجدا أثر راحلتي الفتيين فظلا يتتبعان الأثر . وفجأة سمعا حركة من خلفهما فانحرفا الى الخلف لينظرا ما هي هذه الحركة ؟ فاذا بها قرينة العنزي تسير خلفهما حافية القدمين، فأناخ بعلها راحلته واركبها خلفه وواصل سيره مع جـــاره الشمري حتى وصلا الى راحلتي الفتيين فوجداها مقيدتين ترعيان من عشب الفلاة .

رؤيا الأم تتحقق

فأجالوا بصرهم هنا وهناك لينظروا أين الفتيين . ولكنهم لم يروا لهما شبحاً ولا أثراً . فعادوا يتتبعون أثر الراحلتين من جديد فقطعوا مسافة بعيدة دون ان يروا للفتيين أي أثر . وبينما المجير وجاره في حيرة من أمر ابنيهما اذا بالمرأة تصيـح قائلة : ها هما نائمان . وتمد يدها مشيرة الى واد منخفض قريب منهم ..

فقال الشمري لمجيره :

ـ هذا ما كنت أتوقعه . لقد تعبا وناما ولم توقظهما حرارة الشمس ..

فقال العنزي :

ـ هذا نوم الشباب .. لقد كنا ننام اكثر من ذلك عندما كنا شباباً في مثل عمرهما . ولم تنتظر الام حتى يصلا اليها بل نزلت وراحت تجري لتوقظ ابنها من نومه . ولكنها عندما وصلت اليه وجدت ابنها نائماً نومة أبدية ، فوقعت مغشيـاً عليها .وفي هذه اللحظة وصل المجير وجاره،فوجد ابن المجير مصاباًبرصاصة في صدغه الأيمن وخارجة من الصدغ الايسر وناثرة مخه على بقية جسده وراحا الى ابن الجار فوجداه هو الآخر منكباً على وجهه ولم يبد منه أية علامة تدل على أنـه حيّ ، فقلبه والده على ظهره لينظر الى أثر الاصابة ولكنه لم ير به أثراً لاصابته ، فوضع يده على صدره ليتحسس نبضات قلبه ، فوجد ان هناك ما يدل على انه لا زال على قيد الحياة ، وان كانت النبضات غير طبيعيـة وتتحرك ببطء . وفي الوقت نفسه

كان العنزي يقوم بالعملية نفسها نحو زوجته . وبعدما تأكد الشمري أن ابنه لم يصب بسهم ولم يفارق الحياة . عند ذلك ذهب الى مجيره فوجده يتحرى نبضات قلب زوجته . هل انها اصيبت بنوبة قلبية أودت بحياتها؟.. أم أن القضية لا تعدو كونها نوبة أغماء ؟..

وبعد التثبت وجد القضية اغماء أصابها نتيجة لهول فاجعتها بابنها . عند ذلك اتجه نحو مستجيره يسأله عن ابنه قائلاً :

– كيف وجدت ابنك لعله على قيد الحياة ...

– هكذا يبدو لي لأنني لم أجد في جسده أية علامة تدل على اصابته ولا أظن به إلا الاغماء فقط ..

– اذن فلنذهب اليه علنا نوقظه من اغمائه ..

– فلنوقظ زوجتك أولاً .

– لا . فلنبدأ أولاً بابنك أما الزوجة فان قرب عهدها بالاغماء يجعلها أخف خطراً من ابنك ..

أصر كل منهما على رأيه . فراح العنزي يوقظ ابن جاره باستعمال المنبهات المألوفة كرش وجهه بالماء البارد وما شابه ذلك .كما قام الشمري بالعملية نفسها مع زوجة العنزي . فاستيقظت المرأة قبل الفتى . فكان أول كلمة تحدثت بها قولها :

– الحمد لله على قضائه وقدره . ثم أردفت قائلة :

– لعل ابنك سليماً (تعني الشمري) .

– ليست به اصابة. فمدت بصرها اليه فرأت بعلها يستعمل معه وسائل التنبيه. فقالت لجارها :

– هيا بنا اليه . فذهبا الى الفتى وقد لفت نظرهم جميعاً وجود بندقية الشاب

ملقاة بجانبه وخزينة الذخيرة مفكوكة . وفي بيت نار البندقية (طلقة ناريه) خارجاً سهمها وبقي مكان السهم فارغاً، مما يدل على ان سهم هذه البندقية هو الذي هشم رأس الفتى القتيل . وكانت الأدلة كلها متوفرة بأن ابن المجير مات من يد ابن المستجير ..

كانت مصيبة الشمري فيما اذا كان ابنه القاتل لابن مجيره لا تقل عن مصيبة العنزي وزوجته بابنهما . وكان العنزي ينظر الى وجه جاره الذي بدأت عليه علامات البؤس واضحة . وكان كل ما يخشاه ان يفلت لسان زوجته بكلمة تصدر بغير وعي منها فتمس بمفهومها شعور جاره الشمري خاصة بعدما ثبت بالدليل الملموس أن ابنها الوحيد لم يمت الا من سهم ابن الشمري . ولذلك أسرع العنزي بقوله :

– لا شك أن العملية سهواً .

موجهاً كلمته هذه الى حليلته . وكأنها أدركت ماذا يعني بعلها بهذه الجملة فقالت :

– حتى ولو لم يكن سهواً عفوت عنه . ثم مضت قائلة :

– اذا كان ابن صويط قتل ابنه من أجل جاره . فهل من الشيمة ان نسيء الى ابن جارنا حتى ولو قتل ابننا عمداً ..

قالت هذه الكلمة ثم مضت تساعد زوجها على ايقاظ ابن جارهما من غيبوبته بينما ظل والد الفتى في شبه غيبوبة . وبعد استعمال شتى الوسائل لايقاظ الفتى . عند ذلك بدأت اليقظة تدب في كيانه شيئاً فشيئاً حتى استكمل وعيه ، فوجد نفسه بين يدي أم الفتى وأبيه الذي يكن له من الالفة والمودة الشيء الذي لا يعادله في نفسه الفة ومودة والديه. الامر الذي جعله يجهش بالبكاء على فراق صديقه بل أخيه الذي مات من يده . وبعدما سكب من مقلتيه دمعاً لا يقل غزارة عن دمع والدة القتيل ثم هدأت اعصابه الى حد ما . بعد ذلك أراد أن يشرح الأمر

كيف حدث . ولكن والد القتيل ووالدته منعاه ، ولم يدعا له مجـــالا لشرح القضية . وكل ما في الأمر ان تعاونوا جميعاً على حفر قبر الفتى . وبعد ان واروا جثمانه عادوا وكأن لم يكن أي شيء بالنسبة لوالد الفتى ووالدته اللذين فقدا فلذة كبديهما ووحيدهما في الدنيا كلها .

وكانت التقاليد تقضي بحـالة كهذه ان يدفع القاتل دية من خيرة الابل لوالد القتيل لا يقل عددهـــا عن ستين ناقة ، ولكن العنزي رفض حتى قبول الدية .. والقصة مشهورة ..

الشقي الذي شقي به اهله

- ٥ -

كما انني وفقت الى جمع وتأليف ما استطعت الحصول عليه من شيم العرب ، فانني أرجو ان تتاح لي الفرصة الكافية التي أوفق بها الى جمع وتأليف عادات العرب ، وذلك ان لعرب البادية عادات وقوانين وأنظمة يطبقونها على انفسهم بصورة إلزامية. كما ان لهم قضاة يرجعون اليهم في قضاياهم وما يحكم به هؤلاء القضاة يكون حكماً ساري المفعول ، والذي اعتقد ان الحكم في بعض القضايا غير الرئيسية يختلف باختلاف القبائل ، أما القضايا الرئيسية فإنهم متفقون عليها فمثلا الذي يرتكب فاحشة فهذا لن يجد من يجيره ولا يؤويه قطعياً حتى أهله يتبرأون منه ، هذا وانني اعتقد ان البحث في هذا الموضوع يحتاج الى سفر خاص ..

والذي نحن في صدد الاشارة اليه الآن هو موضوع كنت أجهل كنهه لو لم يأت عرضاً في مجرى قصتنا هذه وهو انني اعلم ان الجار أو المستجير مهما ارتكبا من الشطط عمداً او خطأ فان زلتها مغفورة مهما بلغت من الضخامة ، ولكنني اجهل ان الجار او المستجير ، اذا ارتكب خطيئة وهو عند مجيره ، ثم عاد الى اهله ، فانه يتحتم عليه ان يشد الرحال هو ونخبة من رجال قبيلته من اجل ان يعرب عن شكره وتقديره لمجيره على تسامحه عن عثرته التي ارتكبها خلال الليالي التي قضاها في جواره ، فإن لم يأت هذا المستجير بعدما يصل الى اهله في خلال مدة اقصاها سنة

كاملة فاذا مضت هذه المدة بدون ان يأتي المستجير الى مجيره ويقـــدم له الشكر والاعتراف بعفوه ، فمعنى ذلك ان هذا المستجير اما ان يكون مستهتراً بحق مجيره او جاحداً لمعروفه ، فعندئذ ترتفع عنه حصانة الجوار السابقة بانتهـاء المدة الزمانية سالفة الذكر ، ويكون للمجير الحق في ان يطالب مستجيره بالجريمة التي ارتكبهـا خلال اقامته ، اللهم إلا اذا استدرك الامر ، وأبدى اعتذاره بفوات المدة التي أهملها فعندئذ ينتهي الامر بالتسامح ، واعادة الماء الى مجاريه ، كما حصل عملياً مع ابطال القصة الآ تية .

في سنة ١٣٠٦ هـ جاء الى علي الجبري [١] رجل من قبيلة مطير فـاراً من اهله خوفاً من أحد رجال القبيلة الذي اعتدى عليه بسبب حادثة ما ، فاستجار به فظل المطيري بجوار الجبري مـــدة اقامته عزيزاً مرفوع الرأس شامخ الانف موفور الكرامة ، كشأن كل مستجير عند أي عربي .

الابن المشؤوم

كان المستجير ابن تجاوز سن الرشد كما كان لعلي الجبري ابنان احدهما يضارع ابن المطيري بالسن والثاني ينقص عنه قليلاً ..

ولما كان المطيري مطالباً بالثأر من قبل رجال قبيلته ، فانه بطبيعة حاله يكون محتاطاً للامور المفاجئة ، ولذلك كان لا يترك بندقيته فارغة من الذخيرة ، بل كان بيت النار دائماً مليئاً بالرصاص ، وفي ذات يوم جاء ابنه واختطف بندقيته بغفلة من ابيه وراح يعبث بها وكان احد ابني علي الجبري أي مجير والده قريباً منه عندما كان يعبث ببندقية والده وفي احدى حركات الفتى السريعة التي لا شعور بها وضع احد اصابعه

---

١ – علي من قبيلة حرب من عوف بادية المدينة المنورة ، وهو شقيق لعليان الشاعر الشعبي المعروف المتوفي عام ١٣٦٤ هـ .

على زناد البندقية،بعدما أزاح مسمار الامان ، فكانت النتيجة ان انطلقت الرصاصة واصابت مقتلاً من الابن الاصغر للمجير فخر صريعاً على الفور ..

كان والد الفتى ساعتذاك غير موجود ، فهب نفر من صبيان القبيلة يبدون حماساً وضجراً من تصرف القاتل ، ولكن ام القتيل زجرت الفتيان الطائشين قائلة :

ـ لا شأن لكم في الامر ما دام المقتول ابني والقاتل ابن مستجيرنا ، ولئن كانت عواطف الامومة لها في النفس أثرها المؤلم فإن حرمة المستجير اذا انتهكت أشد ألماً وأثقل وطأة على النفس من الألم الناشيء عن مقتل الابن .. ثم مضت بحديثها الى ان قالت : ان ابني لقي حتفه بحكم القضاء والقدر ومن المستحيل ان تعود الروح اليه من جديد ، وان أي تصرف أهوج يصدر منكم أيها الفتيان بحق مستجيرنا فإنكم مسؤولون عنه فيما اذا جاء بعلي الآن فهو لا يهمه مصرع ابنه بقدر ما يهمه انتهاك حرمة مستجيره ..

تراجع الصبيان عن فورة غضبهم وذهبت الام تدثر ابنها المسجى بعباءتها،وبعد لحظة وجيزة جاء والد الفتى فاخبر بالأمر الواقع ، فما كان من أمره إلا ان ذهب الى مستجيره الذي وجده بحالة ارتباك وقلق فطمأنه وأبدى له عدم اهتمامه بالقضية مؤكداً له ان أجل ابنه انتهى من عالم الدنيا وانه لو لم يمت بسبب هذه الطلقة الطائشة لمات بهذا اليوم نفسه .. وبهذه الساعة بالذات بسبب آخر .

وبعدما ادخل الى قلب مستجيره الطمأنينة وهدأ روعه ، طفق وفئة من ذويه الاقربين يواري جثمان ابنه ..

وعلى الرغم من أن علياً طمأن مستجيره وخفف عنه ما في نفسه من خجل وروعة ، وبالرغم مما سمعه من والدة الفتى من الكلام الذي وجهته الى اولئك الصبيان المتهورين بالرغم من هذا كله فقد ظل المستجير في حالة سيئة من شرود الذهن والقلق والهموم التي كدرت صفو حياته ، ولم ير أمامه إلا ان يرحل عن مجيره ويعود الى قبيلته مطير ، معرضاً نفسه لعقاب رجال قبيلته التي هرب منها

غير مبال بما يصيبه منهم حتى ولو كان القتل ، فإنه لم يبق في نفسه أي أسف على حياته المشؤومة التي اصبحت عبئاً ثقيلاً عليه ..

وحيد الأبوين يلاقي المصير الذي لقيه أخوه

كان صباح عيد الفطر ، عندما كان فتيان القبيلة يمرحون وينشدون الاهازيج موالين رقصاتهم الشعبية ويطلقون الرصاص من أفواه بندقياتهم في الهواء ، وكان ابن الشؤم من ضمن أولئك الفتيان يشاركهم أفراحهم ، يرقص كما يرقصون ويطلق الرصاص من فوهة بندقية والده المشؤومة الاخرى ، وكان والدا الفتى المقتول لم يشاركا القبيلة بأفراحها حزناً على ابنهما الذي لم يتجاوز مصرعه المدة التي يندمل بها جرح الحزن .. وكان المستجير وزوجته هما الآخران لم يساهما بأفراح العيد ، بحكم ما يعانيانه من أثر الصدمة التي سببها لهما ابنهما . ففي هـذه الفترة بالذات سمع المطيري أهازيج الصبيان واطلاق الرصاص ، فهب يسأل زوجته عن ابنه فلم تفده عن وجوده . فراح يتفقد بندقيته فلم يجدها في مكانها المعتاد الذي وضعها فيه ، فنقب عنها هنا وهناك فلم ير لها أثراً . فأعاد الكرة الى زوجه يسألها أين البندقية؟..فكان جوابها سلبياً. فصاح بها: لا يكون الشقي الملعون أخذها؟. فأومأت الزوجة برأسها باشارة تعبر عن جهلها بالبندقية وعن غضبها على ابنها ..

فقال : لا بد ان وجه الشؤم التقط البندقية .. ثم أردف قائلاً : قبحه الله من ابن منحوس . منذ أن رأيته لم أر اليوم الأبيض .. هأنذا ذاهب اليه لئلا يجلب لنا مصيبة أخرى ..

هرع الاب يهرول ليأخذ البندقية من ابنه ، وقبل ان يصل الى ملعب الصبيـة لاحظ ان الفتيان تركوا رقصهم وأغانيهم وان الطلقات النارية انقطع صوتها وعندما دنا منهم اكثر وجد الضجيـج الممزوج بالبكاء ، فأسرع بجريه ليتحقق ما الامر .. وعندما توسط الملعب وجد ابنه ملقى على وجهه كما وجد ابن مجيره بحالة مماثلة فراح يقلب ابن مجيره فوجده مصاباً برصاصة تحت ابطه الأيسر فوضع يـده على صدره

ليجس نبضه فوجد قلبه ساكناً عن الحركة ، فراح يسأل ما الخبر ؟.. فقيل له ان ابنك اطلق رصاصة من بندقيته فقتلت الفتى .. وما ان سمع هـذا النبأ حتى سقط مغشياً عليه .. وفي هذه اللحظة كان والد الفتى قد وصله خبر السوء فجاء ووجد الامر قد نفذ بأبنه كما وجد مستجيره وابنه المشؤوم مغمى عليهما،فما كان من امره الا ان عزى نفسه بقوله :

ـ انا لله وانا اليه راجعون ، ثم اردف قائلاً :

ترى لو ان القضية جاءت عكساً للواقع وكان القتل من ابني لأبن جاري ؟ فماذا يكون موقفي ؟ وماذا يقول الناس ؟.. فهل يصدقون ان القضية جـاءت خطأ ؟.. أم يقولون ان ابني تعمد هذا الخطأ ليأخذ الثأر لأخيه ؟..

قال الرجل هذه الكلمات ثم ختم حديثه بعبارات تشير الى المعنى القائل :

(حنانيك ، بعض الشر أهون من بعض)..

أي كأنه يؤكد بأن مصيبته بقتل ابن جاره لابنيه الاول والثـاني الذي هو عزاؤه الوحيد في حياته أهون من ان يكون القتل من ابنـه لابن جاره ، ثم بعد ذلك أمر جماعة من ذويه ان يواروا جثمان ابنه كما أمر من يسعى بايقاظ ابن جاره القاتل وان يبعده في مكان ناء تقديراً منه بأن والده اذا أفاق من اغمائـه قد يفتك بابنه كما تولى هو بنفسه ايقاظ الاب وقد جاء تقديره بشأن عزم الاب على قتل ابنه طبقاً للأمر ، الذي كان يتوقعه ، ذلك انه ما ان استيقظ من غيبوبتـه حتى راح يهذو كالمجنون يسأل عن ابنه المشؤوم الذي سوّد وجهه بأعماله التي وان كانت خطأ ولكنها لا تطاق ، وقد ظل في بيت مجيره الذي راح يهدؤه ولم يتركه حتى اخذ منه عهداً بأن لا يمس ابنه بسوء ، وقبل ان يخرج من بيت مجيره كان قـد اتخذ قراره النهائي القاضي بذهابه لقبيلته ليلقي نفسه بينهم غير مبال بما يترتب عليه من سوء العقاب الذي هرب من اهله خوفاً من الانتقام الذي سيناله ممن كان في ذمته له ثأر .. ولذلك ودع مجيره في الحين الذي خرج من بيته وداع المسافر الذي لن يعود .. وكم حاول مجيره ان يعوقه عن همته ولكنه أصر على مضيه في عزيمتـه ،

فاستدنى الرجل رواحله وشخص نحو قبيلته وما ان وصل هنـاك حتى طرح نفسه بين يدي القوم الذين يطالبونه بأخذ الثأر ، قائلا لهم :

– أريحوني من هذه الحياة التي هربت منكم خوفاً عليها ، وهـا هي الآن اصبحت عبئاً علي" ..

ولكن طلبة الثـأر الذين كانوا يتربصون به الدوائر عندما علموا بما حـل به من المصائب تركوه وشأنه ، بل اعلنوا عفوهم عنه وتنـالهم عن مطالبتهم بالثأر نهائياً .

استهتار بغير قصد

ظل الرجل بين قومه مـدة وهو بسدرة من أثر الصدمة التي سببها له ابنـه المنحوس وكان كلما نظر الى ابنه عادت الى ذاكرته تلك الذكرى المؤلمة فأصبـح ينظر الى ابنه كأنه شيطان وبعدما مضى على رحيله عن مجيره مدة تقـارب السنة عندئذ صاحت به زوجته قائلة :

– ها فلاناً أنسيت ما في ذمتك للرجال ؟..

– ماذا تقصدين ؟..

– ألا تعلم اننا منذ ان تركنا مجيرنا الحربي حتى الان اصبح لنا من المدة مـا يقرب من السنة الكاملة ؟..

– بلى أعلم ذلك ..

– إذن لماذا لا تختار نخبة من خيرة رجال القبيلة وتذهب لزيارته ..

– الحق كله بجانبك ولم تقولي إلا العدل والصواب .. ولكن اذا لم أزره ماذا يعمل ؟ اكثر من ان يأتي ويقتل ابننا الشقي وجـه الشؤم وأحب الي ان يقتله ويريحني من رؤيته ، لأنني كلما انظر اليه أتذكر ما قام به من الاعمال التي جعلت الدنيا تسود بوجهي ..

– عندما يأتي مجيرنا سوف لا يكون الدافع لمجيئه أخذ الثأر من ابنك .. فتلك

قضية تجاوز عنها الرجل بكل كرم وسماحة نفس وانما بأني لكونك قضيت سنة كاملة بدون ان تزوره وتعلن له تقديرك له وترفــع له الراية البيضاء على مواقفه المشرفة ..

ـ لا تؤاخذيني يا ابنة فلان لقد كنت في غيبوبة وسدرة عن ملاحظة هـذه الناحية بالذات .. لقد كان تفكيري محصوراً على ان مجيري سوف يأتي ويقتل ابني عندما تمضي مدة السنة الكاملة .. ولذلك لست مفكراً بزيارته أمـا بعد ان لفت نظري الى الناحية الهامة وهي مـا يعتقده مجيري بأنني مستهتر به ، وغير معترف بجميله ، عندئذ فلا يسعني الا ان اذهب من الآن وصاعداً لأطلب من اعيان قبيلتي جميعهم بأن يذهبوا معي الى مجيري ونرفع له كل مـــا نستطيع رفعه من تقدير واجلال وراية بيضاء نضعها فوق رؤوسنا ..

ـ هذا هو أقل ما ينبغي ان تقوم به مع ذلك الرجل الذي اكرم مثوانا طول المدة التي نحن بجواره هو وأهله كما انه تحمل منا بعملية ابننا ما هو فوق طاقـــة الانسان . ولكن الذي انصحك به ان تبادر من الآن لان السنة أوشكت ان تنتهي ..

ـ حسناً سوف أباشر بسعيي في الموضوع غداً ..

ـ لا تؤخر عمل اليوم للغد .. بل من الآن اذهب الى أعيان قبيلتك واحـداً واحداً وكلهم قد فهموا القضية ولا أظن احداً منهم يتأخر عن السفر لزيارة ذلك الرجل الكريم واياك ان تتأخر لحظة واحدة لأن التأخر له آفات وآفات..

ـ ها أنا ذاهب الآن وأرجو من الله التوفيق ..

ذهب الرجل من فوره الى رجال قبيلته الاعيان ، فوجـد كل من طلب منه الذهاب الى مهمته موافقاً بدون تردد ولكنهم كانوا متفرقين فشد راحلتـه يتبـع منازلهم فأخذ مدة أطول مما ينبغي ولم يعد الا وقد مضى على السنة شهران، ولكنه استطاع ان يشكل مجموعة لا بأس بها من مشاهير رجال قبيلة مطير البارزين الذين عينوا الزمان والمكان الذي يتجمعون فيه فعاد الى زوجه يخبرها بنجاح مهمته ..

ولكنه وجدها متشائمة على فوات الوقت الذي مضى منه شهران وسيمضي منه شهر آخر لبينما يتجمع القوم في الزمان المعين . كل هذا التأخير لا يوحي بالخير بالنسبة لتقدير الزوجة ، اما بعلها فلم يكن متشائما بالقدر الذي تحمله زوجته وهي منذ أول يوم انقضت فيه السنة في هم طويل وقلق مستمر لا يهدأ لها بال ولا يطيب لها نوم ، خائفة من ان يأتي مجيرهم بعد مضي المدة المحدودة .

ألفة الكلب ويقظة الزوجة انقذتا الموقف

كان الثلثان الأولان من الليل قد انصرما ، وبدأ اول الثلث الاخير منه ، وكان الظرف شتاء ، والنجوم حجبتها السحب المتراكمة ، والليل حالك السواد عندما بدأ الكلب يهر بقوة وعنف ، يطارد الرجال الذين جاءوا خلسة ليهجموا على اهله ، وفجأة سكت الكلب عن نباحه ، لماذا يا ترى سكت هذا الحيوان ؟.. بعد ما كان مستعداً أن يمزق اشلاء المعتدين ،اجل سكت بعدما عرف علي الجبرى مجير سيده السنين الطويلة .. فالكلب يفهم ان علياً كالأخ لسيده ومن المستحيل ان ينقلب الأخ عدواً ليهاجم أخاه .. ولذلك لم يسع الكلب الا أن ترك حماسته وعكف ذنبه وراح يتمسح بعلي ويقفز من أمامه وينط من خلفه فأصبح حارسا إياه بعد ما كان مهاجما له ، كان هذا الانقلاب في سلوك الكلب من مهاجم عنيف الى حارس أمين ، من اشد العوامل التي خلقت في نفسية علي وافكاره انقلابا مماثلا لموقف الحيوان .

فوقف مبهوتا لا يستطيع ان يسير الى الامام خطوة واحدة ، وبطبيعة الحال وقف رفاقه المهاجمين خلفه ينتظرون أوامره ..

ويقول راوي الحادثة الذي كان شاهد عيان ، وفي الوقت ذاته شقيق علي الاصغر وهو عليان الجبرى المتوفي عام ١٣٦٤ والذي اجتمعت به بمدينة الرياض يقول : حينما بدل الكلب هجومه العنيف باستسلام وحراسة ، عند ذلك اصابنا جميعا انفعالات نفسية خلقت فينا رد فعل ، ويزيد الراوي تأكيداً بأن الذي تأثر

اكثر هو اخوه علي الذي وقف منفعلا وقال لرفاقه :
– ان هذا الكلب ترك مقاومته لنا بعد ما عرفنا بحكم الألفـة السابقة فكيف لا نترك أهله ونعفو ونتسامح عن ابن جارنا مهما كان ابوه مستهترا بحقنا .
سبق ان قلت ان الزوجة يقظة لا تنام لها عين منذ أن انقضت المدة ، ولذلك انهى اليّ الراوي بأن المرأة كانت يقظة عندما بدأ الكلب نباحه الأول الشديد ثم سكت بصورة ليست طبيعية بدليل انها صرخت بصوت فاجع قائلة :

– يا فلان – تقصد بعلها لقد الححت عليك بشدة منذ ان اوشكت المدة ان تنتهي بأن تذهب وتزور مجيرك عليا انت ونخبة من اعيـان القبيلة –. ولكنك لم تعبأ بالأمر ولم تعره كثيرا من اهتمامك حتى فات الاوان وجعلت للرجال حجة عليك .. وهاهم وصلوك ، والدليل على ذلك سكوت الكلب عن نباحه الشديـد الذي كان يبدو منه في اول الامر ، ولئن دل سكوته على شيء فانما يدل على انه عرف علياً وترك سبيله ..
وعندما انتهت المرأة من حديثها هذا اجابها الزوج قائلًا :
– الا تعلمين بأني منذ شهرين وانا ابذل جل جهدي ساعيا هنا وهناك من أجل ان اجمع عدداً كثيراً من اعيان القبيلة لكي نذهب الى مجيرنا علي .. ونرفع له الراية البيضاء ، اولاً تعلمين بأن الوعد الذي سوف نسافر فيه الى مجيرنا لهذا الغرض اقصى حد له بعد الغد ؟.

كان علي ورفاقه يسمعون الحوار الذي دار بين الزوجين ، ولذلك تولى الاجابة علي قائلًا :

– لقد قتل ابنك ابنيّ واحداً بعد واحد ، وتقبلت ذلك بكل ما يفرضه علي الواجب من مجير الى مستجيره ، وكان عليك ان تقوم انت بواجبك وان لا تصبر حتى يمضي شهران على المدة المحددة ، بل كان عليك ان تأتي إلي حالمـا وصلت الى أهلك كدليل منك على رضاك عني وكشاهد أمام الناس انك لم تر مني ولا من أي واحد من رجال قبيلتنا أدنى اهانة لك ولكنك لم تفعل واجبك ومـع ذلك فإنني

قد تجاوزت عن استهتارك هذا بحقي سواء عن قصد أو عن غير قصد ..

بعد هذا خرج المطيري من بيته وراح يقبل بجيره ولم يتركه يذهب حتى أقام له ضيافة كبيرة دعى جميع اعيان قبيلته على شرف الضيف كما انه عندما ذهب علي الى اهله قام المطيري بواجبه الشكلي فذهب هو وأعيان قبيلتة الى زيارة بجيره علياً ورفع له الراية البيضاء كدليل على اعترافه بجميل بجيره خـــلال المدة التي قضاها بجواره .

اسراف في التضحية

- ٦ -

ولئن كانت هذه الحادثة ليست بدعاً من نوعها ، فإنها أخذت الصدارة من حيث شهرتها وذيوع صيتها خاصة عند عرب شمال الجزيرة ، بصورة يكاد ان يقال عنها انها طغت على الكثير من الأحداث التي لها علاقة فيما بين الجار والمستجير ، واعتقد ان السر في شيوعها يعود الى العوامل التالية :

وهي ان الأسرة التي روي عنها القيام بهذه العملية التي تفوق احتمال العاطفة الأبوية ، هي أسرة آل صويط ، وهذه الأسرة سبق ان اكتسب رجالها شهرة في حماية الجار والمستجير بصورة قل ان يضارعهم فيها أحد[1] من رجال العرب. وجاءت عمليتهم الآتي ذكرها امتداداً للأولى ومكملة لها، فما كاد العرب يرددون في انديتهم ذكر تلك الحادثة وانشودتها وقصة بطلها الطويلة ، ثم يقفون عند آخرها على اطراء واحترام ابن صويط، حتى جاءت هذه الحادثة من المصدر نفسه فكان لفاعليها الشهرة كما أسلفنا آنفاً توشك ان تطغى على شهرة أية حادثة لها علاقة مباشرة في حماية المستجير ، الامر الذي جعل آل صويط يضرب بحمايتهم لمستجيرهم المثل عند عرب الجزيرة.. وكما ان عنترة اصبح مثلاً في الشجاعة وحاتماً في الكرم والسموأل في الوفاء عند جميع ناطقي الضاد، كذلك اصبح آل صويط مضرباً للمثل عند عرب شمال شبه الجزيرة ، وبالأخص بعد حدوث القصة الآتية :

---

١ - انظر الجزء الاول من شيم العرب - الطبعة الثانية للمؤلف ص ٩٠ .

كان عبدالله بن منديل[1] في جوار صنيتان ابن صويط رئيس قبيلة الظفير، ومن المسلم به أن ابن منديل سوف يتمتع بالحصانة الكاملة التي يتمتع بها الجار العربي عند أي عربي آخر، وفي أحد الايام أعد ابن منديل العدة ليقوم بغزوة الى احدى القبائل المعادية لقبيلة ابن صويط، وبالنظر لما له من ماض وتجربة رابحة في هذا الميدان، فقد كان الامر طبيعياً ان يتبعه بغزوته هذه كثير من فرسان قبيلة الظفير، وكان من بين الذين التفوا حوله أحد ابناء رئيس القبيلة المدعو (ضاري) وكانت الاصول المرعية في حالة كهذه تقضي بأحد أمرين وهما :

اما ان يتنازل احدهما عن الرئاسة للآخر، أو ان يترك الامر للغزاة لينتخبوا من يختارونه لهم رئيساً من الاثنين ..

وكان ابن منديل يرى انه الرئيس لهؤلاء الغزاة وان ابن صويط ليس الا تابعاً له، لا بحكم انه رجل مجرب وعركه الدهر فحسب، بل لأنه صاحب الفكرة الاساسية لهذه الغزوة .. وكان الشاب ابن الامير يرى ان ابن منديل جار عند أبيه له حرمة الجوار، ولكن ليس له الحق في ان ينافسه في رئاسة الغزوة . أحالوا القضية الى انتخاب الغزاة، وكيفية الانتخاب بسيطة للغاية، وهي ان يذهب أحد المتنافسين شرقاً راكباً ذلوله كما يذهب الآخر غرباً، ومن ثم يكون للغزاة الحرية باتباع من يختارونه .. وهكذا نفذت العمليه، فكانت النتيجة ان اتبع الغازون ابن منديل الرجل المجرب، واعرضوا عن ابن رئيسهم ..

ولم يكن لدى ابن صويط بد من التماس أحد الأمرين، أما ان يعود الى أهله أو ان يذعن لرئاسة ابن منديل ويتبعه وهو مرغم، وما كان من أمره الا ان اتخذ لنفسه السبيل الاخير .. ولكنه حقد على ابن منديل واضمر له سوءاً الا انه لم يكن ذلك الفتى المقدام الذي اذا اخذته الغيرة لم يمنعه من نتائج عمله ..

---

١ – ابن منديل من رؤساء قبيلة بني خالد .

كان ابن منديل موفقا بغزوته هذه حيث صب غارته على اعدائه واغتنم ابلا كثيرة بدون ان يواجه مقاومة يخسر بها فردا واحداً من قومه ، مما جعل اسهمه ترتفع أكثر عند الذين انتخبوه ، لان البدو لا يكفيهم ان يكون قائد غزاتهم فارساً فقط ، وانما يهمهم ان لا يكون قائدهم مشؤوما لا يحالفه النصر ، فاذا كان من هذا النمط ورأوا من اثر قيادته افلاسا من الغنيمة او قتلا لرجالهم فانهم يعرضون عنه ويتبعون القائد الذي يحالفه التوفيق ..وكانت غزوة ابن منديل هذه من اوضح الأدلة على ان الرجل موفق او كما قالوا بالمثل الدارج : (فلان اذا ضربها عوجاء جاءته عدله) أي انه اين ما يتجه يكون الحظ والتوفيق أمامه ، ولكن هذا التوفيق الذي ناله ابن منديل يراه ابن صويطانه على حساب زعامته هو وأسرته ، وقد ادرك ابن منديل ما في نفس الشاب من ضغينه فحاول ان يرضيه ما أمكنه الأمر ، وذلك انه عندما فرق الغنيمة على الغزاة ، قدم له من الغنيمة نصيب القائد قاصداً ان يذهب ما في نفسه ، ولكن الشاب ظل حاقدا على ابن منديل ، ولم ير الشيء الذي قدمه له من الغنيمة الا انه حق من حقوقه ، لا فضل لابن منديل فيه ..

وبعد ان عاد الغزاة الى أهلهم ذهب ابن منديل الى زيارة رئيس القبيلة والد الشاب ليسلم عليه بعد عودته من غزوته ، فقابله الرئيس بالحفاوة وعندما كان ابن منديل بجانب رئيس القبيلة يحتسي فنجاناً من القهوة آمنا غير خائف : وواثقا بأنه بحصانة منيعة لا يمكن ان يناله احد بسوء في تلك اللحظة جاء الشاب ضارى واطلق رصاصة خرقت صدر جاره ابن منديل ففارق الضحية الحياة فورا ..

اما الغادر فأنه فرّ وذهب الى أحد بيرت رجال القبيلة كمستجير به .

ومن سياق الحادثة يبدو ان الشاب حديث سن ويجهل العلم في معرفة حرمة الجار ، كما يجهل ايضاً الحدود التي يقبل بها المستجير عند العرب ، والدليل على ذلك أنه راح يستجير بأحد رجال القبيلة ، ولو كان يفهم التقاليد لكان بامكانه ان يعرف بأن الاستجارة لها حدود عند العرب ، فالذي يرتكب جرما شنيعا كجرمه هذا لا يمكن ان يجد من يجيره ، بل حتى أهله سوف يضطرون للابتعاد عنه لئلا يشملهم عاره .

كانت المصيبة الكبرى على والد الشاب اكبر منها على آل منديل ، والقضية بحكم التقاليد العربية لا تقبل التأجيل لحظة واحدة ، ولا مجال للتسويف وليس لها أي حل وسط ، والحكم الفاصل فيها هو قتل القاتل ، وليس هناك من يستطيع ان يقتله الا والده بيده ، او عمه المدعو حمود بن صويط .

فكر الأب في الامر فوجد ابنه الصق بشرفه وصمة عار لا يمكن ان تمحى بسهولة ، ولا يتم غسلها الا بقطعة من قلبه وبجزء من نفسه ، وبقبضة من روحه ، وما عليه الا ان يسيطر على عواطفه الابوية بكل ما لديه من القدرة ، وذلك عندما أمر أخاه حموداً بأن يأتي بأبنه ويطلق عليه الرصاصة في المكان الذي اطلق الابن رصاصته على جاره ابن منديل ، على ان يكون موضع السهم في صدر الشاب في الموضع نفسه الذي اصاب به ابن منديل .

وفي الوقت الذي كان يحفر فيه قبر ابن منديل ليواري جثمانه ، كان الشاب يحفر قبره قبل ان ينفذ فيه القتل ، فكانت النتيجة ان ابن منديل سبق قاتله في خروج روحه ولكن قاتله سبقه الى القبر .

انتفاضة عربية معاصرة من اجل المستجير

- ٧ -

كثيرون من يعرفون ثورة جبل العرب أي الدروز الكائنة في عام ١٣٤٤هـ — بقيادة البطل الشجاع سلطان الاطرش .. ولكن الذين يعرفون أسبابها ومسبباتها قليلون جداً ..

فتلك الانتفاضة العربية سنة ١٩٢٢ التي كانت من مقدمات الثورة السورية الكبرى سنة ١٩٢٥ التي كلفت فرنسا الآف القتلى ، كان سببها شاب مجاهد يدعى (ادهم خنجر) من أسرة تسمى الاسعد من جبل عامل بقرية قريبة من مدينة صيدا اللبنانية ، وكان هذا الشاب كما وصفه الاستاذ ادهم الجندي بكتابه (تاريخ الثورة السورية في ص ١٨٦) يحمل فكرة عربية اسلامية صادقة .. وكان في طليعة المجاهدين من رجال جبل عامل الذين ثاروا بوجه الطغيان الفرنسي .. وقد تولى بنفسه احراق طائرة فرنسية كانت رابضة في المطار الفرنسي بقرب مدينة صيدا .. وبعدما أبلى الفتى بالجهاد بلاء حسناً قرر أن يذهب الى بلدة سلطان الاطرش في جبل الدروز عرين الاسود في سورية وتسمى (القرّية).

فذهب هو والسيد شكيب وهاب المجاهد العربي المعروف .. وفي اثناء الطريق

اختلف الاثنان ، فوصل شكيب وهـــاب الى أسلطان الاطرش ، بينما اعتقل أدهم خنجر وسيق مكبلا بالحديـد من قبل ادارة شرطـــة أمن الاستعمار الفرنسي ..

وعندما بلغ الخبر الزعيم سلطان الاطرش أن الرجل الذي قصد بيته ليستجير به اعتقله الفرنسيون ، عند ذلك صعق سلطان لهذا النبأ واشتد غضبه وثارت ثائرته فبعث رسولاً الى المسؤولين الفرنسيين يطلب منهم أن يخلوا سبيــل الفتى مؤكداً لهم انه سوف يدفع ما يطلبونه من المـال كفدية لمستجيره ، وبالطبـع لم يعرف الفرنسيون هذا المنطق ، ولا يفهمون شيئاً من التقاليد العربية، كما انهم لم يقدروا ما يترتب على ذلك من المشا كل التي كلفتهم خسائر فادحة ..

ولم يخطر لهم ببال أن اعتقالهم لهذا الفتى سيحدث انتفاضة عربية،كان من شأنها أن اصبحت أول مسمار في نعش دولتهم الاستعمارية التي طردت من جميـع البلاد العربية التي استعمرتها ، لا لم يتوقعوا ذلك حتى فات الاوان .. ورأوا ما منيت به عساكرهم من تقتيل وما حدث من انتفاضة جبل العرب بكامله بعد ذلك ..

فكان من نتيجة غطرستهم أن أصروا على عدم الافراج عن ذلك الفتى فأرسلوا السجين الى دمشق في مصفحة .. وعندما بلغ سلطان ما دبره المستعمرون بمستجيره ذهب ونخبة من شجعان قومه الى الطريق الذي تمر به دبابات العدو التي تقل الفتى وكانت الاعمال التي اتخذها سلطان الاطرش قـد وصلت للمستعمرين ، فلم يسعهم إلا ان بدلوا اتجاههم من حمل الفتى براً بالمصفحات الى حمله جواً بالطائرة الى دمشق .. ولما لم يطمئنوا الى بقائه في سجن دمشق بعثوه بالطائرة أيضاً الى لبنان حيث اعدم رحمه الله وقدس أثره ..

أما البطل سلطان الاطرش فقد أشعـل الثورة على الفرنسيين وكبدهم خسائر فادحة كما أن الفرنسيين دمروا بطائراتهم قرية الزعيم سلطان .. ولئن أزعـــج

الاطرش الفرنسيين بثورته عليهم وأقلق راحتهم فإنه لا يستطيع أن يقف بوجه دولة من أعتى دول الاستعمار ، ولذلك جلا البطل الى شرق الاردن مدة من الوقت..وكم حاول الفرنسيون من سلطات الاردن البريطانية أن يسلموه لهم ولكن محاولتهم باءت بالفشل ..

وبعدما يئس المستعمرون من القبض عليه ، ذهبوا يخطبون وده معلنين تنازلهم عن حكم الاعدام الذي أصدروه بحقه كما وعدوه بأن يدفعوا له جميع ما لحق به من خسائر ..

وبعدما تعهد له المستعمرون بذلك عاد البطل الى وطنه مرفوع الرأس موفور الكرامة وهو يعتقد بان المرء لا يستطيع أن يقوم بواجبه كمجاهد ما لم يكن في وسط بلاده ، وايماناً منه بهذا المبدأ عاد الى بلاده لا ليخلد الى الراحة ولكن ليتحين الفرص بالعدو الغاصب ، وكان له ما تمناه ، إذ شاهد خروج المستعمرين من وطنه بحياته قبل مماته ..

وساهم بطردهم مساهمة فعالة ، والجدير بالذكر أن بطل قصتنا لا زال على قيد الحياة ..[1]

« واني اتماماً للقصة التي رواها الاستاذ الجندي أورد الخلاصة التالية عن سلطان : وهي انه بعد هذا الحادث بثلاث سنوات ، أي في سنة ١٩٢٥ تطاول المندوب السامي الافرنسي الجنرال ساراي على زعماء جبل الدروز فأهانهم وحبسهم، فثار

---

١ - نقلت هذه القصة بمعناها لا بلفظها من كتاب الاستاذ ادهم الجندي وربما كانت هذه القصة الوحيدة التي نقلتها من الكتب اما البقية فانما كانت من أفواه الرواة كما اشرت الى ذلك بمقدمة الجزء الاول في الطبعة الاولى .

سلطان باشا الاطرش على فرنسا وناوشها الحرب ، فإذا بسورية كلهـا تثور بسبب الظلم الفرنسي الذي أوغر صدور السوريين لعدوان فرنسا على استقلالهم،وقد أبلى سلطان الاطرش في تلك الثورة العظيمة بلاءً حسناً مشكوراً، وكانت هذه الثورة الكبرى سبب اخراج فرنسا من سورية ، وشهد الاطرش باشا في حياته خروجها من وطنه.»

اما هذا الاستدراك الاخير عن سلطان باشا فقد سمعته من الاستاذ المجاهد محمدعلي الطاهر .

اجاره ولو أمر بقتله لقتله

-٨-

اشتد الخلاف بين الامام عبد الله الفيصل آل سعود من جهـة وبين أخيه سعود ابن فيصل من جهة اخرى على زعامة البلاد ، ولعبت الاحقاد بين الجانبين دورهـا الخطير ، وتفاقم الأمر الى أبعد الحدود حتى وصل الى درجة تجاوزت حد الخلاف السلبي الى الشقاق والفتنة الايجابية ، كما ان الخصومة تجاوزت حدود الحاكم واخيه المنافس له الى ان مرت بين الحاشية من كلا الجانبين، فالأخ الذي من حاشية الامام عبد الله مثلًا يفرض عليه واجب التقاليد والعادات أن يعادي أخاه الذي من حاشية أبناء أخي الحاكم بل ويقاتله اذا استدعي الأمر كما حدث ذلك فعلًا ، والذي من حاشية الجانب الثاني يفرض عليه واجب العادات والعرف السائد آنذاك ان يقوم بعمل مماثل أيضاً ..

ومن هنا يعرف ما وصل اليه الأمر من الخطورة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يعرف مقدار تأثير شيم العرب العريقة الموروثة على العادات المحلية الطارئة، فمثلًا عندما يقاتل حسن [1] بن غشيان بجانب عبدالله الفيصل اخاه فهد بن غشيان

---

١ - فهد وحسن شقيقان ، واحد من حاشية الامام عبدالله الفيصل والثاني من حاشية خصومه وعندمـــا بلغ الامر من العداوة حداً عنيفـــاً تقاتل الاخوان .. ولكي لا يلتبس الامر على القارىء بين فهد بن غشيان الذي لا زال من حاشية الملك فيصل ولي العهد وبين حسن شقيقه فهذان من سلالة سالفي الذكر ومسميان عليها .. وكلهم من اهل الرياض .

الذي بجانب سعود بن فيصل فهذا العمل يعتبر من العـــادات المحلية الطارئة التي فرضتها سياسة الحكام في ذلك الزمان وفي كل زمان ومكان فيها اذا جاءت ظروف مماثلة لتلك الظروف .. ولكن عندما يأتي عبـد الرحمن بن خضر الذي يعتبر من أقرب المقربين للامام عبدالله الفيصل ويجير سعود بن فيصل ويخبئه عن الامـــام ويسهل له طريق الهرب فيما بعد وذلك عندما لاذ سعود بجماه - علماً بأنه لو ظفر به بدون أن يأتي الى منزله مستجيراً به لقتله عبدالرحمن وفـاء للامام الذي هو من حاشيته أو وفاء وجرياً على التقاليد المحلية المكتسبة ولكن عندمـــا جاءه سعود مستجيراً بـــه طغت الشيم العربية الاصيلة التي ورثها الاحفاد عن الاجداد على العادات المحلية الزمانية ، ولم يقف الأمر بابن خضر الى أن أجار سعوداً بصورة سرية فحسب بل ذهب وأعد له ولحراسه مال نجيبة وزوده بالغذاء والماء ولم يتركه حتى ضمن له النجاة والسلامة مما يخشاه .

وموضوع الغرابة في ذلك هو أن سعوداً يعلم أن ابن خضر موضع ثقـة عند الامام عبد الله الفيصل ، وانه لو أمره الأمام بقتله وتمكن منـه ، فانه لن يتأخر لحظة عن قتله .

وللمرحوم عبد الرحمن بن خضر ابن يدعى سليمان لا زال على قيد الحياة يناهز الثمانين من عمره ، وقد روى لي شخص أثق بصدق روايته بأن سليمان قـام بعمل نحوه وان كان أقل مغامرة من مغامرة والده بحمايته لمستجيره الذي تحدى بـــه السلطة ولكنه عمل يستحق أن يقدر فاعله كل التقدير ، وبالرغم من أن ذلك العمل الذي قام به الابن ربما مضى عليه اكثر من ثلاثين عامـاً ، الا أن الراوي الذي لا يزال على قيد الحياة لم يسمح لي بنشر القضية بل ولم يأذن لي حتى بالحديث عنها لأمر قد يخفى عليّ ما يستهدفه الراوي من كتمان الفضيلة التي اسداها له سليمان هذا. وبما ان الراوي قد أئتمنني كتمان مـا رواه لي فانني سوف لا أبوح بسر ائتمنت عليه وان كان مذهبي الذي أؤمن به هو نشر واعلان كل مـا يمت الى فعل الجميل والفضيلة بأدنى صلة لا ايماناً مني بتقدير الفضيلة أنى كان مصدرهـا فحسب ، بل

ولكي يكون ثمة تنافس على الخلق الكريم وعلى المروءة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، لأن المثل العليا ليست سهلة المنال ولا هي هينة المقود ، ولو كان الأمر كذلك لأصبح كل انسان بامكانه ان يبلغ قمة الشيم العربية بدون ان يبدي أدنى كلفة ، ولكن الأمر يعود الى ما نوه عنه أبو الطيب المتنبي بقوله :

لولا المشقة ساد الناس كلهم
الجود يفقر والاقدام قتال

وأعجب ما في الأمر هو انه في هذه السنين الاخيرة وفي خضم الاحداث التي وقعت في سورية من انقلابات أخيرة حدث حادث مشابه لقصة عبدالرحمن بن خضر مشابهة تكاد أن تكون طبق ما أوردناه ..

لقد روى لي الشخص الذي وقعت عليه الحادثة والذي لا يسعني ذكر أسمه في الوقت الحاضر لأكثر من سبب أكد الراوي بأنه عندما وقع أحد الانقلابات في دمشق كان على يقين من العلم بأن قادة الانقلاب الجديد سوف لا يدخرون وسعاً لعقابه شر عقاب متى ظفروا به فلم يسعه إلا ان يتوارى عن الأنظار الى ان تتاح له الفرصة التي يهرب بها عن البلاد لينجو بنفسه فذهب الى أحد معارفه من ضباط الجيش السوري فطرق بابه ودخل بدون ان يعلم ان هذا الضابط من الموالين لعهد الانقلاب الجديد ، بل وبدون أن يدري أن هذا الضابط بالذات هو الموكل باعتقاله فكانت مفاجأة للهارب عندما صارحه في الحقيقة باللغة العسكرية الصارمة بأن الأوامر العسكرية الصادرة اليه من قادة الانقلاب الذي هو واحد منهم تقضي باعتقاله ضمن آخرين وضعوا في القائمة السوداء ممن يعتبرهم الانقلابيون مجرمين بحق الوطن على حد قولهم ويستحقون العقاب الشديد ، فأجابه هذا قائلًا : ولكنني الآن في منزلك ومستجير بك وبخلقك العربي من نفوذك العسكري . فقال له صاحب الدار :

ـ وهل تظن انني أسلمك لولاة الأمر بعدما دخلت منزلي ؟..

ـ اذن كيف السبيل الى سلامتي .

ـ اذهب الى حيث تريد وأنصحك أن تغادر البلاد في هذه الظروف .

وقد ذهب الرجل الى احدى البلاد المتاخمة للحدود السورية وربما لا يزال حتى الآن يعيش لاجئاً سياسياً في تلك البلاد ..

وهكذا كثيراً ما نرى أن التاريخ العربي يعيد نفسه في كل زمان ومكان ..

ميت يجير أحياء

- ٩ -

قلّ أن نجد شخصاً من سائر البشر أجمع منافسوه الاعداء ومؤيدوه الاصدقاء على محبته واحترامه اللهم الا الأنبياء والقديسين ، وهؤلاء من صفوة البشر وليسوا من سائره والتاريخ يحدثنا عن خامس الراشدين الخليفة عمر بن العزيز رحمــه الله ورضي عنه ، أن خصومه ومحبوه اجمعوا على محبته واحترامه ، ولم تكن تلك المحبة وذلك الاحترام من الاعداء فضلا عن الاصدقاء لعمر بن عبـد العزيز محصورة على حياته فحسب ،فقد احبه ووالاه جميـع ابناء الطوائف الذين عادوا بني أمية كالشيعة والخوارج ، كل هؤلاء بقدر ما كانوا اعداء الداء للأمويين بصورة عامة ، اصبحوا لعمر بن عبد العزيز محبين بل وموالين له حتى انه لم تقم في عهده فتن من جميـع هذه الفئات على مختلف اتجاهاتها .. لا لم يكن الحب والاحترام من أعداء عمر موقوفين على حياته فقط ،بل وحتى بعد مماته رحمه اللهفقدبقيت المحبة والحرمة له على ما كانتا عليه ، وذلك أن السفاح العباسي عندما بلغ به الحقد والتشفي من بني أمية الحـد الذي لم يقف به الى قتل الرجال من الأسرة الاموية فحسب ، بـل اسرف بحقده الاسود الى نبش قبور موتاهم جميعا ما عدا خامس الراشدين عمر بن عبـد العزيز ، فقد كانت حرمته في قلوب اعداء اهله ميتا كحرمته حياً بفضل ما أمتاز بــه من عدل وتقوى وورع وأنصاف في عهد خلافته التي اشبه ما تكون بخلافـة عمر بن الخطاب جده لامه رضي الله عنهما .

وهكذا نجد اعرابياً كان له من الحرمة والوقار عند عشيرته وخصومه على حد سواء ، ولم تكن هذه الحرمة وذلك الوقار محصورين على حياته ، بـل وحتى بعد مماته ، الا وهو فهد الصيفي من قبيلة سبيـع بادية مدينة الرياض ، فهذا الرجل كان له من الهيبة والوقار ما مكنه أن يجير ويحمي قوماً كثيري العدد وهو في قـبره بالية عظامه .

أما كيف اجارهم ولأي سبب لاذ المستجيرون بقبره ، وما هو السر الـــذي جعل الغزاة الغالبين يتركون المغلوبين عندما لا ذوا بقبر الصيفي وهم يعلمون أنـه ميت لا يملك من امره ضرا ولا نفعا ، فالجواب على ذلك كما يلي :

أما الأجابه على كيفية اجارة هذا الميت لمن استجار به ، فالقضية هي معنوية أكثر منها مادية إذ أن الصيفي كما ذكرنا رجـــل ميت .. وهو من حيث القوة المادية اعجز من أن يحمي جسده من حشرات الأرض ، فضـــلا عن أن يحمي غزاة بجيوشهم ورجالهم .. إذن فالحماية هنا واضحة بأنها ترمز الى أمر معنوي كامن في تاريخ حياة صاحب القبر .، أمر فيه من الاحترام والوقـــار للميت في نفسية المستجيرين والمجيرين من الهيبة المعترف بها بحياته ما ظل باقياً معترف به بعد مماته.. أما السبب الذي دفع المستجيرين لأن يستجيروا بقبره ويلوذوا بجاهه فهوا انهم عندما كانوا غزاة اصطدموا بغزاة آخرين أكثر منهم عدداً وعدة وحينما وجد الاولون أنهم مغلوبون فكروا في سبيل النجاة فوجدوا كل باب من أبواب السلامة والنجاة موصدا أمامهم ، وفجأة لاح لهم على بعد قبر فهد الصيفي الذي اشتهر في حياتـــه بصفة كريمة قل أن اشتهر بها أحد من فرسان العرب ، فهرعوا إليـه هاربين من خيل الاعداء الذين راحوا يطاردونهم ولم يفلتوا منهم حتى اناخوا رواحلهم عنـد قبر الصيفي بصورة احاطوا بالقبر من جميـع الجوانب معلنين استجارتهم بـه ، فلم يسع العدو الا أن قفل راجعاً بدون انـ ينال المستجيرين بأي اذى

ولنعد الى معرفة السر الذي جعل الغزاة المطرودين يستجيرون بقبره وجعـل الطاردين يعتبرون هذه الاستجارة سارية المفعول ، فكأنهم استجاروا بأقوى قوة وأمنعها لا بقبر بالية عظام صاحبه ..

السر في ذلك هو أن صاحب القبر كان شجاعاً مغواراً وفي الوقت ذاته كان شهماً لا يستعمل شجاعته إلا عند الضرورة التي لا مناص له من استعمالها ، فشجاعته لا تبرز إلا على أعدائه الأقوياء الأشداء الذين يعتدون عليه فتكون شجاعته بهذه الحالة كدفاع عن النفس ليس إلا .. وحتى هؤلاء الأعداء فإنه لا يحاربهم إلا عسكرياً .. اما اقتصادياً فإنه يرى نفسه أكبر وأجل من أن يحاربهم في رزقهم الذي يقوم بأودهم أو في مائهم الذي ينقذون به اطفالهم ونسائهم . فمثلاً إذا وجد رجالاً من أعدائه يحملون ماء فوق أبلهم ليذهبوا بها الى أهلهم الذين يقطنون أرض (مندى) أي أرضاً فيها وفرة الكلأ وليس فيها ماء ، والموقع الذي مثل هذا لا يسكنه البدو إلا في أيام الربيع أو الخريف .. ففهد الصيفي لا يمس هؤلاء (الرواوي) أي حملة الماء بأدنى أذى .. كما انه لا يمس المكتالين بسوء أي الذين يأتون لأهلهم بالغذاء كالقمح والتمر من المدن بحكم ان الصحراء لا يوجد فيها شيء من ذلك، فهذا الرجل الشهم إذا وقعت بين يديه قافلة يحمل أهلها قوتاً لأعدائه فإنه يترك هذه القافلة وان كانت لقمة سائغة له ، ومهما كانت غنيمة ثمينة فهو يتركها بدافع انساني اعتقاداً منه ان نهبه لأبل السقاية معناه انه جنى على أطفال رضع وشيوخ مقعدين ونساء لا حول لهن ولا طول . فما ذنب هؤلاء الضعاف بحكم الضمير الانساني الذي استجاب لندائه الصيفي .. وما يقال عن حملة الماء يقال أيضاً عن المكتالين ، إلا أن الآخرين كانت عفته عنهم ادعى الى الاعجاب بشهامته لأن فيهم من الغنيمة ما يغري الصيفي بكسبه فيمول بيته عاماً أو اكثر ، ولكن الصيفي بقدر ما عفت نفسه عن مثل هذه الغنائم، بدافع من كرم النفس الانسانية وبقدر ما احترم حقوق الضعفاء البائسين وهو يملك القوة على امتلاكها ، فقد قيض الله له من يحترمه ويقدره وهو أعجز من أن يملك لنفسه حرمة ، وأضعف من أن يكون له قوة أو ناصر ..

المثل الذي عرفت جانبا منه ولم أعرف الجانب الآخر !!

- ١٠ -

هناك أبيات من الشعر الشعبي يوحي مفهومها بأن الشاعر الذي أنشدها لم تجد قريحته بها عبثا ، وانما بعد وقوع الحادثة شحذت قريحته واستمد معاني قصيدته من صميم واقعها ..

والحادثة اذا كانت قريبة العهد ، أو مشهورة عند عامة الرواة ، أو أن الشاعر الذي سجلها بانشودته من الشعراء المشهورين ، إذا توفرت هذه العناصر الثلاثة . فأنه سوف يسهل علينا معرفة اسم ابطال القصة ومعرفة الزمان والمكان اللذين وقعت فيها الحادثة .. ولكن عندما تفقد القصة احد هذه المقومات الثلاثة ، فأنه سوف يتعذر عليّ الالمـــام بمعرفة القصة من شتى نواحيها سالفة الذكر ، لانني لا أريد أن احشو هذا السفر واشغل القراء بكل ما هب ودب من القصص التي لم أكن واثقا بصحة وقوعها ، وملما بتفاصيلها بصورة جلية واضحة ..

واما الأبيات التي المحت اليها في مقدمة هذا البحث فهي التي يؤخذ من معاني بعضها بأن الشاعر أنشدها بمناسبة ذات صلة مباشرة بالشجاعة الادبيـة ، كالبيت المشهور لابن حطاب راعي الجوف القائل ،

عن لعنتك حطاب ألْعَنْ أبوكَ انـتُ

ألْعَنْ ابوكَ وخـيرة العمر فـــاني

هذا البيت فيه منتهى الجرأة الادبية فيما اذا صحت الرواية القائلةبأن صاحب هذا البيت الذي هو ابن حطاب ، عندما لعن أباه عبيد بن علي الرشيد وهو أسيرٌ بين يديه رد عليه اللعنة قائلاً ما معناه :

- بدلاً من لعنتك لأبي فانني ألعن أباك .. ثم أكد ذلك في عجز البيت قائلاً: ولماذا اجبن عن لعنتي لأبيك خوفاً من الموت ما دام ان الفتى مهما طال أجله نهايته الموت فالأفضل والحالة هذه أن أموت حراً أبيـاً ولو قصر أجلي ، من أن أعيش عمراً طويلاً وأنا ذليلٌ مهانٌ ، فمثال هذا البيت جدير بي أن أضع قصته في فصـل الشجاعة الأدبية ، ولكن عدم المامي بتفاصيل الحادثة جعلني أحجم عن ذلك ..

ومثاله قول محمد بن سمير :

ُقولوا لابنْ ِشعلانُ مـــاني ُمخاشيـه
أنا النرنوح اللي بعينـــه يذُوبِ

عذروبنـــا بس الجوق ماندانيه
نقب َقبّـــةْ َرضّةِ من شبوُبِ

وقول راكان بن حثلين :

الحسان يا ْبنِ عبيـــد يجْزى بالحسانْ
والشّـر ِتبْلى بهِ وجيـــهِ ِشريرهْ

من زَان فحْنا لهُ على الدوْم خـــلانْ
وِضرّ الى ِحرِكْ تزْاوَد َسعيرهْ

وكلا الشاعرين يشيران الى وقوع حوادث ذات أهمية ، وفي معاني ابياتها تحدٍّ سافر : فالأول يتحدى ابن شعلان رئيس قبيلة الرولة والثاني يتحدى حمود العبيد

ابن عم الامير محمد بن رشيد، ومما لا شك فيه ان لكل منهما قصة ذات مغزى.. وقــد يكون لدى بعض العلم في البواعث والأسباب التي أملت على كل منهما أن ينشد قصيدته وخاصة الاخير ، ولكن علمي لم يكن مستوفيـاً لجميع الشروط ، ولذلك أغفلتها جميعاً ..

والذي تجدر بنا الاشارة اليه الآن ليس إلا أبيات يتداولهـا الكثير من رواة الأدب الشعبي ، وتشير الى معان عميقة خاصة فيما له علاقة في حمــاية المستجير واكرامه ، ولكن رغم ذلك ما استطعت أن أجد من يفيدني عن تفاصيل المعاني التي أشار اليها الشاعران في أبياتها الآتية :

الجار بالخبرا يقلّطْ على الرّاسُ
ما دوّروا بالجار بعض الدّنافيسُ

ُهمْ بالقصيم ، وبالجنوب ابن دُوّاس
وأهل الحريق وبالشمال (السناعيس)

في هذين البيتين اطراء وثناء لأهل قرية من قرى القصيم تسمى « الخبراء » .. ويؤكد الشاعر أن من يستجير بأهل هذه القرية فان أهلهــا سوف يضعونه على رؤوسهم وانه لا يمس بسوء ما دام عندهم ..

والبيت الثاني يضيف اليهم دهام ابن دواس الحاكم لمدينة الرياض قبل عهــد آل سعود ، كما يضيف الى دهام أهل بلدة الحريق ، وبعـد ذلك يضيف عشيرة « عبدة » من قبيلة شمر ..

واذا سلمنا جدلاً بأن الشاعر لا ينشد قصيدة كهذه إلا لسبب ، فعنـد ذلك ينبغي للكاتب المدقق أن يعرف الاسباب ويعرف الاعمال بصورة مفصلة التي قام بها هؤلاء القوم لحماية وإكرام مستجيرهم ، كما يعرف الشاعر الذي أنشد القصيدة، فاذا كان هذا الشعر ينتسب الى أهل الخبراء مثلاً أو الى ابن دواس أو الى شمر أو

الى أهل الحريق ، فهذا معناه انـه رجل يفاخر بقبيلته أو أهل بلاده كما هو شأن شعراء العرب في الجاهلية ، وبعدها ، وعند ذلك يكون الاطراء بحق القوم الذين لم يكن منهم الشاعر له أهمية أكثر ولكن الذي حصل هو انني بقدر مـا سعيت لأعرف شيئـاً عما ذكرته اعلاه أو أعرف على الاقل الشاعر فانني ما استطعت ان أصل الى نتيجة .. والشاعر بلا شك له أكثر من قرنين وهــــذا هو السر في عدم عثوري على ما أريد ..

ولكن بعد هذا الشاعر المجهول يأتي عبيد العلي الرشيد وينشد قصيدته اللاميـة التي جاء منها قوله :

ألـلّيْ عَطـى حقْ الديار المزازين
وحنْـا الى عدْت فرُوعَ القبايل

وهذا عبيد يشهد أيضاً ببيته هذا بالفضل للهزازين أي أهل الحريق الذين شهد لهم الشاعر في قصيدته سالفة الذكر وحتى لو سلمنا جدلاً بأن قائل البيتين السابقين من أهل الحريق أنفسهم فإن شهادة عبيد الذي قدم أهل الحريق بثنائه على قبيلتـه يعطينا دليلًا لا يقبـل الجدل على أن هؤلاء الرجـال قاموا بعمل ذي أهمية ، وإنما المشكلة هي معرفة كنه هذا العمل ..

الرجل الذي خلّد مآثر قومه

-١١-

كم كنت أتمنى لو كان في كل قبيلة من قبائل العرب شاعراً ، عبر بوضوح عن الأعمال الحيوية المثلى التي قامت بها قبيلته كما عبر عنهـا شاعر قبيلة الدواسر المدعو (سيف العويني الولمـــان) الذي جمع مآثر قبيلته وفصلها بقصيدته التي يجدر بالقارىء العربي أن يعتبر كل معنى من المعاني التي أشار اليها الشاعر صالحاً أن يكون قصة مستقلة بحد ذاتها.

أقول : لو أن كل شاعر قبيلة من قبائل العرب قدم لنا ملحمة شعرية شعبية كما قدم لنا هذا الشاعر مآثر قبيلته لكنت أرحت نفسي من العناء الكثير الذي لاقيته في سبيل جمعي لهذه القصص من أفواه الرواة الذين كثيراً مـا كنت اذهب أنقب عنهم في أماكنهم البعيدة وأعتقد أن هذا الشعر بقدر ما أفادني من هذه الناحية أفاد أبناء قومه ، بتخليده هذه المآثر ، إذ لولا وجود هذه القصيدة لما استطعت أن أعرف شيئاً عن الشيم العربية التي قام بها « أولاد زايد [1] » علمـاً أن الشاعر توفي عام ١٣٠٠ هـ وإذا قدرنا انه نظم هذه القصيدة قبـل موته مثلاً بعشر سنوات أو

---

١ - اولاد زايد كنية يكنى بها الدواسر الذين منهم هذا الشاعر .

عشرين سنة فيكون للقصيدة على هذا الاساس قرن كامل ، يضاف الى ذلك ان الاعمال التي ينسبها الشاعر الى قبيلته لا بد انها واقعة قبل ينظم الشاعر قصيدته بمدة قد تكون بعيدة المدى ، المقصود من ذلك هو ان الأعمال التي يؤكد الشاعر بملحمته التاريخية أن قبيلته قامت بها ويسمي الرجال القائمين بها بأسمائهم فرداً فرداً، هذه الأعمال وقعت قبل مائة عام وهذا معناه أن الشيم التي قام بها رجال قبيلة الشاعر من مائة سنة فما دون ليست داخلة في نطاق هذه القصيدة ، ولم نوفق الى رجل من شيوخ القبيلة المسنين الرواة لينقل لنا ما صدر عن هذه القبيلة خلال القرن الاخير ، ومما لا شك فيه أن لولا هذا الشاعر لضاعت هذه المآثر .

واعتقد ان العرب في الجاهلية كانوا على حق حينما كانت القبيلة تقيم الافراح عندما ينبغ فيها الشاعر ، اعتقاداً منها ان هذا الشاعر سوف يذب عن قبيلته ، ما توصم به من هجاء شعراء القبائل، المعادية لقومه وفي الوقت ذاته يسجل الحسنات والمآثر التي تقوم بها قبيلته بقصائده واشعاره عندما كان الشعر وقتذاك السلاح الفاتك الفعال بيد العرب ، وذلك لما للبيان من تأثير في نفوس العرب ..

ولا عجب فقد كان الشعر كالصحافة وكوكالات الانباء وأجهزة الاعلام في عصرنا الراهن ..

وشاعر الدوامر يذكر في القصيدة الآتية انه صدر من قبيلته ثمان نوادر من شيم العرب التي تستحق الذكر والخلود ، ولكن القصيدة التي بين يدينا لم تكن حاوية لتفاصيل الاحداث التي أشار اليها الشاعر بقصيدته مما يجعلني اعتقد جازماً ان القصيدة ناقصة وان ابياتاً مفقودة منها لم تصل الينا ..

والقصيدة الآتية أحد عشر بيتاً أشار الشاعر في مطلعها الى حادثة يتلخص مضمونها بما يلي :

هناك رجل من الدوامر قبيلة الشاعر يدعى المبيعيع ناصر بن ولمان هذا الرجل استجار به شخص من قبيلة قحطان ، وفي مناسبة ما وقع بين ابن المجير وابن المستجير نزاع أدى الامر الى ان قتل الاول الثاني،أي ابن المستجير قتله ابن المجير،

وفجأة سمع الدوسري بكاء جارته على ابنها القتيل ، فسأل عن سبب بكائها فأخبر أن ابنها قتله ابنه ، فذهب وجـــاء بأبنه وقتله بيده أمام أم الفتى القتيل وقال : « فلتبك أم ابني كما بكت أم مستجيري » ..

هذه واحدة من الأعمال الثمانية التي أشار اليهـــا الشاعر في مطلع قصيدته التي سنوردها فيما بعد ..

والعمل الثاني الذي يشير الشاعر اليه هو أن شخصاً من قبيلتهم قام بعمل ينافي الشيم العربية ، كنكث العهد أو الغدر بالرفيق أو عدم الاعتناء بحرمة الجوار ، ويؤكد الشاعر ان رجال قبيلته عندما ثبت لديهم ذلك ذهب نفر يدعون أولاد عويمر وقتلوا مقترف الجريمة ..

وأما الحادثة الثالثة فان مضمونها يشير الى ان هناك شخصاً من قبيلة قحطان يدعى الشايق بن سليم استجار برجل يسمى مانع بن منصور ابن حسن الولمان من عشيرة الشاعر ، وقـــد شاء القدر ان يسقط القحطاني ، أي المستجير ، ببئر المجير الدوسري فيصاب بجروح خفيفة فما كان من أمر الدوسري إلا أن وهب مستجيره فرساً أصيلة اوضاء له على أساس أن الجرح الذي أصابه من بئره ..

والحادثة هذه يؤكد الرواة انها وقعت حوالي عام ١٢٢٠ هـ وعندمـا نعرف أن قيمة الفرس الاصيل في ذلك العهد تساوي ستين ناقة من الابل فما فوق ، نقدر أهمية الهبة من المجير لمستجيره ، وفي الوقت ذاته نقدر ايضاً اهمية المستجير في نفسية العربي لأن هـــذا الذي وهب الفرس ليس لشيء الا لأن جاره سقط في بئره وأصيب بجروح طفيفة ..

والحادثة الرابعة تشير الى ان شخصاً ايضاً من قبيلة قحطان لقي حتفه بعدمـا سقط في بئر مجيره الدوسري المدعو سعد بن حسن بن محمـد الولمان من الوادعين وبالرغم من أن هذا المستجير توفي بحكم القضاء والقدر ولكن مجيره دفع عنه الدية كاملة وسلمها لأوليائه ..

وفي الحادثة الخامسة يفيدنا الشاعر بأن رجلًا استجار بشخص يدعى محمـــد

ابن خليف وان المستجير انقض عليه جدار جاره بمحض القضاء والقدر ، فما وسع بجيره الا أن دفع دية مستجيره الى اهله كاملة ..

هـــذا وقد ذكر الشاعر ان قبيلته قامت بثمان من الحوادث ذات الاهمية ، ولكن القصيدة الآتية ليس فيها اكثر من الحوادث الخمس سالفة الذكر.. ولا بد أن البقية مذكورة في الابيات التي أشرت الى انها لم تصلنا ..

واليك القصيدة كما وردت :

نحـنْ جرى منا ثمانيه سوالف
كلْ بصـــدق قائلة لقالهـــا

منها المبيعيـج المسمى ناصر
زلةْ غريرٍ سبّبت لجـالهُـــا

جرّةْ عليها ولاطْ حلقهْ فوقها
وقال : الثارات حلاتْهَا عجالها

والى باقْ واحدٍ منا في سيئة
ذبحناه ذبـح الشّاه وسط حلالها

واللي فعل ذا الفعل أولاد عويمر
وهم فحول المرجلة وازْحالهـــا

وفيها بيان الشّايق بن سليم
بالبئر طاح وصكْ راسه جالهـا

وهو جار كسّاب المراجل ّما نِع

حاوي المراجل دِقّها واجلالها

اعطاه صفراً سابقٍ معنوُنه

صفراً يشوق خيّالها جمالهـــا

ويوم طاح العاطفي في ِحسْينَا

َعطـــاه سعدَ الدّية وأمثالها

ومنها الجدار اللي ودى ابن خليفْ

عطاه الدية واقفى بكل َمهالهـَا

ذا شرعنا في جارنا إذا التجى لنا

تعلّم بهـا ِعقالنا ِجهّالهــا

أكثر معاني هذه الابيات شرحتها آنفـــاً وعلى كل لا بد من شرح بعضها بايجــاز ..

يقول الشاعر أن قبيلتة أي الدواسر قامت بثمان حوادث لها قيمتها وأهميتها.. والدليل على ذلك انه إذا شاء أي واحد من قبيلته أن يفخر بهذه الحوادث أمام أية قبيلة اخرى من قبائل العرب فإنــه يستطيـع أن يفخر وهو مرفوع الرأس بدون أن يجد من يعارضه بافتخاره هذا ..

ومن هذه الحوادث الثمان الحادثة الاولى سالفة الذكر ..

ويقول في البيت الرابع انه اذا اقترف أحد رجال القبيلة أمراً مخلاً بالشرف والكرامة العربية فإننا سوف لا نتأخر عن ضرب عنقه وفي هذا المعنى يشير الى الحادثة الثانية التي أشرت اليها بالسياق .

ومعاني البيت الخامس تأكيد للبيت الذي قبله وايضاح له ..

وأما البيت السادس والسابع والثامن فإن المعنى يشير الى الحادثة الثالثة أي منح المجير فرسه لمستجيره عندما أصيب بجرح من بئره ..

وفي البيت التاسع يشير أيضاً الى الحادثة الرابعة التي دفع فيها المجير الدية كاملة لجاره عندما سقط في البئر ولقي حتفه .. وكذلك البيت العاشر يشير الشاعر فيه الى الحادثة الخامسة وهي دفع دية المستجير عندما انقض عليه الجدار وتوفي ..

وفي البيت الحادي عشر يقول الشاعر أن هذه الاعمال التي نقوم بها من اكرام للجار وعقاب من ينكث العهد أو يخون رفيقه وما شابه ذلك ان الغاية منها هي ان يقتدى الابناء والاحفاد بخلق وشيم أهلهم الاوائل العقلاء الافاضل .. ولتكن هذه الشيم نبراساً يسير على ضوئه من يجهل سيرة اسلافه الغر الميامين الاشاوس ..

طغت حرمة الجوار على عاطفة الرحم

-١٢-

يقول المثل الشعبي المشهور (الخال والد) أي ان رحمة الخال وعطفه على ابن اخته اشبه ما تكونان بعطف الاب ..

وربما كان هذا المثل من أهم العوامل التي أوهمت الفتى محمد بن عجيان [١] بأن يعتدي على الرجل الدوسري [١] المستجير بخاله المدعو غنام بن عميان [٢] ظاناً انه اذا قتل الدوسري المستجير بخاله فإن عاطفة الخال سوف تحول دون حمايته لمستجيره.. وقد نسي ان عاطفة الخؤولة وان كانت قوية ولا شك ولكنها اذا أراد معتد مغرور ان يستغلها ويعبث بها فإنها ستتلاشى وتذوب كما هو الامر الواقع في تجربة كهذه ..

من المسلم به ان الدوسري سالف الذكر عندما لاذا بحماية غنام كانت الغاية

---

١ – محمد بن عجيان من قبيلة آل شامر بادية مدينة الرياض .

١ – بما ان الحادثة لها ما يقارب مائة وثلاثين سنة لذلك لم اوفق لمعرفة اسم هذا الدوسري لطول الزمان بالرغم من حرصي الشديد ..

٢ – غنام من قبيلة آل شامر سالفة الذكر .

طلب حمايته من انتقام ابن اخته محمد بن عجيان بالذات الذي كان بينه وبين الدوسري المستجير بخاله عداوة كانت في بداية أمرها ليست ذات أهمية ولكن الشر كما يقال عنه كالشرارة ، إذا لم تخمد في حينها فإنها سوف تتطور الى حريقة يصعب اطفاؤها بسهولة .. وهذا ما حصل بين ابن عجيان وبين الدوسري ، ابتدأت خصومتهما بشيء تافه لا يستحق الذكر ، ولكنها استفحلت وتطورت الى ان تفاقم أمرهـــا وبلغت حداً جعل ابن عجيان يترقب الفرص ليأخذ ثأره من خصمه الدوسري الذي يزعم ابن عجيان انه اعتدى عليه ..

ولكن الدوسري كان ابعد نظراً من ابن عجيان عندما استجار بغنام بن عميان خال الفتى طالب الثأر اعتقاداً منه انه لائذ بحصن منيـع الجانب ..

وكانت المشكلة ان الفتى لم يفهم المنطق الذي فهمه الدوسري، وغاية ما يفهمه ان خاله ، وان كان يعرف انه شجاع لا تخفر له ذمة ولا تغمز له قناة .. ولكنه في الوقت ذاته كان يعتقد ان عاطفة الرحم سوف تحول دون قصاص خاله منه .. عندما يأخذ ثأره من الدوسري ، وتمادياً مع هـذا التفكير الصبياني الخاطيء راح الصبي المغرور يتحين الفرصة بالمستجير بخاله ، حتى خيل اليـه ان الفرصة سنحت له وانه لم يكن بينه وبين تنفيذ ما يريد إلا ان يثب على مستجير خـــاله ويقضي عليه ..

المستجير غارق في النوم والجير يقظ سهران والصبي يتهيا للوثوب

كان المستجير يغط في سبات عميق واثقاً كل الثقة بأنه في اقصى مكان من عرين الاسد ، وكان المجير لا يهدأ له بال ولا تنام له عين وقد وجـــد نفسه بين موقفين لا يحسد عليهما :

فأما الاول فهو حراسته لجيره وحمايته له – التي لا تتم على الوجه المطلوب الا

على حساب قتله لابن اخته فيما اذا اعتدى على مجيره ..

وأمـــا الثاني فهو خفر ذمته وهتك جواره الذي سوف يلاقيه من ابن اخته الذي بذل كل ما لديه من الجهد بأنذاره له بأن لا يقدم على حماقته الخرقاء هذه ..

وبين خوفه من مواجهته لاخته فيما اذا قتل فـلذة كبدها عندمـا يعتدى على مستجيره ، وبين خوفه من ان تهتك حرمة جواره ، بـين هذين الموقفين الحرجين اضطر الرجل الى ان يتخذ جميـع الاحتياطات الضرورية التي تجعله يحرس مستجيره من ناحية ويحرص ان يتمكن من القائه القبض على ابن اخته من ناحية اخرى قبل ان ينفـذ عمليته الاجرامية بمستجيره لكي يتخذ معه اجراءات حاسمة تثنيه عـن استمراره بغروره دون ان يصيب منـــه مقتلاً يجرح به قلب اخته ويؤلم فؤاده كخال بار ..

وبقدر ما كان الخال يقظاً سهران على حراسة جاره وعلى اتقاء شر ابن اختـه كان ابن الاخت لا هم له إلا ان ينقض على غريمه ليأخذ منه الثأر ..

وفي آخر تلك الليلة المدلهمة ، هجم الصبي على مستجير خاله ظاناً انـــه ظفر بفريـته ، بينما وجد نفسه بين فكي الاسد الرابض بحذر ويقظة على مدخل مغارته وعندئذ صاح ابن الاخت قائلاً لخاله :

ـ ناشدتك الله والرحم يا خالي ان تعفو عني وتخلي سبيلي ..

ـ فهل راعيت حرمة خالك يا مغرور ؟.. أم تريد ان تتخذ من صـلة الرحم سلاحاً تهتك به حرمتي .

ثم مضى وقال : أتستطيـع ان تتمادى بغرورك فيما لو لم تكن ابن اختي ؟

ـ سوف لا اعود بعد ذلك يا خالي ..

ـ ألم تبلغك والدتك نصيحتي وكان جوابك انك سوف لا تقوم بـأي عمل عدواني ، فكيف بك تنقض مـا وعدت به والدتك ؟.. وكيف بي أثق بوعدك أو اركن لعهدك ؟

ـ اعطيك وعداً من الآن فصاعداً بأني لن اعود لمثل ذلك ..

ـ بل أنا الذي اعطيك عهداً اصدق من عهدك ، بأنني لن اتركك الآن حتى

تحس وتلمس مني العقاب الذي لا يكون قاضياً نهائياً على حياتك ولكنه سيكون رادعاً لك ..

ومضى الخال بتهديده لابن اخته الى ان قال : وانني أؤكد لك بأنني وان كنت خالاً رحيماً طيباً ، ولكن رحمتي وطيبتي سوف يتلاشيان فيما اذا شاء أحد من امثالك ان يتخذ منهما سلاحاً يخفر به ذمتي .. عندئذ سوف لا تأخذني به رحمة ولا رأفة حتى ولو كان ابني .. وهاأنذا مؤدباً لك ومنذراً اياك لئن عدت بعد ذلك فلن يكون عقابك مني سوى القتل ..
ثم ترك الخال ابن اخته ولكن بعدما طعنه بمديته طعنة لم تكن قاتلة، وهي في الوقت ذاته خلبت لب الصبي وصيرت منه انساناً يتراجع نهائيـاً عن خطته الاجرامية التي كان ينوى تنفيذها بجار خاله ..

وهذا التراجع بالطبع لم يكن لو لم يلقنه خاله درساً قاسياً جعله يدرك ان وفاء خاله بعهده وحمايته لجاره سوف يطغيان على صلة الرحم فيما اذا شاء صاحب الرحم ان يستغلها لتنفيذ اعماله الاجرامية ..

ندبة المستجير قتلت المجير

-١٣-

كانت الشهرة التي يتمتع بها آل صويط [١] بين قبائل البادية في حماية الجار شهرة قل أن يشاركهم فيها أحد خاصة عنـــد بادية شمال الجزيرة حتى اصبحوا مضرباً للمثل،ولا سيا بعدما قتل صنيتان بن صويط ابنه الذي اعتدى على جاره ابن منديل، كقصتهم التي سبق أن أشرت اليها في الجزء الأول من شيم العرب[٢] .. وشاهـدنا هنا ان آل صويط أخذوا شهرة في حماية الجار اكثر من غيرهم لتوالي الاحداث ..

وعندما يكون فرد ما ،أو أسرة ما اشتهرت في ناحية معينة من النواحي المعنوية يكون من غير السهل التخلي عنها فيما إذا ادعى الداعي ، وسيكون رد الفعل عنيفاً في كيان المرء أو الجماعة فيما إذا دهمتهم ظروف قاسية حالت دون القيـــام بهذا الواجب ، فالكريم -مثلاً- الذي اعتاد البذل والكرم ماذا يكون موقفه عندما يأتيه ضيوف وهو بحالة من الفاقة والفقر المدقع لا يستطيع أن يجد لقمة يسد بهـا رمقه فضلاً عن ان يكرم ضيوفه ، وكذلك الشجاع عندما يهاجم وهو اعزل من السلاح لا يكون موقفه الا ان يستسلم لعدوه بدون قيد وشرط أو ان يطلق

---

١ - انظر القصة في ص ٦٦ من كتابنا هذا .

٢ - انظرها في ص ١٥٧ الطبعة الثانية وكان الاجدر بيا ان اضمها في هذا الفصل ولكن كما يقال : سبق السيف العذل .

ساقه للريح هارباً دون ان يبدي أدنى مقاومة، ولا بد له ان يرتكب احد الامرين لا محالة وان تكن شيمته الشجاعة ..

والذي وقع مع (عقوب بن صويط) في عام ١٣٢٨ ﻫ شيء لم تتحمله طاقته ولم يكن لديه من المقدرة إلا ان فاضت روحه جزعاً مما فوجيء به .. وهاك تفاصيل القصة ..

في تلك السنة وقع بين الشيخ عجمي بن سعدون[1] وابن صويط رئيس قبيلة الظفير شقاق مما اضطر ابن سعدون ان يستصرخ سعود العبدالعزيز بن متعب الرشيد ليؤازره على مقاومة بن صويط . فلبى سعود ندبة السعدون فراح ينكل بقبيلة ابن صويط ويسجن امراء القبيلة ويضع ضريبة على أثريائها ، كأخذ ابلهم . وكان بين الذين شملتهم الضريبة رجل مستجير بعقوب بن صويط وكان عقوب وقتها سجيناً مكبلًا بالحديد فصرخت أم المستجير بدون وعي منها عندما أخذت ابل ابنها قائلة بأعلى صوتها :

– اين عقوب من مستجيره ؟..

وكان صراخها باذنه ، لا بل كان سهماً ماضياً مزق قلبه تمزيقاً فأوقفه عن الحركة ، ففارق عالم الدنيا فور سماعه لصوت جارته المضطهدة مختاراً عالم الخلود على عالم الحياة الفانية ..

---

١ انظر ص ٩٨ الجزء الاول من شيم العرب – الطبعة الثانية للمؤلف .

لولا أخي لما قتل مستجيري

- ١٤ -

قصتنا هذه هي أحدث القصص عهداً ، واعني القصص التي لهـــا علاقة في حماية الجار .. وقعت في صفر ١٣٧٠ – ١٩٥٠ م.

كنت اظن ان تلك العادات العربية ذات العلاقـة بحماية المستجير والتي تبلغ احياناً من القسوة حداً تجعل الأب يقتل ابنه فيما اذا اعتدى الابن على حرمة الجار، وتجعل الأخ يقتل اخاه في حـــالة مماثلة .. اقول كنت اظن ان تلك العادات التي تبلغ الى ذلك الحد قد اضمحلت او اختفت على الاقل ، ولكن يبدو انها لا زالت باقية متأصلة في النفوس .. وهذه الحادثة التي بين ايدينا تعطينا اكثر من دليل على بقائها الى عهدنا القريب ..

كان نفر من قبيلة (الصهاليل) [1] يطاردون فرحان بن مفرّج [2] بغية ثأر يريدون ان يقتصوا به منه ، فهرب ولاذ بجوار فتى يدعى مُفزع [3] ابن مداوي الريشي، وكان الريشي من نوع الرجال الذين لا تحفز لهم ذمة ولا يهتك لهم جوار، وهذا مما جعل طالبي الثأر لا يستطيعون الوصول الى المستجير بسهولة، اللهم إلا ان

---

١ ـ سبق ان اشرت الى ذكر هذه القبيلة في صفحة ٣ من هذا الكتاب وبهذا الجزء بالذات.
٢ ـ من آل خريج وهو من قبائل اليمن .
٣ ـ مفزع من قبيلة خولان في اليمن التابع للمملكة العربية السعودية .

هناك وسيلة واحدة ربما تسهل لهم الوصول الى هدفهم المنشود ، وهذه الوسيلة هي ان لهم ابن اخت هو أخ للريشي من ابيه ، فذهب الصهاليل يستعينون بابن اختهم ليهديهم الى موضع المستجير من ناحية ، ويبصرهم الساعة التي يكون فيها المجير غافلاً او نائماً بصورة يتمكنون بها من اخذ ثأرهم من المستجير وفي الوقت ذاته ينجون من عقاب المجير حتى يلوذوا بالفرار ويصلوا الى قبيلتهم ، وعندها يصعب على الريشي الانتقام منهم .. وكان المجير والمستجير يعلمان ان الصهاليل سوف يبذلون جهدهم مـا استطاعوا من اجل اخذهم بالثأر من المستجير .. ولذلك كانا آخذين الاحتياطات اللازمة بحيث كان المستجير يتوارى في الليل في مخبأ حصين لا يستطيع ان يعرفه احد ، اللهم إلا اخو المجير لأبيه ، اي ابن اخت الصهاليل طالبي الثأر .. ذلك الفتى الذي انقاد مع اخواله بخدعة أو بأخرى حتى دلهم على مخبأ المستجير ، وبغفلة أو غياب اخيه تمكن المعتدون من ان ينقضوا على المستجير ويقتلوه .. ولم يعلم المجير إلا بعد نفاذ الأمر وفرار القتلة الى قبيلتهم ..

ولم تعد خيانة أخيه سراً فقد شاعت الشائعات عند رجال القبيلة ان الذي أعان القتلة وهدام السبيل أخو المجير مما جعل أهل القتيل يعتبرون ابنهم قتل بيد جاره لأنهم لا يفرقون في حالة كهذه بين الأخ وأخيه ، وان كانوا واثقين بأن الأخ الأكبر من المستحيل ان يكون لديه علم بما حل بجاره عن طريق أخيه..ولكنهم يعتقدون بأن الأخ الأصغر لو لم يكن واثقاً من عدم عقاب أخيه لما تمادى بفعلته الاجرامية ..

كانت هذه الناحية الاخيرة موضع قلق للمجير لأنها اصبحت مهمزاً عليه بين عموم رجال قبيلته فلا بد له والحالة هذه من احد امرين .. أما ان يدفع دية المقتول بصفته مستجيراً بجاهه وهو المسؤول عنه والا يبقى مطالباً من أولياء المقتول من ناحية ، ومن ناحية اخرى يكون بين قبيلته منبوذاً ومحتقراً بسكوته على جريمة أخيه .. وهذه الاخيرة هي الأهم عنده ، فما كان منه إلا أن راح يبذل جهده ليرضي اولياء القتيل بقبول الدية عن ابنهم ، ولكن هؤلاء رفضوا ولم يصغوا

لاغرائه ، وقد تعهد لهم بأن يدفع الفا وستمائة نعجة وبندقيــــة وعدداً وافراً من الابلَ .. وهذا يعني كل ما في حوزته من الغنم والابل وحتى بندقيته ، وسوف يخرج من الدنيا صفر اليدين مقابل ازالة وصمة العار التي لحقت به ، وكانت الاجابة من اولياء القتيل لهذا العرض تتضمن المعاني الآتية :

أولاً ـ ان قبولهم للدية فيه عار مزدوج عليهم حسب العادات والعرف المعمول به الذي يشير بأن قبول الدية بحالة كهذه دليل على العجز والجبن عن أخذ الثأر من المعتدى ، وفي الوقت ذاته عار على المجير الذي يقبل دفع الدية لأن مجرد اعترافه بدفع الدية يعني انه معترف بخزيه ويحاول ان يغسل هذا الخزي بماله ..

ثانياً ـ ان العار والخزى لا يستطيع المرء ان يغسلها بالعار وانما يغسلان بالدم ..

وكانت النهاية ان اضطر الى ان يقتل أخاه..

حرمة الجوار ليست محصورة على الانسان دون الحيوان

-١٥

أذكر في الأدب العربي القديم ان هناك عربياً أجار حيواناً .. ولكنني لم أعد اذكر التفاصيل ، كيف كانت حمايته لهذا الحيوان .. واعتقد ان عدم اهتمامي بذلك يعود الى كون الحادثة مسجلة في كتب الأدب العربي ، ولما كانت مساعيّ محصورة بما يحدث من (شيم العرب) وعاداتهم التي لم يسبق أن سجلت فإنني لم أعر تلك الحادثة اهتمامي ما دام انها وجدت بين أبناء العروبة الغيورين على العنايةبتراث امتهم من اعتنى بها وسجلها فحفظها عن الضياع ..

إذن ، فهذه الحادثة وان كانت من نوادر شيم العرب ، ولكنها لم تكن بكراً من نوعها فهناك ما هو مضارع لها .. واعتقد ان الشيء الذي ذهب نتيجة الضياع والاهمال من شيم العرب اكثر بكثير مما احصاه المؤرخون ، ومضمون قصتنا هذه يأتي كما يلي :

كان شاعر الحروب والحماسة محمد العوني[1] يقيم في مدينة الكويت عام ١٢١٧ هـ كلاجيء سياسي كما يعبر عنه بالعصر الحديث ..

---

١ — محمد العوني من اهالي القصيم ، وهو بفضل دهائه وشعره اصبح عند الشعبيين اشهر من نار على علم . وللمؤلف كتاب عن حياة العوني تحت الطبع بعنوان تاريخ جيل في حياة رجل .

وبينما كان العوني جالساً في منزله في الكويت ينظم بعض قصائده الحماسية حاصرا فكره في هذه الناحية شارد الذهن عن كل شيء خارجاً عن المعاني التي أثارت شعوره، وشحذت قريحته بحيث انه غفل عن اغلاق باب منزله الخارجي ، في هذه الغيبوبة التي سبح الشاعر في لجتها فوجيء بدخول كبش جاءه يجري فقام ليطرده ويقفل الباب ، إلا انه قبل ان يفعل سمع صوت رجل يقرع الباب ويقول :

- اخرج اليّ كبشي ..

فلم يكن لديه أدنى شك بأن المنادى صاحب الكبش ، فراح وقبض على الكبش وجاء به ليسلمه لصاحبه ، ولكنه عندما وصل الباب وجد صاحب الكبش حاملاً مديته بيده ، فسأله العوني :

- ما الأمر ؟.. فرد عليه هذا جوابا فهم معناه أن صاحب الكبش جزار وانه يريد أن يذبحه ليبيع لحمه ، وعندما فهم العوني هذه الغاية صاح بالجزار قائلاً :

- كنت على اتم الاستعداد أن اسلمك الكبش ظانا انك رجل من رعاة الغنم وأن الغاية من رغبتك باستلامه هي العناية والرعاية به..أما ما دمت جزارا وتقصد أن تذبحه فأنني لن اسلمه لك لأنني اعتبر دخوله منزلي في حالة كهذه معناه انه لائذ بجواري .

- هذا حيوان وليس بالأنسان الذي يعرف بمعنى الجوار او الاستجارة .

- حرمة الجوار ليست مقصورة على الحيوان دون الانسان ، ولما كانت الغاية التي تدفع المستجير الى الاستجارة هي عجزه عن الدفاع عن نفسه ، ونجدته بقوي يجيره ويحميه فان مثل هذا الحيوان احق بالحماية لأنه اعجز من أن يدافع عن نفسه ..

- لك أن تحميه كما تريد ، وأنما الذي يهمني هو أن تدفع لي ثمنه بكامله كما تدفع

لي الربح الذي اتوقعه فيما لو ذبحته وبعته لحما ..

- سوف أدفع لك الثمن والمكسب الذي تتوقع انك سوف تربحه من ورائه فيما لو ذبحته ..

فدفع العوني ثمن الكبش كاملا والمكسب الذي كان يتوقعه الجزار ، وابقى الكبش في منزله يطعمه ويسقيه ، وعندما أضطر العوني للسفر وترك الكويت ، راح واستدعى بدوياً اميناً وأودع الكبش عنده بعد أن اخذ عليه عهداً بأن لا يمس الكبش بسوء الى أن توافيه منيته..[1]

---

١ ـــ رويت هذه القصة عن المرحوم الشيخ عبد العزيز بن زيد .

الرجل الذى كان سبباً لامتداد أجلي

- ١٦ -

سوف تضطرني هـــذه القصة الى الحديث عن شيء من ذكريات الطفولة .. وهي ذكريات قد تكون لذيذة سعيدة بالنسبة لطفل لا يريد من الحياة إلا أن يتركه اهله حراً طليقاً يمرح مع اطفال الحي كيف يشاء ويلهو بألعاب الاطفال سادراً ، حيث يريـد ، وهكذا كنت اتخيل انني اعيش سعيداً واشعر انني انعم بحياة هانئة طليقة .. ولكن هذه السعادة وذلك النعيم من حيث الحقيقة اشبه ما يكون بالمعنى الذي نوه عنه ابو الطيب المتنبي بقوله :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله

واخو الجهـالة في الشقاوة ينعم

لاشك أن معنى هذا البيت ينطبق على نعيمي الموهوم أجل لقد توفيت والدتي قبل أن ابلغ السابعة . وظللت في حضانة جدتي لأمي ، التي لا تقل حنانا وعطفاعن والدتي . وكان يعولنا جميعاً خالي الاكبر . وهو يمتهن حرفة التجارة برأس مـال اقل من أن يذكر . اما والدي الذي تزوج امرأة غير والدتي .. في حياة أمي .

فقد كانت اقامته في المدينة قليلة . وقد أخذني والدي من جدتي وتركني في عهدة أناس - فقـــدت عندهم ذلك الحنان والعطف اللذين عهدتهما في حضانة جـــدتي وأن يكن لأولئك النفر على يد اذكرهم بها بالخير فانمـــا هي تلك المعاملة القاسية الخشنة التي خلقت مني انسانا يكره الظلـــم انى كان مصدره . ويعطف على الضعيف بقـــدر ما اوتي من القدرة ويناصر المظلوم ما استطاع الى ذلـك سبيلا - ويأخذ بيد اليتيم ما أمكنه ذلك [1]. كما خلقت في نفسي في الوقت ذاته - الشعور بحب الاستقلال والاعتماد على النفس بأية وسيله كانت ، مما جعلني افكر في الوسيلة التي تحقق لي كسب المال بحرية واستقلال . مهما لحقني في سبيل ذلك من عنـــاء ونصب وابتعاد عن الاهل والوطن . ولكن المشكلة التي اصطدمت بها وجها لوجه هي أنني احمل شعورا أقل بكثير من مستوى طاقتي كطفل . وأسوأ مـــا يلاقى الانسان في حياته عندما تكون امكانيات المرء دون همته وتلك ظـاهرة اشار اليها الأديب الكبير عبد الله بن المقفع عندما وجه اليه السؤال التالي :

من أشقى الناس ؟..

فقال : من علت همته وضعفت مقدرته واتسعت معرفته .

وهكذا كنت اشعر انني أحمل همـــة الرجال في الحين الذي كنت في سن الاطفال . ولكن الحيـــاة ارشدتني الى انه قد يكون للسن حدود ولكن الهمم لا حد لها . ولا سيا اذا كان للهمة حافز ، يشحذها ، وعوامل تحدوها نحو الكمال والسمو . وقـــد اثبت علماء النفس أن مركبات النقص الجسمي أو المعنوي أو المادي الخ .. من أهم البواعث التي تبعث في المرء روحـــاً لا تستكين الى الخمول والاستسلام .

---

١ كان من اثر ذلك بل من دواعي شرفي هو ان سعيت بأنشاء مؤسسة في دمشق اثنـــاء اقامتي فيها جمعت بها شمل جميع الايتام المغتربين السعوديين والعجزة من فتيان وفتيات وشيوخ وارامل . ولم اتركها حتى ضمنت خلودها الابدي .

ولعل شعوري بفقدي لعطف الوالدين والمعاملة القاسية التي لاقيتها عند النفر السالفي الذكر . من أهم العوامل التي دفعتني منذ نعومة اظفاري الى العزوف عن الاتكال على منة الغير . والاعتماد على ساعدي راضياً ومطمئن النفس عن كل ما ينالني من مشقة في سبيل ذلك .

لقد داعب خيالي هذا الشعور ولكني واجهت صعوبة في تحقيقه .. ولا عجب فقد كان وضعي لايتناسب وهمتي ، لا كانسان لا املك من حطام الدنيا سوى ما يستر عورتي فحسب ، بل كطفل يعيش في مجتمع هو الآخر لا يزال في سن الطفولة من حيث الوعي والتقدم والرقي ، فلا مدارس ولا مصانع ولا مؤسسات اجتماعية ولا مستشفيات ولا نقابات ، كل هذه الاشياء التي يوجد الكثير منها اليوم في بلادنا لم يكن موجود منها وقتذاك ادنى شيء يذكر ، ومما لا شك فيه انه لو وجد شيء من ذلك لما استعصى عليّ الامر ، أي لكان في الامكان ان أسد الفراغ الذي اشكو منه بصورة تجعلني اعمل اجيراً في النهار في احد المصانع بأدنى اجرة تقيم أودي وفي الليل ادرس في احدى المدارس الليلية وفي آخر السنة الدراسية اقدم امتحاناً كما يفعل اليوم الكثير من ابناء الفقراء العصاميين .

وبما انه لم يوجد شيء من هذا، فقد تبادر الى ذهني ان اذهب الى البادية لأتولى رعاية الغنم أو البهم [1] بالاحرى بحكم حداثة سني ، حيث وجدت بدوياً أكد لي بأن من يقوم بهذا الأمر فانه يعطى في آخر السنة شاة.. فقلت في نفسي انها فرصة لا تعوض ما دمت أملك شاة في آخر العام وسوف املك شاة اخرى ، وفي خلال سنوات قليلة سوف يكون عندي « رعية » من الغنم .. وهكذا بدأ هذا الحلم لذيذاً ومغرياً لأوهامي واماني .. ولكنها اماني لم تتحقق لأسباب لا داعي لذكرها ... وعلى كل حال فلم يكن السبب المانع من قبلي ولذلك ظللت التمس سبيلاً آخر .. والسبيل الرشيد الذي وجدت فيه العزاء الكامل لنفسي هو ان

---

١ – البهم ابناء الغنم الصغار .

أترك اولئك النفر الذين شعرت بالنفور من بقائي عندهم بل واترك بلادي لأذهب الى أي بلد أتوقع ان اجد فيه عملاً شريفاً أكسب منه العيش بعرق جبيني و كسب يميني مهما كان ذلك العمل شديداً قاسياً . وقد كان ثمة قافلة ينوي أهلها الذهاب الى الكويت فرجوتهم ان يحملوني معهم مقـــابل خدمتي لهم فقبلوا ، فذهبت معهم مسروراً ، ولكن ما ان قطعت مرحلتين متجهاً بصحبة رفاقي نحو الكويت حتى لحقني مندوب من قبل اولئك القوم الذين اودعني والدي عندهم قاصداً اعادتي الى ذلك السجن الذي لم اشعر بالسعادة إلا بعد ما تأكدت من فراري منه .. ولمـــا كنت لا أملك من نمو الجسم وقوة الساعد مـا يمكنني من الدفاع عن نفسي فيما اذا شئت ان أصر واعاند هذا الذي يريد ان يعود بي مرغماً الى ما كنت فاراً وهارباً منه فقد سلمت أمري الى الله وأذعنت له عائداً بصحبته واثقاً بأنني اذا لم أعـــد بصحبته راضياً مختاراً فان ذلك الوحش المفتول الساعد[1] القوي العضلات المليء الجسم الفارغ العقل سوف لا يتورع من ان يشبـع هذا « الطفل » النحيل الجسم ضربـاً بعصا الخيزرانة ثم يربط يدي ورجلي ويشـد وثاقي ويطرحني على مؤخرة راحلته حتى يسلمني لمن بعثه ..

وهكذا عدت الى حيث كنت ولكنني في قرارة نفسي لم ازدد إلا عنـــاداً وإصراراً على عزيمتي التي كنت انوي تنفيذها .. ولهذا ظللت أترقب الفرص .. هذا وقد جاء والدي من الرياض ولكن مجيئه هذا لم يدخل في قلبي أي اطمئنان لأنني كنت أظن انه سوف يعود الى الرياض ثانية كما تظاهر بذلك امـام كل من يسأله .. وكم تضاعف سروري واغتباطي عندمـا سمعت والدي يهمس لشاب من اهالي بلادنا بعبارة فهمت منهـــا انه ينوي الذهاب الى العراق لا العودة الى الرياض ..

كان الحديث الذي سمعته من والدي بشرى كبيرة بالنسبة لآمالي وأمانيي ،

---

١ – يدعى هذا الرجل عبدالله البرقع ، وهو بدوي من قبيلة شمر .

وما عليّ الآن إلا أن اتابع حركات والدي وان احرص على استراق السمع منه ما أمكنني ، وقد نفذت مخططي هذا وزادني رغبة في اهتمامي في ذلك هو ان القرائن والأدلة تزداد عندي يوماً بعد يوم ومما جعلني اثق ثقة اكيدة من عزيمة والدي على السفر نحو العراق ما قام به من تبديله لذلوله الأولى بذلول نجيبة صلبة يضاف الى ذلك ما قام به الشاب الذي أسر له والدي بشراء الذلول الخاصة به وهذا الشاب وان كان من أهالي بلادي ولكنني لا أعرف إلا اسمه وكنيته..فاسمه ناصر وكنيته القصيمة وهو الآن في عداد الاموات فيما أظن .

وقد اتضح لي من استمراري باستراق السمع وتحري أحاديث والدي ان كلا من والدي وهذا الشاب ينويان الذهاب معاً للعراق وسوف يكون ذهابهما خلسة طبعاً..وحينما ثبت لدي ان والدي عازم على السفر الى العراق ذهبت اليه وصارحته برغبتي بمصاحبته وقد حاول في بداية الامر أن يخفي عليّ أمره ويتظاهر بالانكار ولكنني استطعت ان اؤكد له بأنني فاهم كل ما يدور بالسر بينه وبين الشاب .. ولما لم يجد مناصاً من ذكر الحقيقة حينذاك اعترف بالأمر ولكنه رفض مصاحبتي له بحجة انه ذاهب بصورة خفية على ولاة الأمر ، وانه والحالة هذه يكون هارباً.. الأمر الذي يعرضه لمغامرة لا يحب ان يشركني بنتائجها السيئة .

فقلت له المثل الشعبي الآتي : ـ « الجحر الذي يسعك لا يضيق بي ».. فقال:

ـ انه لم يعش لي ابن سواك ولذلك أحب ان تبقى لتحيي ذكري فيما إذا حدث لي في سفرتي هذه حادث قد ألاقي به حتفي .

ـ أنا ذاهب معك لا محالة.

ليس لدي عزيمة سفر في الوقت الحاضر اللهم الا بعد فترة من الزمن لأن ذلولي هزيلة وقد تركتها في البادية حتى تبلغ من القوة ما يمكنها من حملنا أنا وأنت في رحلتنا الطويلة وفي الحين الذي نقرر فيه سفرنا عند ذلك سوف اخبرك لنذهب معاً .

قال والدي هذه العبارات ليقنعني أما من حيث الحقيقة فإنني واثق بأن ذلوله ليست بحاجة الى الراحة والقضية ليست إلا قضية تهدئة لي ..

وقد وجدت من الافضل ان اتظاهر بقناعتي بكل ما وعدني به وان انتظر ساعةالصفر وعندها أضع والدي أمام الأمر الواقع تجاه تنفيذ وعده .

ووسيلتي التي استطيع ان أعرف بها اللحظة التي يقرر الهروب بها والتي يحاول ان يخفيها علي وعلى غيري ما استطاع ، وهي ان أتحرى الساعة التي سيحضر فيها ذلوله من الفلاة الى البلاد وعند ذلك اكون على اتم الاستعداد للمواظبة ومباغتته في الوقت المناسب ، وبقدر ما كان والدي يحاول ما استطاع ان يخفي عني مجيء ذلوله واللحظة التي يهرب بها بقدر ما كنت شديد الحرص على ان لا اترك فرصة تمكن والدي من اخفائه لهذه الحقيقة .ولشد ما ازددت سروراً واطمئناناً عندما رأيت ذلول والدي جاء بها رفيقه الشاب وأدخلها وذلوله بعد العشاء خلسة في مكان خفي قريب من منزلنا .. لقد ظللت تلك الليلة سادراً بين الفرحة وبين الرهبة .. فرحة تداعب أمانيي واحلامي بتحقيق ما كنت اصبو اليه منذ أن بلغت سن التمييز ورهبة تنذرني بشيء من التشاؤم فيما إذا أصر والدي على عدم ذهابي معه .. وعلى أية حال فقد كان الحبور بتفاؤلي يغمر كياني اكثر بكثير من تشاؤمي ويأسي .

لم يتسلل الى عيني الرقاد في تلك الليلة التي رأيت بها ذلول والدي قرب منزلنا ولقد شعرت ان عدوي اللدود الذي سوف يحاول ان يفلت هذة الفرصة من يدي هو النوم ، ولذلك قطعت السبيل كلية على هذا العدو الغادر وأوصدت الباب في وجهه بقوة وحزم كلما جاء خلسة ليغدر بي .. ومن حسن الحظ أن الفصل كان صيفاً الأمر الذي جعل صراعي مع عدوي الذي هو أوسع مني حيلة وأقوى بأساً وأقدر مني على أساليب الاغواء والاغراء لم يطل مداه، وقد كنت أشعر ان ثواني ذلك الليل الصيفي القصير تمر علي ببطء ثقيل لا كساعات ولا كأيام بل كأشهر

أو كالسنة .يا لله الحمد على الفرج عندما رأيت والدي يمشي الهوينا تتبعه زوجته التي تقدم له امتعة السفر وعلى مدخل الباب الخارجي رفيق والدي الشاب الذي جاء بالذلولين واناخهما بحركة خفيفة -- وبسرية كاملة .. في هذه اللحظة لم يسعني إلا أن اوهم الهاربين بأنني غارق بالنوم ولذلك ظللت افتعل : الشخير : حتى ايقنت أن جميع الامتعة اللازمة للسفر قد وضعت على متن الراحلة ولم يبق إلا اللحظة الاخيرة التي كان والدي يوادع بها زوجه .. عندئذ قفزت من مضجعي واقبلت نحو مؤخرة الراحلة وامتطيتها .

لقد شعرت أن والدي ذهل من عمليتي هذه إلا انه لم يستعمل معي العنف رحمة الله عليه ، بل ذهب يحاول أن يقنعني بالعدول عن رأيي بكل لطف وبصوت منخفض هادىء ، ولكن محاولاته كلها باءت بالفشل امام اصراري وعنادي في تحقيق الامنية التي اعتقد انها فرصة لا تعوض بالنسبة لتحقيق احلامي المعسولة .. وحينما رأى والدي أن محاولته اقناعي باللطف واللين لا تجدى ، سحبني من ذلوله وطرحني ارضاً ثم امتطى راحلته وركلها برجله وولت تجري بسرعة .. وقد مثل رفيقه الشاب نفس الدور وقد ظن والدي انه تخلص مني ولكن ظنه جاء بغير محله وذلك انه عندما طرحني ارضاً قفزت مسرعا وتمسكت بأهداب الخرج و(السفيفة)[1] معاً ولم يكن بامكاني اللحاق بتلك الذلول السريعة الجري فيما لو لم أكن متمسكاً بالاهداب التي اعانتني كثيراً على مباراة الهاربين .. وذلك أنه بقدر ما تجري الذلول بسرعة كانت تساعدني بجريها هذا بحكم تمسكي بتلك الاهداب المتصلة بحمولتها .. ظلت الذلول تجري بشدة حسب رغبة راكبها حتى تجاوزنا سور البلاد المهدم وتوسطنا من الجانب الأيمن من مقابر أهل البلاد من الناحية الشمالية وعند ذلك استدنى الراكب رسن الذلول وخفف من جريها السابق حتى ظلت تسير سيراً طبيعياً . وكم بلغ الغضب بوالدي عندما شعر انني لازلت ملازما له عندئذ

---

١ - السفيفة ذات اهداب ستة كأهداب الخرج تستعمل للزينة فقط .

اناخ راحلته ونزل بي ضربا بعصا الخيزران ، ولكنه سمح لي بالركوب رديفـا له بعدما اتبع ضربه كثيراً من الشتائم وختم شتائمه بتلك الدعوة الصارمة حيث قال: (أسأل الله أن يبتليك بسفرتك هذه بما يحقق الشيء لذي كنت اخشى عليك من مواجهتك اياه) .

لم اكترث بشتائمه ودعائه بل ولم اشعر حتى بضرباته ، التي لم أذكر قط أنـه ضربني بحياته قبل تلك الحادثة ولا بعدها .. وكان جل همي ومنتهى امنيتي هو أن اخرج من اولئك القوم .. لكي التمس سبيلاً اختـاره لنفسي حتى ولو كان سبيلاً قاسياً وعراً فأنني اجد فيه لذة وسعادة ما دمت مقدما عليه عن رغبة وارادة حرة لم يفرضها علي اقرب قريب حتى ولو كان والدي .

كان خروجنا من البلاد بعد أن ذهب من ليل الصيف الجميل ثلاثة ارباعه وقد انبلج نور الفجر الاول ونحن على مقربة من قرية (النيصة) المجاورة لمدينة حائل من الناحية الشمالية وما أن بزغت الشمس حتى تعدينا معالم البلاد .

كأن على رأس والدي ورفيقه الطير لم يتحدثا في مسيرهما هـــذا واعتقد أن السبب لذلــك يعود إلى فارق السن بينهما بصورة ادركت بها أنه لم يكن بينهما تجاوب بالفكر والتجارب فبينما كان والدي في نهاية العقد الرابع من عمره كان رفيقه لم يتجاوز العقد الثاني فيما يخيل الي ..

وفجأة انحرف والدي نحو الشاب موجهاً اليه السؤال التالي :

ـ ماذا يقول الشاعر ابو زويد ؟..

ـ أجابه المسؤول (لا أدري) .

اتجه والدي ثانية نحو رفيقه ثم قال إلا تعلم ما قصد ابو زويد حينما قال :

(اختار لك من عوص الأنضا زماله

حمراء تورد بك إلى صنقر اللال

خَلّهُ مع الديان تمشي لحـــاله
لا عاد ما أنت للمسة الخشم حمال)

البيتان سبق أن اشرت اليهما في كتابي (لمحات عن التطور الفكري في جزيرة العرب في القرن العشرين) ص ٥٢ كما انني شرحت معناهما .. ولا بد من شرحها هنا باختصار للقارىء الذي لا يعرف معاني شعرنا الشعبي .. إلا بعد شرحه .

يقول الشاعر : (إذا كنت رجلاً أبي النفس ولديك من الشمم وشموخ الانف ما يجعلك لا تتحمل الضيم والاهانة ، فما عليك إلا أن تشتري ذلولا من الابــــل النجائب التي تمكنك من الهرب عن مواطن الذل والهوان) .

لا أستطيع أن اوكد بأنني كنت ادرك معنى هـذين البيتين وقتـذاك وأن كنت مغرماً بالشعر واهواه منذ حداثة سني .. ولكنني حفظتهما لأنني قد سمعت القصيدة كاملة من كثير من الرواة لأن قصيدة (أبو زوّيد) هذه مشهورة عنـد الشعبيين بصورة عامة .. عندما انتهى والدي من القائه هـذين البيتين رفع العصا وهوى بها على رقبة ذلوله ثم رفسها برجله فذهبت تخب خبيبا مسرعاً ..

لا أذكـر كيف قضينا وقت القيلولة وتناول وجبة الغداء وذلك لطول العهد ولكن الذي أذكره جيداً هو ذلك السرور الذي غمر كياني بالرغم من انني عندما اتخيل وضعي وقتذاك اجدني في وضع يدعو إلى الرثاء .. فالذلول التي طرت فرحا عندما تيسر لي ركوبها رديفـــا لوالدي لم يكن بين بشرتي وبين شعرها الخشن ما يصح ان يكون وقاية ارتاح لها ولو بشكل مسكن ، والفراش الذي اضطجع عليه عندما نحط عن الراحلة ونلجأ إلى الراحة والنوم لا أملك منه أي شيء يذكر والحذاء الذي اتوقى به اشوك الصحراء ورمضاء النفود لا تستطيع يدي أن تناله ولا بشق الأنفس ، ولكنني مع هذا كله أجدني اشعر بحبور ولذة لاحد لها ولا نهاية ، ولكن هذا السرور وتلك اللذة لم يمتد اجلهما اكثر من ساعات محـــدودة تزيد على العشرين وتنقص عن الثلاثين .

وهانحن الآن قد وصلنا (النفود) تلك الأرض الرملية التي تشبه بحمرتها الذهب الصافي النقي تحيط بها من نفس تربتها تلال شامخات وهاهي الشمس التي كانت تصلينا بأشعتها الحامية قد خفت حدتها وبدأت تسير رويدا نحو الجانب الأيسر منا قاصدة مخبأها لتفاجئنا في أصيل الغد من الجانب الايمن .. وهذه بيوت فخذ من بادية قبيلة شمر يقال لهم (السويد) وبجانبهم فخذ آخر يقال لهم (الشلقان) وكل من الفخذين يقيمان في موقع يقال له (السانية) وفي هذا الموقع المنخفض آبار تحيط بها من الجانب الغربي والجنوبي تلك التلال الرملية الذهبية .. وتمد بيوت البادية من مسافة قريبة من الآبار الى ابعد بيت من بيوتهم الواقعة في الجانب الشرقي ..

كان جميع هؤلاء البدو من المتعصبين إلى ابعد حدود التعصب للعقيدة التي رسخت في قلوبهم في تلك الايام .. وفلسفة هذه العقيدة توحي في بداية الامر أن كل من لم يسر في ركابهم وينطوي تحت راية المغفور له الملك عبد العزيز فهو كافر ، ومن يقتله يدخل الجنة وأن قتله الكافر فهو في الجنة .. وأن يكن لهذه العقيدة شيء من المحاسن فأنما هو توحيد هذه الجزيرة ، ولكن اهلها بحكم جهلها وأميتهم اسرفوا بغلوهم بهذه العقيدة ، حتى أن قادتهم في آخر الامر تمردوا على السلطة وتحدوا القوانين معتبرين أن كل من لا يذعن لهم ومن لا يدخل في حظيرتهم فأنه كافر يحل دمه وماله ، ولولا أن الملك عبد العزيز قضى على دابرهم في معركة حاسمة لاصبحت البلاد تحت سيطرتهم بصورة لا يعلم مداها ونتائجها الا الله .

أنني عندما أذكر شيئاً من واقع امر هؤلاء القوم الذين سوف نظل ضيوفاً لهم..وذلك من اجل ان لا يستغرب القاريء ما يطلع عليه من الاسلوب التقليدي الذي عاملنا به مضيفونا – الكرام .

وها نحن الآن قد وصلنا منازل الحي وبدأ والدي يسأل أحد المارة عن اسماء الاشخاص البارزين فأجابه المسؤول بسرد اعيان القوم ، وكان من بين هؤلاء

الاعيان شخص يدعى « شاهر بن عبيّان » من عشيرة الشلقان ، وكان هذا الشخص صديقاً لوالدي ، ولكن تلك الصداقة كانت في عهد « الجاهلية » على حد التعبير المصطلح عليه ، والمقصود بعهد الجاهلية يعني هو عهد ما قبل نشوء الفكرة التي آمن بها هؤلاء البدو فكل ما سبق تلك الفترة بنظر هذه الفئة يعتبر عهداً جاهلياً أي عهد كفر وضلال ، وقد شخص والدي ورفيقه نحو بيت صاحبه القديم وهي صداقة قد لا يعتمد عليها بحكم الانقلاب الفكري الذي بدل المفاهيم رأساً على عقب ، وجعل الصديق ينكر صديقه ، والأخ يعادي أخاه ، ولكن هذا الصديق على أية حال كان أرأف وأرحم من أي واحد من رفاقه، بل عبر انه صديق وفي، عندما دعت الحاجة الماسة لنجدته .. انخنا الراحلتين أمام بيت شاهر ، فقابلنا رجل ناحل الجسم يعلو بشرته شقرة كستها طبيعة الصحراء سمرة ويبرز بين الشقرة والسمرة وجه يشعرك صاحبه لأول وهلة بالهيبة والوقار . لقد قابلنا الرجل مقابلة طبيعية لا كلفة فيها وكان مجيئنا في آخر لحظة من ادبار النهار وأول ساعة من اقبال الليل .. وما هي الا ساعات حتى حضر عدد لا بأس به من اولئك الرجال الصلبين ، شاحبي الوجوه ويبدو على محيا كل فرد منهم قوة البأس والهيبة المرعبة ، وكان يعلو رأس كل فرد منهم عمامة بيضاء عبارة عن قماش ابيض كعلامة فارقة لمن يشاركهم ايمانهم بعقيدتهم التي يتفانون حتى الموت في سبيلها . وكان والدي قد وضع عمامة من نوع عمائمهم التقليدية ولكن عمامته لم تنطل على « صبيان التوحيد واخوان من اطاع الله » . هذه النعوت يسمون بها انفسهم ، الأمر الذى جعلهم ينظرون لوالدى بأعين يتطاير منها الشرار والشر ، وبعد ان احتسينا القهوة في بيت مضيفنا ومضى الربع الاول من الليل هناك قدم لنا مضيفنا طبقاً مليئاً من الأرز يعلوه كبش سمين فدنونا منه بشهية ولم يشاركنا نحن الثلاثة أحد في تلك المائدة اللذيذة اللهم إلا بعدما أخذنا منها النصيب الوافر وما كدنا ننصرف من تلك المائدة الشهية حتى أشار مضيفنا الى جيرانه وبني عشيرته فجثم على تلك الجفنة المليئة بالخيرات أولئك القوم القساة الذين لم تأخذهم بها رأفة ولا رحمة وكانوا يلتهمون اللحم بنهم وكل لقمة يتناولها أحدهم يجب أن يتبعها حمداً

وشكراً لله .. وهذه الطريقة في الأكل جزء من عاداتهم وهكذا لا تنقطع حمدلتهم هذه حتى يقوموا ولن يقوموا حتى يشبعوا ولم يشبعوا الا بشق الأنفس .

كانت تلك القصعة الدسمة منيعة الجانب لذلك ما استطاع اعداؤها ان يقضوا على دابرها القضاء المبرم بالرغم من انهم لم يدخروا من مقاومتها بكل قسوة وعنف وسيلة الا اتخذوها ولكن كما ورد بالمثل الشعبي عندنا القائل (الكثرة غلبت الشجاعة) كانت مائدة مضيفنا امنع من أن يبيدها اولئك الشجعان : وبعدما يئسوا من ابادة خصمهم العنيد استسلموا للهزيمة وتركوا منزل مضيفهم يتجاوبون بالتجشؤ والحمد والشكر معا ..

يا لله ما الذ ليالي الصيف في الصحراء خاصة فوق تلك الارض الرملية اللينة النقية وقد نمت تلك الليلة نوما لذيذا عميقاً لا اذكر انني شعرت بلذة النوم كشعوري بلذته في تلك الليلة ولا عجب فقد كنت ساهراً ليلتي الماضية بكاملها الامر الذي جعلني اخلد لذلك السبات العميق الذي لم افق منه الا عندما ايقظني والدي بعد مطلع الشمس حيث وجدت والدي ورفيقه على اهبة السفر لمواصلة الرحلة .

وقد انتظرنا في بيت مضيفنا بعدما صحوت من النوم فترة لا تقل عن الساعة كان والدي ومضيفه يتداولان خلالها حديثاً فهمت منه ان أبي صارح مضيفه بالحقيقة التي لم يصارح بها أو يعلم عنها أحداً ما عدا رفيقه الذي يشاركه الرحلة.. لقد اعلن والدي لمضيفه انه يقصد العراق وانه بحاجة الى رجل يدله من بداية الحدود العراقية أما من الحدود المحلية وما دون فقد فهمت ان والدي يعرف أرضها جيداً .. وقد كان والدي يشيع أمام أولئك البدو المتعصبين انه يقصد موقعاً يسمى (الحزل) من أجل ان يأتي بابل له قد أودعها عند أحد رجال البدو المقيمين هناك، والحزل هذا بئر يقع في آخر الحدود الشمالية التابعة للملك عبدالعزيز آل سعود والمتاخمة للحدود العراقية .

ولا يسع والدي إلا أن يخفي حقيقة أمره لأن السفر الى العراق في ذلك العهد في نظر هؤلاء البدو المتدينـين يعتبر من أعظم الأدلة على ردة وفجور المرء الذي يحدث نفسه بالذهاب الى بلاد « الكفر والشرك » ومـــا دام أن من لم ينضم الى زمرتهم يعتـــبر كافراً حتى ولو كان من نفس بلادهم بل ولو كان من صميم أهلهم الأقربين إذن فما بالك بمن يكون خارجاً عن دائرة حدود أرضهم ..

هذا وقد بدا لي ان الحديث الذي يدور الآن بين والدي ومضيفه لم يكن وليد ساعته وانما كان امتداداً لحديث سابق كما فهمت أن مضيفنا قد وجد الرجـل الذي يتولى القيام بمهمة الدلالة مقابل اجرة قدرها جنيه ذهب انجليزي وانما كان الحديث يدور حول مجيء هذا الرجل ، وعن وقته المحدد ، وقد تم الاتفاق بين والـدي ومضيفه بأن يذهب والدي في طريقه على ان يتعهد مضيفنا (شاهر) بالحاقه بالدليل بعد لحظات ، وافق والدي على رأى مضيفه ومن فورهما توادعا وركب والدى ورفيقه راحلتيهما كما ركبت رديفا لأبي وبعد ان ابتعدنا عن منازل القوم مسافة (كيلومتر) على وجه التحديد ، انحرف والدي نحو الجنوب لينظر الى الرجل الدليل هل لحق بنا ؟.. كما كنا نظن ونتوقع ولكن سرعان ما تبدد ظننا وتحولت خطة سفرنا رأسا على عقب وذلك حينما اندار والدى نحو رفيقه بكل هدوء وقال : لقد لحقنا هؤلاء البدو ولا اعتقد الا انهم ينوون بنا سوءاً . اجابـــه الفتى بجملة اشار فيها بالهروب ، ولكن والدى لم يؤيده بالرأي ، ثم طلب الفتى ثانيـة من والدي ان يقاوم فأجابه قائلاً : كم كنت أتمنى أن بين يدي بندقية اقاوم بها هؤلاء المعتدين ، ثم أردف قائلاً لو أملك شيئاً من ذلك لما استطاع أن يدنو مني واحد منهم مـــا دمت على قيد الحياة . وما دمت لا أملك من وسائل المقاومة ما يعزيني فلا يسعني إلا الاستسلام لقضاء الله وقدره ، وبعدما كنا متجهين نحو الشمال ذهبنا وتحولنا نحو الجنوب لمقابلة ضيوفنا القادمين الثقلاء ، وما هي إلا لحظات حتى طوقونا وأحاطوا بنا من جميع الجهات . أناخ والدي ورفيقه ذلوليهما واتجهـا نحو الضيوف فسألهم والدي : عما يريدون من وراء عملهم هذا فتولى الجواب عنهم شخص كأنني أراه

لا يختلف بهيئتـه وسحنته عن سحنة البدوي الاصيل . رجـل ضخم الجسم أشقر البشرة شقرة ممزوجة بصفرة لا يوصف بالطول ولا بالقصر أو هو الى القصر اقرب واثن نسيت اسمه الكامل فأنني لم آنس كنيته فالرجل يكنى بـ (المروقي) وقد فهمت فيما بعد أن هذه الكنية شاملة لاسرة من عشيرة الشلقان المتفرعة من قبيلة شمر كأنني أرى ذلك الرجل الثقيل نصب عيني الآن . ولا عجب فقد شاهدت منه ذعرا لم أر له مثيلًا في حياتي وارجو الا أرى مثله . كنت اتخيل في بـــداية الامر أن (المروقي) هو رئيس اولئك العرب او على الاقل الرجل الثاني في الزعامة ولكن سرعان ما أدركت أن رئيس هؤلاء رجل يكنى (بالهربيد) وأن (المروقي) لم يكن له بين اولئك القوم اية مكانة يمتاز بها عن أي واحد من العامــــة فضلا عن الخاصة اللهم الا وقاحته وحقده الدفين المزمن على والدي بصورة خاصة .. وقـد ثبت من اسلوبه في الجدال انه يريد أن يثأر لنفسه بسبب اهانة لحقت به من والدي حسب ما يبدو من الجدال الحاد الذي دار بينه وبين والدي كما يلي :

عندما سأل والدي القوم عما يريدون من وراء عملهم هذا تولى الجواب المروقي بقوله : نريد أن نتقرب الى الله بدمك يا عدو الله .. ثم أردف قائــلًا : ألست فـــلانا ؟؟

– بلى هو على الخير والشر ..

– لماذا تهرب من بلاد الاسلام ..

– لست هارباً.

– بلى انت هارب من بلاد المسلمين وتريد أن تـذهب (للشنيف) [1] فيصل الكافر ..

---

١ – المقصود بكلمة (الشنيف) اي شوال التبن الغاية من ذلك تحقير الشريف فيصل.

ـ لا أنا اقصد (الجزل) فقط .

ـ نحن نعرف ماذا تقصد وأين تريد ؟

ولذلك سوف تنال منا الجزاء الذي تستحقه اللهم الا أن يكون معك (فسح) [1] من الامام عبد العزيز فان يكن في يديك شيء من ذلك ابرزه لنا والا سوف نؤدب بك كل ضال من امثالك ..

ـ انا اولاً لست ذاهباً للعراق حتى احمل (فسحا) .

ـ ثانياً حتى لو كان (الفسح) في يدي لما قدمته لك لأنك لست من الرجال المسؤولين .

ـ الا تعلم من انا أنسيتني يا عدو الله ؟.. أنسيت ما نالني منك من ضرب واهانة ..

ـ بلى اعرف انك فلان .. (الفحام) ، واذكر انني أدبتك من اجل جريمة الاختلاس التي ارتكبتها .

ـ احمد الله واشكره الذي نصر الاسلام واهله وبدل عهد الكافرين الطغاة الظالمين بعهد المسلمين المؤمنين وجاء بك بين يدي أيها الفاجر لانتقم منك الانتقام الذي سوف تلاقي به حتفك اليوم جزاء لما عاملتني به أبان عهد الظالمين الكفرة ..

ـ أنا لا الومك يا المروقي فيما اذا نلت من ذلك العهد لأنك اعجز من ان يكون لك صفة من صفات الرجولة التي تؤهل صاحبها منزلة محترمة بين اولئك

---

١ ـ الفسح : ورقة فيها اذن من الملك عبد العزيز تقوم مقام الجواز لمن يشاء ان يتجاوز الحدود .

الرجال والدليل على ذلك هو انك بذلك العهد كنت فحاما ..وجوابي على الجملة التي اشرت اليها بانك سوف تثأر مني واني سوف الاقي الموت على يدك: اولاً أنني عندما أدبتك لم افعل ذلك بدافع الانتقام او اخذ الثأر كما تريد أن تفعله معي اليوم .. وانما ادبتك من اجل جريمة السرقة التي اختلستها والتي لا تستطيع انكارها لان عشيرتك كلها تعرف عنك تلك الجريمة النكراء .

أما الموت الذي تهددني به فإنني أراه منة رحمني الله بها وشرفاً وهبني اياه الباريء لكونه يعلم تعالى ما يختلج في نفسي من تفضيل الموت الف مرة على الحياة في الزمان الذي اصبح لك به وامثالك صولة وجولة ..

وبعدما تكلم والدي بهذه الجملة قفز المروقي كالمذعور هاجماً على ضيفه الاعزل كما قفز جماعة من رفاقه يشاركونه النية نفسها وعندما دنوا منه واصبحت عملية التنفيذ قاب قوسين أو أدنى .. هناك وقع الخلاف العنيف بين الفرسان الاشاوس وقد بدأ لي للوهلة الاولى ان مصدر هذا الخلاف بين هؤلاء الشجعان ناشيء عن كون فريق منهم يقصد قتل والدي ، وفريق آخر يرى انه ليس من الشيمة العربية ان يقتل رجل كان في الليلة الماضي ضيفاً عند أحد رجالهم .. كما انه لا زال قريباً من منزل مضيفه .. يضاف الى ذلك انه أسير أعزل لا يملك أدنى شيء من مقومات الدفاع عن النفس .. والعادات العربية الأصيلة تتنافى كل التنافي مع قتل العدو فيما إذا كان اعزل لا حول له ولا قوة .. ومما زادني تمادياً في ظنوني الوهمية الطفولية هو ما بدا لي من منظر والدي ذلك الرجل الفارع الطول ، النحيل الجسم ، الذي كان واقفاً كالتمثال التذكاري لا يهتز له عضو ولا ترمش له عين ، فكأنه بوقفته التي يعلوها شيء من السخرية والصلابة يمثل انساناً ينظر بازدراء الى اولئك الاعراب القساة ، كما ينظر أي واحد منا الى فريق من اولئك المشعوذين الذين يقومون بألعاب بهلوانية بغية الترفيه والتسلية . لا موقف رجل أسير بين يدي رجال جفاة غلاظ يتنافسون على قتله ويتسابقون الى ضرب عنقه .

وهكذا ادركت انني خاطيء في ظني السابق وذلك عندما بدا لي بوضوح بأن

ما كنت أتوهم انه خلاف بين الفريقين . إنما هو تنافس فيما بينهم على قتل الضحية فكل من المتنافسين يريد ان يكون هو الاول بضرب عنق الكافر .. اعتقاداً منهم ان من يكون له أفضلية السباق بقتله لكافر ما، فإنه يكون ايضاً من السابقين الأولين بالأجر والثواب ، ودخول جنة الفردوس التي سوف تكون بها نسبة الحور العين الحسان القاصرات الطرف . متوقفة على نسبة ما يقتله من الكفرة المشركين ، فإذا كان (المروقي) حريصاً على قتل عدوه بحافز الحقد وأخذ الثأر ، فإن هناك من هو أحرص منه لا بدافع كدافع المروقي العدائي وإنما بدافع يعتبره معتنقوه بأنه الجهاد المقدس والتقرب الى الله زلفى بدم الكافر الخارج عن حدود الاسلام

وقد بدأ ادراكي لهذه الظاهرة محسوساً عندما اقبل والدي على المتنافسين بخطى وئيدة وثابتة ، موجهاً كلمته التي يبدو لي انه يعتقد انها الاخيرة قائلاً: اسمع يا المروقي انني كما سبق ان قلت لن احزن على الحياة في الوقت الذي جعلك وامثالك اصحاب سلطة ونفوذ . وها أنذا سوف ألاقي الموت مطمئناً غير آسف ، انما الشيء الذي لا أرى مبرراً يدعو الى إيذائه هو هذا الطفل الذي (ينجس السلاح) مشيراً إلي بكفه الأيمن الذي عابته اصابة رصاصة قديمة .. كنت واقفاً مذهولاً شارد الذهن انظر الى والدي متى يضرب عنقه أحد هؤلاء الشجعان ، كما كان رفيقنا الشاب يشاركني نفس الذهول ، إلا انني أراه فيما يخيل الي انه يزيد عليّ ذهولاً من خوفه ان يكون مصيره القتل كصاحبه ولقد بدا لي وجه ذلك الشاب الأمرد النحيل الجسم ذو البشرة الصفراء التي يعلوها شيء من البياض كأنه جسد محنط لا روح فيه ..

لم يتخلل الى قلبي الخوف من أن يقتلني القوم ، لأنني لم أر أدنى دليل من أي واحد منهم يوحي بأية اشارة مما اخشاه — وذلك بحكم حداثة سني — ولا شك عندي ان اولئك الاعراب رغم ما فيهم من غلظة وعنف فانه لم ينو أي واحد منهم ان ينالني بأدنى أذى وقد اكد احدهم بل اعنفهم المدعو المروقي صحة حدسي هذا عندما اجاب والدي فقال : « لم افكر قط فيما سبق بقتل ابنك .. ولكن بعد

حديثك هذا الذي عبرت لنا به بأنك لا تأسف على الموت يا عدو الله بعهد الاسلام حزناً على عهد الكفرة الظالمين كما اتضح لنا ان حياة ابنك هي العزيزة لديك ... لهذا كله اقسم بالله انني لن اقتلك حتى ابدأ بقتل ابنك أولاً ، وبعدما أحز عنقه وأرمي برأسه بين يديك عند ذلك اجهز عليك لتموت حزيناً على ابنك ، ولتذهب الى جهنم وبئس المصير ..

الواقع انني مهما حاولت ان اصف الشعور الذي خالجني بعدما سمعت هذه الكلمات ومهما حاولت أن أحلل نفسيتي بصورة تنسجم وتلك اللحظة القصيرة التي لا تتعدى دقائق أو ثوان محدودة . فانني لم استطع ولن استطيع ذلك ، وكل ما اذكره هو انه تبدل شعوري ونظري اللذين كانا منصرفين الى الحوار الجاري بين والدي واولئك الأعراب الى ان وصل الامر الى ما وصل اليه من المصير المحتوم الذي اصبح يهدد حياة والدي ثم تطورت الحال الى ان شعرت ان حديث والدي مع أولئك القساة بشأن العفو عني كان السبب المباشر الذى صيرني الضحية الاولى لا محالة فكأنه حرضهم على قتلي ..

وكل ما استطيع التعبير عنه في تلك اللحظة الحاسمة هو انني اتجهت غرباً وأدرت ظهرى نحو القتلة الذين اصبحوا شرقاً مني منتظراً اللحظة التي يهوى بها المروقي بسيفه على عنقي .. ومن يكن في سن كسني الذى لا اذكر جيداً كم هو بحكم عدم تقييد النفوس عندنا وقتذاك ولكن الذى اعرفه انني بلغت الحلم في (سواكن) الميناء البحرية السودانية بعد هذه الرحلة بثلاثة اعوام .. ومن يكن ايضاً في ظرف حرج كالظرف الذي عانيته فانه ليس من السهولة ان يصف المرء في حالة كهذه ، ما يختلج في نفسه من احساس وشعور وما يدور حوله من تصرفات هوجاء يتولى تنفيذها جهال من الرعاع السوقة ..

* * *

لست ادري كيف نجوت من ذلك المصير ؟.. ولا أذكر كيف تخلى أولئك

السفاكون عن تنفيذ خطتهم الجهنمية .. لا أذكر شيئاً من ذلك في تلك اللحظة وانما الذي اذكره ساعتذاك هو انني سمعت ضجيجاً وصراخاً خلفي فلم ازدد إلا ذعراً ، ظاناً ان الفرسان يتنافسون على قتلي كما سبق ان تنافسوا على قتل والدى .
وبالرغم من أن الصراخ تبدل الى عراك والى لكز بالعصي بين القتلة ، وبالرغم أيضاً من ان اصواتهم اصبحت اسمعها بعيدة عنا بعد ان كانت تحيط بنا عن كثب .
رغم هذا كله فانني لم اتصور إلا أن خلافهم هذا ليس إلا من نوع خلافهم سالف الذكر .. وكل الذى يدور في ذهني واناجي به نفسي لا يخرج عن نطاق واحد وهو معرفة بماذا سيتم قتلي ؟.. فهل يكون بالسيف ؟.. أم بالبارود ؟ واذا كان بالسيف هل يمكن ان يكون سيف البدوى مسنوناً ماضياً يقضي عليّ فوراً ؟ ؟ أم انـــه داثر غير مسنون وبدلاً من أن ألاقي الموت بلحظة وجيزة . أظل أتجرع سكراته ساعات طوالاً ؟؟.. هذا خلاصة مايدور في مخيلتي ومـا يختلج في ذهني من احاديث النفس ووساوس العقل .

أما انني اتوقع أو اظن أو اتأمل أو يطرأ على ذهني ولو مجرد امنية عابرة بأنني سوف اعيش بعدما رأت عيني منظر اولئك القتلة السفاكين يتنافسون على ضرب عنق والدى وبعدما سمعت اثقلهم ظلاً وأشرسهم خلقاً وأوقحهم لفظاً واحقدهم قلباً يقسم بأن يبادر أولاً الى ضرب عنقي نكاية بوالدى قبل ان يقتل أبي .. أبعد ذلك يمكن أن اتصور ساعة الفرج التي جاءت بدون ان احلم بهـا على يد ذلك الرجل الكريم الشهم مضيفنا (شاهر بن عبيان) ...

كان مجيء (شاهر) ومفرزة من بني عمه الأقربين رحمة نزلت علينا من السماء وكان الضجيج الذي كنت اسمعه خلافاً لما كنت أتخيله وانما كان شقاقـاً بين السفاكين حول الغنيمة وذلك ان القراصنة منذ ان طوقونا وأصبحنا أسرى بأيديهم قد انقسموا الى قسمين : قسم كان همه قتلنا على النهج السالف الذكر ، وهؤلاء البـــارز بينهم المروقي الذي كان مدفوعاً بحوافز الحقد والثأر اكثر من رفاقه المدفوعين بدافـع الرغبة بالأجر والثواب من البارىء بقتلهم اعدو الله ورسوله .. أما القسم الثاني فقد

كان أذكى من اولئك أو بصورة أوضع كانوا صرحاء بكشف ما تخبئه انفسهم التي أدت بهم الى اللحاق بنا فهؤلاء منــــذ أن أمرونا ذهبوا يتقاسمون أسلاب والدى ورفيقه فكل جاءه من تلك الاسلاب نصيب ، والذى لم ينله شيء أشركه أحـد الغزاة بشيء من المكسب .. وقد تقاسموا جميـع الغنيمة في الحين الذى كان القسم الاول مشغولاً بين التشفي من والدى وبين التنافس على قتل الضحيـة .. ولحسن حظنا هو ان الفريق الذكي لم يستمر بعمليته التي سار عليها بتقاسمهم للغنيمـة بهدوء صامت الى المرحلة النهائية . ذلك انه جاء في الوسط غنيمة مغرية دسمة افقـــدتهم هدوءهم المختلق وجعلت بعضهم يصطـــدم ببعض فعلا ضجيجهم بصورة لفتت نظر الفريق الذى كان همه القضاء علينا أولاً وقبل كل شيء ، فعندئذ استيقظ القتلة من غفلتهم وشعروا انهم اخطأوا باقدامهم على ذبح الضحية التي لا تعدو ان تكون وسيلة الى كسب الغنيمة التي تعتبر هي الغاية الاساسية في حقيقة نواياهم الخفية الأصيلة ومن التوفيق انهم ادركوا اخطاءهم قبل تنفيـذهم الاعدام بضحيتهم البائسة بثوان معدودة . ففي تلك اللحظة الصارمة السوداء بالنسبة لكاتب هذه الاسطر بصورة خاصة . استيقظ السفاكون من سباتهم وذهبوا نحو الفريق الذكي الذى اعتـبر أن الأصل في هذه الغزوة هو ما وقع بين يديه من الكسب فوجد هذا الفريق على وشك ان يقتل بعضهم بعضاً من أجل الغنيمة الثمينـة التي لا يعادل قيمتها جميـع الاسلاب المذكورة .الا وهي راحلة والدى تلك الذلول (البكرة) الأصيلة فهذه الراحلة المباركة هي التي كانت سبباً لنجاتنا وذلك ان الخصام بين رجـال الفريق الاول وقع بسبب طمع كل فرد منهم بامتلاكها . وعندمـا بلغت خصومتهم من الصراخ والضجيج الحد الذى سمعه القتلة هناك هرع هؤلاء تاركين (الأجر والثواب وجنة الفردوس التي كانوا يتنافسون على قتلنا في سبيلهـا) واتجهوا نحو المتخاصمين لا ليقوموا باصلاح ذات البين ولكن ليطالبوا الجميع بحصة الاسد من الغنيمة الدسمة وخاصة الذلول التي هي الكل في الكل ،وفي هذه اللحظة التي أخلى بها سبيلنا أولئك الزبانية .دنا منا مضيفنا وأحاطنا بسور من رجاله وأهله الاقربين ،وسار بنا الى منزله الذى غادرناه من قليل، يتقدمنا ثلة من بني عمه الادنين ويحيط بنا من الخلف عدد

من نوع الاولين ويحرسنا من اليمين مفرزة من هذا النمط ويحمينا من الشمال فئة اخرى من نفس الطراز .. لقد كنا نسير في وسطهم في خطى ثابتة وئيدة ، ولئن فوجئت بموجة من الذهول في تلك اللحظة التي بركت بها القرفصاء ، خائر القوى، غائر الدم ، ميت الاحساس ، لا أقول شارد الذهن بل فاقد الوعي،أصم الشعور، مشلول الفكر ، بصورة لا استطيع ان اذكر منها شيئاً سوى تلك الثواني التي انحصر فيها تفكيري في زاوية محدودة وهي هل يكون هشم هـــامتي بطلقة من البندقية الفظ بعدها انفاسي بسرعة لا انجرع بها سكرات الموت ؟ أم يكون حز عنقي بسيف البدوى الذى اعتقد انه لم يكن مصقولاً ماضياً ليريحني من التعزير ؟ الذى كنت أتوقع أن يعاملني به ذلك الغليظ الجفص (المروقي) ..أقول لئن أصابني من هول المشهد ما صيرني آلة صماء لا استطيع التعبير عن وصف ما حدث في تلك اللحظة بصورة عامة مفصلة ، ولا وصف شعورى بشكل خاص ، فإنني استطيع الآن أى بعدما أسعفنا مضيفنا ورجاله وأنقذنا من مصيرنا المحتوم أن أصف السعادة التي أحسست بها واعبر عن السرور الذى غمرني خلال تلك الفترة الهنيئة السارة التي تختلف كل الاختلاف عن الفترة الاولى وقبل أن أصف البهجة التي سوف أشير اليها عليّ أولاً ان أقول لئن كانت الكلمة المأثورة تقول : (الصحـــة تاج على رؤوس الأصحاء لا يعرفها إلا المرضى) .

فانني أؤكد هنا بان للحياة قيمة لا يعرفها من هم في حكم الاموات .. اجل لقد كنت يائساً من الحياة ، قانطا من أية نجدة تنقذني من ذلك المصير الرهيب ، ففي تلك اللحظة التي لا يستطيع ان يتصور مأساتها إلا من عاشها كما لا يستطيع من عاشها ووقع في محنتها أن يملك من الوعي والتفكير ما يمكنه من التعبير عنها . وفي غمرة تلك اللحظة الحالكة السواد أرى مضيفنا شاهراً سلاحه أمام فتية من رهطه الابطال ، المدججين بالسلاح يحيطون بنا ، كما اسلفت ، من كل جانب ، فأمد بصري نحو ذلك الشبح المخيف (أى المروقي ورفاقه) فأجده في وسط معركـة صاخبة الوطيس ، وفي قلب فتنة التهبت نيرانها بينه وبين انصاره ومؤيديه ، فهو يرى أن الحصة الثمينة يجب ان تكون غنيمة باردة له - لا يشركه فيها احد ..

ولحسن الحظ أن الاغلبية الساحقة من اللصوص لا تؤيده الرأى في طلبه الامر الذى جعلني انظر للمروقي عدونا الاول ذليلا مقهورا بين شركائه القتلة المعتدين .

فأرجع بصري كرة اخرى فاجدني بين هؤلاء البواسل تغمرني موجة عارمة من الحبور فاقارن بين تلك الثواني التي كان الموت مني بها قاب قوسين او ادنى ، وبين الدقائق التي شاهدت فيها رجال النجدة ، فأجدني في الأولى اشبه برجل القاه اعداؤه عارياً مكتوفاً في بئر غزيرة الماء ، مدلهمة سوداء مليئة بالحيات ، فان نجا من الغرق فلن ينجو من الافاعي التي دنت من جسده العارى . وبينما هو يائس قانط لايملك من امره الا القدر الذى يفكر به في كيفية نهايةحياته فهل يموت غريقاً ام لديغاً ؟ ام كلاهما معا ، ففي تلك الثواني التي كأنهاسنون جاء الفرج فجأة بدون ان يتوقعه ، أو يأمل حصوله .

وهكذا كان واقع امرى في احلك ساعات الظلام القاتم .. اشرقت الشمس فبددت الظلام بأشعتها البهية . وفي اعنف لحظات الشدة والضيق فتحت ابواب الفرج على مصراعيها بلا حد ولا قيد .. وفي اسوأ (الثواني) التعيسة المرة التي لم ار بحياتي قبلها ولا بعدها اشد امتحانا ولا اعظم هولا منها يباغتني السرور وتفاجئني السعادة التي لم اشاهد في حياتي حتى الآن نشوة سرور ولذة سعادة تعادل تلك السعادة او تضارع ذلك السرور الرائع .

ومن ثم امد بصري قليلا نحو والدي فأنظر الى ذلك الرجل ذى الوجه الاسمر الذي تعلوه صفرة قاتمة ، ولحية سوداء خفيفة ، يسير بمشيته العادية فكما انه لم يبد على محياه في تلك المحنة العصيبة اية علامة تشير الى الهوان والاستسلام .. فانه كذلك لم يبد على ملامح وجهه ايضاً أى دليل من ادلة البهجة والسعادة اللتين شعرت بهما وكما ابدى هدوءاً ورزانة بسيطرته على اعصابه بتحديه لعدوه (المروقي) ابان اللحظة التي كانت ارواحنا فيها على كف عفريت فإنه سيطر أيضاً على عقله الباطني

الذى يخفي سروراً واطمئناناً لا من أجل حبه لحياته التي اشعر شعوراً اكيـداً بأنه صادق في حديثه سالف الذكر الذي صارح به للروقي عندما قال بأن حياتـه ليست عزيزة عليه الخ .. وانما من اجل حياة فلذة كبده الذى اكـد له المعتدى الحاقد بأنه سوف يلقي برأسه بين يديه قبل ان يقضي على حياة الوالد .

وعندما ارجعت بصرى كرة اخرى اتأمل وجه ذلك الفتى ناصر رفيق والدى وجدت ذلك الوجه الذى تركته منذ دقائق غائر العينين مصفر الوجه، أجده الآن قد تبدلت عيناه الغائرتان بعينين يشع من مقلتيهما النور ويعلو وجهـه طيف من السرور ، وموجـة عارمة من البهجة والغبطة ، وعندما انظر الى حماتنا الابطال الاشاوس ، وعلى رأسهم رجل النجدة ومنقذ حياتنا « شاهر » أجد كل فرد منهم كأنه نمر يتهيأ للوثوب على فريسته .. ولشد ما تضاعف اطمئناني وتبددت جميـع مخاوفي عندما دخلت بيت مضيفنا ، ذلك البيت الاسود المحبوك حبكاً محلياً من شعر الغنم ، والقائم سقفه على عمودين ، وفي جانبه الأيمن النـادى الاهلي ، الذى يضم الوافدين من ضيوف وجيران ، وفي مقدمته موضع لأواني القهوة ، وعـلى الجانب الايسر موقع المحرم يحول بين نادى الرجال (ورفـة) المحرم حاجز متين من نفس نوع البيت ، لقد شعرت الآن شعوراً راسخـاً بأن أولئك اللصوص الغادرين اعجز من ان يدنو واحد منهم من عرين الاسد .

لم يقف مضيفنا به الحد عند صيانته لدمائنا ، بل انه بعدما ابلغنا مأمننا تركنا في قلب ذلك الحصن المنيـع ، وهب مسرعاً نحو الغزاة الذين لا زال الشقاق عامراً بينهم، من اجل الفوز بحصة الاسد، وأعني تلك الراحلة النجيبة التي سال لها لعاب (المروقي) حتى أنسته أخذ ثأره ، أو التقرب من الله زلفى بدم الكافر المشرك على حد زعمه ..

لم يظفر المروقي بعد بأخذ الذلول ولن يظفر لأن منافسيه عليها اقوى منـه سلطة،واكثر أعوانا وأقوى حزباً من أعوانه وحزبه ،ولكنه عظم عليه الأمر أن

يذعن ويستسلم للهزيمة والافلاس من اسلاب المهزومين وهو يعتبر نفسه رئيساً لاركان جيش هؤلاء الغزاة الذين اسروا العدو بينما غيره ممن لم يضارعه بموقفه الشديد من اعداء الله لم يفلس من الغنيمة كافلاسه ..

وعندما جاء بطل النجدة (شاهر) وبنو عمه الأقربون ليستخلص جميع مانهبه الغزاة من اسلابنا : كان المروقي اقل من غيره معارضة في مطالبة مضيفنا باعادة امتعتنا المنهوبة التي اصبح كل سلب منها مشتركا به اكثر من واحد منهم بحكم كثرتهم وقلة الغنيمة التي تنقص عن اشباع نهمهم جميعاً ، واعتقد أن السبب في كون المروقي كان اقل ممانعة من غيره في اعادة الاسلاب يعود الى عجزه عن أن يحظى بحصة الاسد بل وافلاسه من الفوز بادنى شيء من الغنيمة . لذلك لم يمانع في اعادة الغنيمة كاملة بما فيها الراحلة الى اهلها كتنفيذ لطلب رجل النجدة ،وتعزية له وستراً لعجزه عن اخذ الراحلة التي ايقن انه من المستحيل أن يظفر بها .وعلى أية حال فان خلاف الغزاة الذي كان السبب الرئيسي لنجاتنا من القتل كان عاملا رئيسياً اعان بطل نجدتنا على اخذ كل شيء نهبه اولئك الفرسان من امتعتنا وذلك بعد جدال عنيف كنا نسمع تفاصيله بحكم قربهم منا .. وكان ذلك الجدال الصاخب يدور بين مضيفنا وبين اللصوص الذين رفضوا في بداية الامر الرضوخ لطلب مضيفنا رجل النجدة محتجين بما يلي :

– أن حمايتك لهؤلاء الكفرة يا شاهر دليل حي يجعلنا في شك من أن لا يكون النفاق قد تسرب الى عقيدتك وان الحنين الى العهد الجاهلي واهله قد انبعث في كيانك من جديد .

– أود اولاً أن لا تقحموا موضوع الكفر والايمان والاخلاص والنفاق وما مضى في عهد الجاهلية وما نعيشه الان في عهد الاسلام في صميم الموضوع وذلك لان المشكلة التي نحن بصدد حلها خارجة عن هذه المواضيع وليس لها اية علاقة بذلك .

- لا لا ليس الامر كما يخيل اليك أن توهمنا فيه بل اننــا نؤكد انه بقدر ما دفعتنا غيرتنا الاسلامية على اللحاق بهذا الـكافر ورده مدحوراً عن خططه الذي ينوي تنفيذها وهو ذهابه الى بلاد الكفرة ، دفعتك حمايتك الجاهلية الى حمايتـــه والذود عنه .

- كنت أود أن نحل القضية بدون أن نخوض بهذا البحث .. اما الآن فلا بد لي من مناقشتكم بهذه الامور واحدة واحدة ..

اولاً - اذا كان الدافع الذي حفزكم على اللحاق بهؤلاء النفر دافع دين وابتغاءاً لمرضاة الله فما الذي يجعلكم تتقاتلون على اسلابهم ؟.. مع العلم أن هذه الاسلاب التي اغتنمتموها واستلمتموها لا يصح لأي واحد منكم استباحتها لانها ملك لبيت مال المسلمين بعدما يثبت الشارع صحة اكتسابها من الوجهة الشرعية ..

ثانياً - لم يكن الحافز الذي دفع شخصا من كبـــاركم (وهو المروقي) الا حافزاً شخصياً منبعثاً من حقد قديم من عهد الجاهلية أراد صاحبه أن يثأر لنفسه باسم الدين ، ودين الاسلام الذي نرفل بأمنه اليوم : يجب ما قبله من عهد الجاهلية ، ويأمرنا ان نكون طاهري القلب ، وان ننزع من افئدتنا جميع الاحقاد والضغائن التي ورثناها وعشناها في عهد الجاهلية الغابر .

- نعتقد انك لو تعلم أن عدو الله الذي نصبت نفسك مدافعا عنـــه يشرب (المخزى) [1] الذي وجدناه مخبأ في (خرجه) لما وقفت منه موقف المدافع .

- اعتقد انكم لم تنهبوا اسلابه وتحاولوا قتله بدافع من دوافع الدين لكونه

---

١ - يعني الدخان الذي وجدوه في امتعة والدي وكان يعتبر شاربه فاجرا لا تقبل له شهادة ولا يؤم الجماعة في تأدية الصلاة .. ويكفي دليلا على ذلك ان والدي كان يخفي شرب الدخان حتى عني .

يشرب (المخزى) ومن اوضح الادلة على ذلك هو انكم عقدتم العزيمة على تنفيذ عمليتكم هذه قبل أن يثبت لديكم انه يشرب المخزى وكما انكم فعلتم ذلك بدافع الحقد والطمع . فانني سوف احرص على حماية دمه، واعادة ماله ما دمت اشعر بعرق من عروقي ينبض بـه الدم ، بصفته ضيفاً بات ليلة في ضيافتي ، وبحكم أن الوفاء العربي والاسلامي يقتضيان بأن اكون مسؤولا عن صيانة دمه وماله .

ـ كل الادلة تفيد أن بينك وبين هذا الكافر الذي تدافع عنه بشدة وتفان رابطة وثيقة العرى منذ العهد الجاهلي ، ودليلنا على ذلك هو أن عـدو الله ورسوله عندما جاء قادما لم يختر أحدا من رجال الحي جميعاً لينزل بضيافته سواك ..

ـ لم يكن هو الاول من الضيوف الذين نزلوا في ضيافتي واختاروني عـلى غيري وهـذه حقيقة أناشدكم الله ان تفندوا قولي فيما اذا لم اكن محقا بمـا اشرت اليه .

صمت القوم جميعاً بدون أن يعترض احد منهم على ما تحداهم به ..

ثم استطرد مضيفنا وقال : انا لا انكر انني اعرف الرجل كمعرفة اكثركم له ليس إلا ...

ـ نحن نعرفه في عهد الجاهلية ونعتقد أنه مشرك كافر . لذلك لم نقف منه موقف المدافع كموقفك منه ، هذا الموقف الذي يدلنا بوضوح انك بقدر ما تبديه من حمية جاهلية لمناصرتك لهذا الكافر ، بقدر ما نتهمك بل نعتقد فيك بانـك لازلت متأثراً برواسب الجاهلية ومتمسكاً بعاداتها البالية التي نبذهـا الاسلام وحاربهـا .

ـ انا لا يهمني من ضيفي البارحة ومستجيري الآن ، أن يكون مؤمنـاً او كافراً ، وانما الذي يهمني أنه ضيف ، ومحمد عليه الصلاة والسلام ـ أمرنا باكرام

الضيف أياً كان بدون أن يميز بين الضيف المؤمن والضيف الكافر . ويهمني أن أجيره كمستجير بحماي ، وأن ادافع دون دمه . وحفظ مـــاله الى آخر نقطة من دمي ، وذلك عملا بالدين الاسلامي الذي قال دستوره في كتاب الله العزيز :

(وإن احد من المشركين استجارك فاجره ، حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه) .

« لم يكن بين اولئك الاعراب رجل واحد يحسن القراءة فضلا عن الكتابة بما فيهم بطل النجدة ـ أي مضيفنا . ولكن لا يخلو الأمر من أن يكون من بينهم من يحفظ شيئاً من آيات الذكر الحكيم . ولذلك كانت الآية التي استشهد بها بطل النجدة محفوظة في صدور بعض من كبارهم ، الامر الـــذي جعلهم يقفون مشدوهين من تأثير منطق الآية التي استشهد بهـا مضيفنا ، الا انهـم ارادوا ان يغالطوه فقالوا » :

معنى ذلك أنك تريد أن تجير هذا المشرك حتى تبلغه مأمنه الذي ينوى الذهاب اليه وهو بلاد الكفر والشرك في العراق .

ـ لا أنا لم اشر الى ذلك وإنما الذي اشير اليه هو انني مسئول أمام الله بنص الآية الشريفة عن حمايته حتى ابلغه مأمنه ـ أي البـــلاد التي جاء منها . (يعني امارة مدينة حائل) .

ـ لا نحن الذين نذهب به ونسلمه للامارة .

ـ ابداً لا أسلمه لكم ولا آمنكم على مستجيري .. بل انا الذي اذهب به حتى أسلمه للامارة .

ـ أتتعهد لنا انك سوف تكون مسؤولاً عنه حتى تستلمه الامارة .

ـ أجل سوف اتعهد لكم بذلك بعدما اثق انكم أعدتم اليه كل دقيقة وجليلة من اسلابه المنهوبة .

ـ انتظر قليلاً وعما قريب سوف يأتيك منا الجواب .

ـ ليس في القضية ما يدعو الى الانتظار .

ـ هناك اشياء من الامتعة لم تكن قريبة المنال .

ـ ولكن الذلولين موجودتان الآن فينبغي تسليمي اياهما الآن ..

ـ لا بأس بذلك .

« الحقيقة التي لاشك فيها عندي أن الشيء الذي جعل اولئك الاعراب الجفاة يذعنون للأمر الواقع ، ويتراجعون عما كانوا عليه من العناد والاصرار ، ليس إلا الخلاف الذي دب فيهم وجعل بعضهم يتنصل من بعض .. هذا من جهة ومن جهة اخرى تكاتف رهط بطل النجدة وتضامنهم في سبيل مطالبتهم بالحق يقابلهم من الجانب الثاني عدم استناد هؤلاء الى الحجة المبررة وتفكك صفوفهم واختلاف كلمتهم . »

لم يعد مضيفنا الى منزله إلا بالراحلتين . اما الامتعة فلم تمض مدة لا تزيد عن ثلاث ساعات حتى عاد كل شيء فقد منا الا شيء واحد وهو المدخان .

ولا بد لي هنا من الاشارة الى ذكر حادث له علاقة ماسة في صميم بحثنا هذا : كان من فضولي عندما كنت في البلاد أي في حائل أن ذهبت الى عجوز أرملة تكون أما لشاب هو وحيدها في الدنيا يدعى (صالح الجزاع الشعلان) وهذا الشاب قد هاجر للعراق بغية طلب العيش منذ سنة كاملة .. ذهبت اليها واخبرتها بأني سوف اذهب للعراق مؤكداً لها استعدادي لتأدية رسالتها فيما اذا كانت تنوي تحرير رسالة لابنها . فقد فعلت ذلك لأمرين أولاً انها اخت زوجة والدي ثانياً : كنت اشعر انها كثيرة البكاء

والنحيب على ابنها الذي لم تر منه ولم ير منها رسالة لبعد المواصلات : وقد لبث الثكلى طلبي الذي التقى ورغبتها الاكيدة على صعيد واحد فوضعت رسالتها في مخبأ ذلك القميص الذي لا أملك من حطام الدنيا سواه كما لم يكن في تلك المخبأة ما يزن جناح بعوضة غير تلك الرسالة الجوفاء .

وعندما طوقنا الغزاة وشعرت من فحوى الحديث الذي دار بين والدي وبين المروقي ، أن الأمر ليس طبيعياً ذهبت كأنني اقضي حاجة ما ، وفي ذهابي هذا دفنت الرسالة التي بعثتها أم الشاب سالف الذكر ، ولحسن الحظ انني لم امزقها ولو فعلت ذلك لثبتت تهمتنا باننا نحمل رسالة تتضمن تقارير سياسية خطيرة موجهة من الرجال الخطرين في البلاد الى الشريف فيصل بن الحسين .. يبدو أن رجال البادية بالرغم من اميتهم وانعزاليتهم لا يخلون من الذكاء الفطري وذلك انهم كانوا قد اعدوا للأمر عدته ووضعوا علينا رقابة وتعقبوا حركاتنا وسكناتنا بدقة وصمت ..

لم يخطر ببالي أن الرسالة التي دفنتها في الرمال بصورة خفية جلست بها القرفصاء وأدرت ظهري نحو الغزاة ووجهي غربا ونبشت الأرض اللينة الرملية التي لم يكلفني حفرها ادنى صعوبة بهدوء صامت ، وبعدما بذلت اوسع الحيل ، والتمست ابعد الأساليب في اخفائها،عدت الى ابي ورفيقه اللذين طوقهما الفرسان .. في اللحظة التي دار بين والدي ورئيس اركان الغزاة (المروقي) من الجدل الشيء الذي اشرت اليه آنفاً ..

اجل لم يخطر ببالي قطعياً أن يبلغ هؤلاء البدو درجة من الذكاء والمكر الى هذا الحد .حتى فاجأ والدي مضيفنا ملمحا بما أكد له أحد الغزاة انهم وجدوا رسالة موجهة للشريف فيصل وأن حامل الرسالة الذي هو والدي حاول بواسطة ابنه أن يطمرها تحت الأرض ولكن فطنة (صبيان التوحيد) وعيون (اخوان من اطاع الله) الساهرة لم تغفل عن دسائس اعداء الله . حقا لم يتبادر لذهن والدي الا أن

القضية كلها مختلقة من الفها الى يائها ولم يتصور أن هنـــاك رسالة من عجوز ثكلى لا أهمية لها ذلك انني لم اخبر والدي ، ولم انو اخباره لا عتقادي انني لو اخبرته لم أر منه ما يرضيني ، لأنني اكون قد بحت بسر سفره الـذي لم يبح بـــه لا حد قط .

وليقين والدي من براءته مما يتهم به جعله يثور بعنف قائـــلًا : ما معناه لقد وصموني بالكفر والشرك وحاولوا أن يستبيحوا دمي ، ويريقوا دم أبني الطفل ، وصبرت اذ لا حيلة لي الا الصبر أما انهم يتهمونني بالتجسس ويفترون علي ما انا منه بريء فأنني كأنسان مستجير بجاهك وكنت خير من اجـــارني وصان دمي وحفظ مالي .. لهذا فانني استجير بك على ان تصون شرفي مما اتهم به بالتحقيق عن هـذه التهمة ، حتى يتبين لك كذب الغادرين ، وصواب ما أنا عليه من صحة وصدق ، لا لف فيه ولا دوران .

كان والدي يتحدث هذه المرة بحماس وانفعال ، خلاف ما عهدته به من حديثه السابق الذي لم يبلغ به الأمر من الانفعال كما بلغ به الآن .

ذهب رجل النجدة الى المتهمين (بكسر التاء) يتحـــداهم بشدة وبجبـين ناصع ووجه ابلج : ولئن كانت الرسالة لا تحمل اكثر من سطرين فقـط وحروق نار بأطرافها ومن خلفها وامامها كدليل على احتراق قلب أم الشاب على ابنهـا ، فان هذين السطرين وتلك الحروق قد يحملان من (الشيفرة الرمزية) اكثر من معنى في نظر اولئك البدو الذين لم يكن بينهم رجل واحد يعرف حروف الهجاء رغم عددهم الذي اظن انه لا يقل عن المائتين ولما لم يجدوا من يقرأ تلك الرسالة التي لا تزيد عن الشبر طولاً وعرضاً فقد اضطروا بدافع من احراج مضيفنا لهم ان يأتوا بالرسالة منقبين عن من يحسن القراءة من احد المشركين ولكن حتى هؤلاء لم يكن بينهم من يقرأ أو يعرف حروف الهجاء لا والدي ولا رفيقه غير كاتب هذه الاسطر ، حيث ادخلني خالي حينما كنت في حضانة جدتي مدرسة تعلمت فيها

حروف الهجاء على لوح من الخشب ، وتارة على تلك الارض الدمثة في حـــائل ، لدى المرحوم الشيخ عبد الله الخليفي غفر الله له وقدس ثراه .

«جاء صبيان »التوحيد بالرسالة وأمروني ان اقرأها حرفاً حرفاً بعدما احاطوا بي من كل جانب يترقبون حركاتي ويستمعون لقراءتي بصمت وركود .. كانت حروف الرسالة مقطعة ، كل حرف من حروف الهجاء منفرد على حـدة ، الامر الذي جعل قراءتي لها سهلة لا كلفة فيها .. ولم يعد مضمون الرسالة إلا انه : (من الوالدة الى ابنهـــا) الخ .. تعبر له عن قلبها المحروق ومقلتيها الساكبتين الدمع باستمرار ..

كان « أخوان من طاع الله » بين الشك واليقين بصحة قراءتي لما جاء في الرسالة من لفظ ومعنى ولم يؤمنوا الايمان الراسخ بأن ما قرأته عليهم هو الصحيح حتى جاء اعرابي منهم ، ولكنه ليس من نفس الحي ، يزعم انـــه ضليع في القراءة ، فعرضوا عليه الرسالة فظل يقرأها قراءة مقطعة ، ولكنها لا تعدو عن القراءة التي قرأتها عليهم .

حمدنا الله على براءتنا من تهمة التجسس.. إلا انني كنت اتوقع ان والدي سوف يعاقبني عقاباً صارماً على تصرفي الصبياني بأخذ الرسالة من العجوز ، وعلى سلوكي الاخير في اخفائها الذي من شـــأنه ان يدعو الى الشك والريبة كما حصل فعلاً .. ولكن والدي لم يعمل معي أي شيء من ذلك ، بل ولم يسألني أدنى سؤال عمـا قمت به .

قضينا صبيحة ذلك اليوم على الشكل الذي عبرت عنـــه من القنوط واليأس وانتظار الموت الزؤام بين الفينة والفينة ـ اما وسط النهـار وآخره فقد قضيناهما بأمان وهدوء واطمئنان ، وقد بتنا الليلة الثانية عند مضيفنا الكريم الذي اكرم مثوانا ، وناضل دون سلامة رقابنا ، واستعاد كل مـا سلبه الغازون من امتعتنا ،

ميتاً هنيئاً ، إلا انني لم أطعم لذة النوم بصورة هادئة لذيذة كالليلة الماضية وذلك من الاحلام المزعجة التي اقلقتني .. وكل ما اغط بالنوم انظر الى المروقي ذلك الغليظ الجفس يدنو مني ليضرب عنقي بسيفه المسلول فاستيقظ مذعوراً فأجدني بعرين الاسد لا يستطيع المروقي ولا زمرته بكاملها ان ينالوني بأدنى أذى ، فأعود ثانية غارقاً في سباتي ، فتعاودني تلك الاحلام الرهيبة .. وهكذا دواليك الى ان انبلج الفجر بأنواره الزاهية ، وهنا ضج الحي بأصوات لم تكن غريبة عليّ : (الله أكبر) الخ .. وكل بيت كان فيه مؤذن !

بعد الوضوء اتجهنا بوجوهنا نحو القبلة وقلوبنا نحو الباري شاكرين نعماءه على سلامتنا بعدما اشرفنا على الموت .. لقد أدينا صلاتنا بأمان واطمئنان ومن ثم اتجه كل من والدي ورفيقه ورجل النجدة «شاهر» الى رواحلهم ، وما هي إلا لحظات حتى انهوا حمل امتعتهم، وركبنا عائدين الى اهلنا ، وها نحن نتسلق تلك الكثبان الذهبية التي مررنا بها يوم امس الاول عائدين مكرهين طبعاً بل وشاكرين المولى الذي انجانا من يدي اولئك القتلة ، على ان هيأ لنا سبيل العودة سالمين بفضل بطل النجدة ..

وبعد مضي ساعة من مسيرنا ، بزغت الشمس علينا بأشعتها المشرقة من الجانب الايسر . ولم نشعر بشيء من حرارتها إلا بعد فترة من الوقت ، هناك بدأ لهيبها يصيبنا بشدة ، وكما انني لا اذكر كيف قضينا فترة القيلولة والغداء في ذهابنا يوم امس الاول فانني ايضاً لا اذكر كيف قضينا فترة القيلولة والغداء في عودتنا هذه وكل ما اذكره هو ان حرارة الشمس كانت اقوى من يوم امس الاول ، وقد نصب كل من والدي ورفيقه وبطل النجدة عباءته على رأس عصاه الخيزران فأصبح فوق رأس كل واحد منهم مظلة تقيه حرارة الشمس ، ولما لم تكن لدي عباءة ولا أي شيء يقيني لا لهيب الشمس الحامي فحسب . بل ولا حرارة شعر الراحلة الذي كما اسلفت لم يكن بين بشرتي وبين وبرها الخشن سوى ذلك القميص المهلهل

لا فوقه شيء ولا تحته شيء ، ولا يسعني الا ان اصبر واتجلد وامر شكواى لله وحده ..

ظللت في هذه الحالة تارة اجلس القرفصاء على ردف الراحلة وتارة اخرى اجمع رجلي وادير ظهرى وطوراً اباعد بين رجلي الاثنتين .. وهكذا ظللت اتململ واتقلب هنا وهناك حتى آذنت الشمس بالغروب وأمست تحفنا رويداً رويداً من الجانب الايمن حتى تلاشت حدتها.. لم ينقطع الحديث بين والدي وبطل النجدة .. لقد شعرت ان بينهما تجاوباً بالسن وبالخلق والفهم اكثر بكثير من التجاوب المفقود بين والدي وبين رفيقه الشاب .

لقد بدأت الشمس تدنو من الغروب كما بدأنا ندنو من قريتي : (النيصية ، والجثامية) اللتين هما اولى القرى المجاورة لمدينة حائل من الناحية الشمالية ..

وفجأة استدنى بطل النجدة رسن ذلوله ونادى والدي وقال : (يا أبا فهد .. لقد جئت بصحبتك مودعاً ومحافظاً ولم آت حارساً لك لأسلمك للحكومة، وها أنذا استودعك الله ولئن كنت مسؤولا أمام قومي الذين سوف يبلغون الامارة حتماً فيما إذا لم تعد الى البلاد ، ولكنني افضل ان اتحمل ما يحل بي من عقاب الامارة على ان آتي بك حارساً لك ، حتى اسلمك للامارة كما يسلم المجرم .. فهذا شيء لا يتحمله وجداني ، ولا يرتاح له ضميري . فاذهب انت وشأنك ، فإن عدت للامارة فقد انقذتني من المسؤولية وان ذهبت الى محل آخر فسوف اكون مسؤولاً أمام الحكومة مسؤولية لا أعلم ما إذا الاقي بسببها من عقاب) ..

قال بطل النجدة هذه الكلمات ثم ختمها بكلمة الوداع التقليدية (مع السلامة) ومن ثم ركل راحلته وذهبت تخب به خبباً..وكان آخر لحظة رأيت بها وجه ذلك البطل الذي اعتبر نفسي مديناً له مدى الحياة هي تلك اللحظة وآخر كلمة سمعتها من فيه (معالسلامة).

الشمس الآن على وشك الغروب وقرية (الجثامية) اصبحت منا قريبة المنال .. دنا الشاب من والدي براحلته ثم قال له : ما رأيك الآن بعدما اصبحنا احراراً طلقاء ..

– سوف أعود الى البلاد طبعاً ..

– معناه اننا بعدما خرجنا هاربين نذهب ونعود ثانية ..

– أنا عندما أعود الى البلاد أشعر بالأسى .. ولكنني سوف أعود ولن افكر بالسفر مرة ثانية بوقت قريب بل سوف أظل مدة لا تقل عن السنة في البلاد حتى يكون صاحبنا شاهر في مأمن من العقاب ، وبعدما أتق من هذه الناحية عند ذلك سوف التمس سبيلاً آخر للخروج ..

لم يرد الشاب على والدي بل ظل صامتاً ومع غروب الشمس دخلنا قرية (الجثامية) ونزلنا ضيوفاً على ذلك الشاب الكريم الذي لم أنس لقبه كما نسيت اسمه كان لقبه فلان (الهاتف)وكأني أخاله شاباً لم يبلغ الثلاثين من عمره فيما أظن عريض المنكبين ، اسمر البشرة ، واسع الجبهة مستدير الوجه ، لا تفارق وجهه السمح الابتسامة ، عريض الهامة متوسط القامة .. لقد كانت بشاشة ذلك الشاب وطلاقته وانشراحه ودعابته خير مسل لنا بعد ذلك البؤس الذي لاقيناه يوم أمس .. لقد قدم لنا مضيفنا البشوش اكواباً من القهوة والشاي ، وظل يتجاذب الحديث مع والدي ولا استطيع ان اؤكد هل كانت هذه البشاشة وتلك الابتسامة صادرة من ذلك الشاب بسبب صداقة عريقة وثيقة العرى بينه وبين والدي .. أم ان ذلك الخلق الدمث مطبوع بجبلة ذلك الشاب يقوم بتأديته لكل ضيف يحل بداره بدون كلفة ؟..

لا أدري أيها الأصوب ولكن اعتقادي انه اذا لم يكن كلا الاثنين متوفراً بذلك الشاب أي الصداقة لوالدي والخلق الكريم الأصيل اذا لم يكن ذلك فإنني أرجح الأخير..

بعد العشاء الأخير قدم لنا مضيفنـا الكريم ذلك الطبق الواسع المرتفع يعلوه كبش من الضان ، وتحته كومة نابية من الأرز ، وتحت الأرز لفيف من ثريـــد القمح استطعمنا من تلك المائدة ما لذ منها وطاب ، وبعدذلك احتسينا القهوة .. ثم امتطينا ركائبنا وشخصنا نحو أهلنا كنا نسير صامتين كليلنا المدلهم الصامت، لم يجر أي حديث بين الشاب ووالدي حتى دخلنا بلدة حائل في منتصف ذلك الليل الصيفي الهادىء .. ولم نر احداً ولم يرنا احد .. افترق والدي والشاب بعدما تبادلا تحية الوداع التقليدية (مع السلامة).. وربما كان ذلك الوداع آخر اجتماع بينهما حيث قصد كل منهما منزله.. طرق الباب والدي وبعد لحظةقليلة خرجت زوجته ففتحت الباب بعدما تأكد من صوت بعلها وادخلنا متاعنا كما ادخلت الراحلة في المخبأ الذي كانت به سابقاً .. وقد تركت والدي وزوجه في داخل المنزل وذهبت الى مضجعي ونمت نوماً لا اقول انه هادىء لذيذ بالمعنى الصحيح ، لأن شبح (المروقي) ذلك الفظ الغليظ القلب ظل يلاحقني في منامي ليال متتالية،ولكنه ظل يخف بالتدريج الى ان ولى نهائياً الى غير رجعة .. والغريب في الأمر ان عقلي الباطني ظل محتفظاً بذكريات المروقي وبشبحه المزعج فكلما أرى شخصاً يقارب منظره سحنـة ذلك (الخرطبيل) الأجوف أنفر منه كارهاً له بلا شعور مني حتى يومنا هذا ..

ظل والدي في منزله ولم يخرج منه إلا خلسة الى بعض اصدقائه ومن بين الذين ذهب اليهم وأسر لهم بما حصل له في رحلته القصيرة المدى (السرمدية) العبرة أحـد اصدقائه القدامى المرحوم حمد الشويعر الذي أيده الرأي بذهابه الى الرياض والسلام على المرحوم الملك عبدالعزيز على ان يبقى هناك مدة تمكنه من التغطية لرحلتنـــا المشؤومة وتضفي اذيالها عليها .. نفذ والدي هذه الفكرة التي كان ينوي تطبيقهـا اعتقاداً منه ان سفره للرياض هو السبيل الوحيد الذي يهدىء به روع بطل النجدة شاهر ، الذي تعهد لرفاقه ان يسلمنـا لأمير حائل ، وانه عندما يعلم أي شاهر ان الرجل الذى تعهد بتسليمه لأمير حائل ذهب للملك نفسه لا للأمير الذي لا يعـدو ان يكون موظفاً من موظفي الدولة ، فإنه سوف يبيت هادىء البال ، مطمئنـاً على نفسه ، واثقاً بأن صاحبه بادله وفاء بوفاء ..

لم يكلف والدي السفر للرياض أي عناء فالذلول والعدة التي أعدهـا للذهاب الى العراق والنية التي ينوى بها العراق .. كل ذلك بدله رأساً على عقب وقصـــد الرياض على الفور وذلك في أول الليلة الثانية من عودتنا سافر (خلاويا) أي بمفرده لأن الطريق من حائل الى الرياض وان كان اكثر من ضعفي المسافة بين حائـــل والعراق ولكنـــه طريق لا يجهله والدي كجهله لطريق العراق ، حائل..وصل والدي الرياض وظل عاماً كاملا بدون ان يحدث أي شيء يثير الانتباه حول تلك (الرحلة)..

ولئن سألتني بعد ذلك ماذا كانت النتيجة في تحقيق امنيتي أي هربي من معتقلي فجوابي انني حققت ما اصبو اليه بالانطلاق من ذلك السجن القاسي .. ولكن بعد عام كامل من تلك الرحلة ، وبعدما لاقيت في رحلتي الاخيرة من العنـاء والنصب ما الله اعلم به . إلا انه لم يكن بها ما يهدد حياتي كتلك الرحلة التعسة المشؤومة. أما كيف هربت ومتى تيسر لي ذلك وعلى يد من توفر لي السبيل؟.. فذلكبحث طويل يخرج بنا عن نطاق محور القصة الذي نحن بصدده ..

وأما والدي فقد عاد الى حائلمن الرياض ، بعدما قضى هناك عاماً كاملا ، كما ذكرت آنفاً وهو الآخر حقق امنيته بذهابه الى العراق .. ولكنه بعـد مغامرة ليست أقل هولاً ولا أهون خطراً منسابقتها هذا اذا قلنا ان الأولى وصل بها فعلا الى حافة القبر ولكنه في النهاية نجا من ذلكسالماً بنفسه وذلوله وامتعته على يد بطل النجدة .. أما الثانية فإنه يعتبر نفسه سعيداً عندما اتيحت له الفرصة التي نجا بـــا بنفسه فقط وذلك على يد بطل النجدة الثاني ، المرحوم خلف بن لويش ، وهو من قبيلة شمر ايضاً ، غامر مغامرة باختطافه له من السلطـــة بصورة تعبر عن النخوة العربية الأصيلةبكل معنى من معانيها التيتدعو الىالاكبار والاعجاب والاجلال بالوفاء العربي الأصيل أنى كانت دوافعه وحيثما كان فاعله وللقارىء ان يرى هـذه القصة الاخيرة في موضعها المناسب من هذا السفر .

وختاماً أرجو القاريء الكريم ان يسامحني فيما اذا وجد مني تفصيلاً في كتابـة

هذه القصة بصورة تزيد عن كتابتي للقصص الاخرى .. والسبب في ذلك هو أن جميع القصص التي اوردتها في كتابي (من شيم العرب) كنت انقلها من الرواة الثقاة بدون أن اشاهد تفاصيلها وأرى بنفسي مجرى سيرها ومصدر بواعثها بصورة مباشرة محسوسة كرؤيتي لقصتنا هذه التي اوردتها لا كشاهد عيان رأى بعينيه الحادثة ، وشهد بنفسه كل ما دار من اسباب القصة ومسبباتها فحسب ،بل كأنسان قدر له ان يكون واحداً من بين اولئك النفر الذين ولا شك هم محور الحادثة واقطاب القصة حتى انصهروا في معمعة احداثها ورأوا اعنف مآسيها وشاهدوا اروع اهوالها وقديماً قيل : « ليس من رأى كمن سمع » ..

فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

- ١٧ -

ما أن وحد الجزيرة العربية المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود ، حتى سعى الى توطيد العلاقات الودية والسياسية مع الدول العربية المجاورة وخاصة مع الحكومة العراقية التي عقد معها معاهدة ينص أحد بنودها على تسليم اللاجئين السياسيين ، ولما كانت قبيلة شمر غالباً ما تقطن المنطقة الشمالية من شبه الجزيرة العربية المتاخمة للحدود العراقية يضاف الى ذلك أن هذه القبيلة قسم منها يقطن العراق وقسم آخر يقطن شبه الجزيرة : فقد رأى الملك عبد العزيز ان خير طريق لوضع حد يفصل بين شمر الذين ينتمون الى بادية العراق وبين من ينتمي الى بادية الجزيرة العربية هو ان يعتبر كل من كان يقطن شمال الجزيرة من هذه القبيلة من قبل توحيده البلاد من نفس بادية الجزيرة .. ويتحتم على الحكومة العراقية أن تسلمه للحكومة السعودية فيما اذا هرب اليها وطالبت السعودية بتسليمه وكل من كان يقطن العراق من هذه القبيلة قبل أن توحد الجزيرة فانه يعتبر من بادية العراق وعلى السعودية أن تسلمه للعراق في حالة طلب حكومته له . ولم تكن هذه المعاهدة مقصورة على قبيلة شمر فقط ، بل كانت سارية المفعول وقتذاك ، على أي كان من بادية وحضر وانما جئت بذكر قبيلة شمر من اجل أن الشواهد في هذه القصة تدور حول رجلين من أقطاب هذه القبيلة وهما عقيل الياور شيخ مشايخ قبيلة شمر في العراق ويمثل القبيلة في مجلس النواب العراقي وعقاب بن عجل رئيس

اكبر فخـذ من فخوذ عشيرة عبده المتفرعة من قبيلة شمر ويعتبر عقـــاب من بادية شمر التابعة للجزيرة ، الا انـه رحل من الجزيرة العربيـة واستوطن العراق وذلـــك من قبل توحيد الملك عبد العزيز للجزيرة بسنين قليلـة ، وربمـا كان نزوحه عن بلاده وسكناه في العراق بدافع سياسي محض ، ولمـــا كان عقاب من ابرز رجال القبيلة شخصية ورأياً وشجاعة .. فقد رأى الملك عبد العزيز ان يطالب الحكومة العراقية بتسليمه كتنفيذ لبنود المعاهدات التي تقضي بذلـك ولم يكن للحكومة العراقية بد من الاذعان للأمر الواقع فراحت تسعى لتحقيق رغبة الملك التي تتفق نصا وروحاً مع تطبيق المعاهدة ، ولا بد والحالة هذه من أن يقف عقيل الياور موقف المعارض لتنفيذ هذه الغاية لا كممثل في البرلمـــان العراقي ، وبقتضي الأمر أن يدافع عن حقوق رجال قبيلته فحسب ، بل كعربي استجار بحماه ، ولاذ بجواره عربي لا حول له ولا طول ، وكان الامر بالنسبة للشيخ عقيل حرجا للغاية . فهو اضعف من أن يتحدى دولة ذات كيان ، كما يرى أنه امنـع جانبا وأشم انفا من أن تخفر ذمته ، ويؤخذ منه مستجيره ، لقد حاول الياور أن يقنع الحكومة العراقية ، بأن هذه المعاهدة تتنافى والشيم العربية ،ولكن الجواب كان يأتي اليه من المسئولين في العراق وقتذاك بما يلي : « لست اعلم من الملك عبد العزيز بن سعود بتقاليد العرب وعاداتهم فلو كان الامر كما تظن لما اقدم الملك على توقيـع هذه المعاهدة ولا اقدم ايضا على مطالبته لنـــا بتسليم ابن عجل » ، فيعود الياور مؤكداً لهم بأن الملك عبد العزيز يعرف انه لا يعاب فيما اذا طالبكم بتسليم المستجير بل يعتبر تسليمكم لمستجيركم نصرا له بقدر ما يعلم انه عار عليكم حسب الخلق العربي ، كما انه يعلم ايضاً بأنه لاعيب عليه بتوقيـع معاهدة كهذه ما دام تنفيذها من جانبكم من صالحه ولكنه عندما يأتي التنفيذ من جانبه فانه سوف يتقيد بالعادات العربية ويعتبر معاهدتـكم حبراً على ورق .. ومن المستحيل كل الاستحالة على الملك ابن سعود ان يسلمكم أي مواطن من مدن أو بادية العـــراق فيما اذا هرب منكم واستجار به ومن ثم طالبتم بتسليمه فانني اؤكد لكم سلفاً بـأن ابن سعود لم ولن يسلمكم مستجيره مهما بلغ بجرمه السياسي من الفظاعة ، ومهما بذلتم من الجهــد بالمطالبــة ..

حاول الياور ان يقنع المسؤولين بوجهة نظره عليهم يبدلون رأيهم ولكن محاولته لم تجد . ولما كان الياور من عباقرة الرجـــال كما أكد بعض ساسة العرب بقوله : « لم أؤمن الإيمان الكامل ان محمداً (ﷺ) أمي حتى عرفت ان مفكراً وسياسياً كعقيل الياور أمي » ، فإنه بدهائه وقوة حجته ووضوح بيانه استطاع ان يوقف المسؤولين في العراق وقتها عند حدهم بمطالبتهم بتسليم مستجيره وفي الوقت نفسه جعل الملك ابن سعود يترك مطالبته بتسليم ابن عجل الى الابد وذلك بفضل الحجة الدامغة التي قابل بها حكومة العراق بقوله : (اكتبوا للملك عبدالعزيز بن سعود رسالة عن لساني وقولوا له ان عقيل الياور يناشدك الله والشيم العربية أهل تسلم عقاب بن عجل لحكومة العراق فيما إذا كان من بادية العراق وطالبتك حكومته بتسليمه بعدما لاذ بحماك كما استجار بحماي ؟...

القى عقيل الياور هذه الكلمة في مجلس النواب العراقي ولم يكن بعدهـا بحاجة الى دفاع عن ابن قبيلته ومستجيره ، بل كانت هذه الكلمة وحدهـــا هي جيش الدفاع الامامي والخلفي والاحتياطي معاً ، ولم يطالب الملك عبدالعزيز حكومة العراق بعقاب ابن عجل قطعياً كما انه لم يجب حكومة العراق على تلك المعاني التي أشار اليها الياور جواباً سلبياً بل كان الجواب من الملك العربي ايجابياً بل عملياً ولكن بعد تلك المدة التي طالب فيها بتسليم ابن عجل بزمن طويل ، وبعد ان توفي عقيل الياور رحمه الله..وكان الجواب العملي لحكومة العراق من ملك عربي كعبد العزيز هو انه عندما استجار به رشيد عالي الكيلاني رئيس حكومة العراق سابقاً الذي اعلن الثورة أبان الحرب العالمية الثانية ضد الاستعمار البريطاني وذهبت حكومة العراق تطالب بتسليمه من عبدالعزيز.. وبما ان موحد عرب الجزيرة العربية ضليع بمعرفة أصول وفروع المعاهدات الدولية ، كما انه في الوقت ذاته دائرة معـــارف يرجع اليه بمعرفة فقه العادات والشيم العربية فقد كان جوابه العملي ذا جانبين وكلا الجانبين مقنع فمن الناحية السياسية فقد كان جوابه لحكومة العراق ما معناه: (ان المعاهدات التي بيني وبين الحكومة العراقية تقضي بأن يسلم المجرم السياسي فيما إذا كان هذا السياسي مجرماً بحق الوطن العراقي وحكومة العراق أما انـــه مواطن

كرشيد الذي كان رئيس حكومة العراق الشرعي يقوم بعمـــل ضد حكومة اجنبية كحكومة الانجليز فإنه قد يكون مجرماً بحق الحكومة المستعمرة البريطانية ولكنه ليس مجرماً بحق الحكومة العراقية الوطنية ..

هكذا كان جواب الملك عبدالعزيز من ناحية المعاهدات السياسية المتبادلة أمـا من ناحية العرف والعادات العربية فقد كان جواب الملك العربي صريحـاً وجدياً وصارماً كصراحة الخلق العربي الأصيل حيث قال ما معناه : (أنا رجـل عربي ومؤمن بالتقاليد والشيم العربية ومطبق لها قبل ان اكون ملكاً عربياً يقتضيني الأمر ان اكون رمزاً لخلق وشيم العرب ، ولذلك لكم عليّ ان تطالبوني بتسليم من تشاؤون من ابنائي وعلي ان ألبي طلبكم فوراً أما انني اسلم مستجيري فهذا شيء من المستحيل تنفيذه ما دام يوجد في دمي عرق ينبض بالحياة) .

وهكذا تحققت نبوءة الشيخ عقيل الياور وهكذا ايضاً كان الملك عبدالعزيز خصماً وحكماً في آن واحد ..

رويت هذه القصة ، من الشيخ احمد بن عجيل الياور .

استجار بالأشارة فأجير

- ١٨ -

لا استطيع أن احدد تاريخ قصتنا هذه بصورة قاطعة لبعد عهدها وانما يكون تحديدنا لها مبنيا على معرفة التاريخ الذي عاش فيه أبطالها ومن هذه الناحية نستطيع القول بان تاريخ وقوع هذه القصة يكون بين عام ١٢٠٠ - ١٢١٠ هـ ..

وفي هذه القصة ما يدلنا على أمرين : الأول ما يعبر لنا بوضوح بان الاستجارة عند العرب ليست محدودة على ان يأتي عربي من قبيلة ما الى عربي آخر من غير قبيلة الاول فيقول :

- انني مستجير بك ..

فمثل هذه الاستجارة تكون الزامية ولا مفر لأي عربي من أن يجير مستجيره مهما كلف الثمن فمجرد مجيء عربي من قبيلة قحطان ونزوله بجوار بيت أي واحد من قبيلة عتيبة ، يكون بعمليته هذه استجارة من الاول بجوار الثاني ، وانواع الاستجارة والدخيل [1] كثيرة وفي هذه القصة ما يدلنا دلالة ملحوظة بأن الاستجارة

---

١ - الدخيل من نوع الاستجارة ومعناه انه يأتي شخص من قبيلتك نفسها فيدخل بيتك خوفا من شخص يطالبه بثأر فتكون ملزما بحمايته .. هذا معنى الدخيل .

قد تكون مجرد اشارة فقط ..

اما الامر الثاني فهو ما يدلنا على أن القوة في كل زمان ومكان هي صاحبة الحق والقول الفاصل لا في عصرنا هذا فحسب كما قال أحد شعرائنا المعاصرين :

الحق للاقوى يصرفه كما

شاءت له الأهداف والاقدار

بل حتى في العصور القديمة وفي مجتمع البادية وحياة الصحراء التي غالبا ما تطغى فيها الاشياء المعنوية والروحية على الامور المادية .

عندما قتل فهد[1] الجربا ابن عمه ظاهراً وكان ظاهر فتى سخياً محبوباً مما جعل قريحة الشاعر علي[2] بن سريحان تنفجر فقال فيه أكثر من قصيدة كلها رثاء وتأبين لظاهر الأمر الذي أثار حفيظة القاتل وجعله يتربص به الدوائر ، على الرغم من ان الشاعر لم يمس القاتل الذي هو أمير القبيلة بأي معنى من المعاني لا بالتصريح ولا بالتلميح ولكن القاتل يعتبر ان مجرد مدح الشاعر واطرائه لضحيته ، وثنائه عليه، هذا وحده كاف ان يكون هجاء له بالذات ولم يتظاهر فهد بأية علامة تدل على انه غاضب على الشاعر وانما كظم غيظه وأبدى عدم اكتراث لكي يستدرجه الى ان تتاح الفرصة التي يقع بها بين يديه لينتقم منه شر انتقام .

وفي أحد الاعياد السنوية جاء الشاعر وأوفد الى رئيس قبيلته وهو آمن غير خائف لا يعرف عن نفسه شيئاً يعاقب من أجله،فدخل نادي الرئيس الحاشد بمئات

---

١ — فهد من اسرة الجربان رؤساء قبيلة شمر الفرات . ومن هذه الاسرة يكون تمثيل القبيلة في كل من البرلمانيين السوري والعراقي في الحين الذي يكون فيه انتخاب في القطرين بحكم ان القبيلة لها فروع في سورية والعراق .

٢ — علي شاعر من شعراء قبيلة شمر الفرات .

الشخصيات البارزة من فرسان قومه ، فجلس بالمكان اللائق بمنزله ، وما ان ابصره أميره الحاقد عليه حتى صاح به قائلاً :

ـ أأنت فلان ـ متجاهلاً إياه بالرغم من انه يعرفه جيداً ..

وقد انتبه الشاعر ان تجاهل أميره وسؤاله هذا السؤال الحاد لا يدل على شيء من الطمأنينة ، ولكنه وجد نفسه وقع في الفخ ، وليس لديه إلا ان يفعل ما استطاع ليسترحمه بالكلام الوديع اللين ، وهو في قرارة نفسه يدرك كشاعر جم الذكاء والاحساس بأن من يقدم على قتل نفس بريئة من اقاربه الاقربين ، لا يمكن ان يكون في قلبه ، مكان للرحمة أو موضع للعاطفة وإنما أراد ان يجرب طريقة الاسترحام فإن أفادت فيها ، وإلا فما عليه إلا ان يضع في وجه النمر المفترس نمراً من نوعه ، بدون ان يحتاج الى مزيد من الاستجداء والاسترحام مع انسان لا يفيد معه شيء من ذلك ، وعلى الفور أجاب الأمير على استفهامه عن اسمه اجابة تعبر عن اللطف والرقة والمكر في آن واحد فقال :

ـ نعم حفظك الله ورعاك هكذا أسماني والدي علي ، وسريحان نسبة لأسرتي ، فأجابه الأمير بوجه عابس ونبرات صارمة بقوله :

لا حفظني الله ولا رعاني ان لم اجعلك عبرة وتأديباً لكل شاعر مرتزق من أمثالك ..

وقد أدرك الشاعر الآن الشيء الذي أغضب أميره وإنما أراد أن يتجاهل ذلك بل ويتجاهل الأمير نفسه بأسلوب فيه شيء من السخرية ، فقال :

ـ أولاً أنا اقول الشعر ولكنني لست مرتزقاً به ، ولو كنت كذلك لقلت بك قصيدة لا لكونك أميري ولكن لكونك سخياً متلافاً ومن أمنية الشاعر المرتزق ان يفد بقصيدته الى كريم (شرواك)[1] ثم استمر بحديثه وقال :

---

١ ـ شرواك يعني من امثالك .

ثانياً ـ أنا لا اعرف انني اقترفت أى ذنب يوجب غضب أميرى علي لا من بعيد ولا من قريب ، فقال الأمير :

ـ اعتقد ان الفقراء والمساكين بعد ان مات صاحبك ظاهر ماتوا كلهم جوعاً ولم يجدوا كريماً يعطف عليهم بعد موته ، وانعدمت قبيلة شمر من أي سخي يرحم الفقراء ويطعم الأرامل والمساكين بعد موت ظاهر الذي تعتقد ان الكرم والسخاء ماتا بموته .

ومن هنا ازداد الشاعر يقيناً بما يقصد أميره ، وادرك ببداهته البيت الذي رثى به صاحبه ظاهراً ولكنه مع هذا أراد ان يتجاهل الشيخ فقال وهو يخفي من المكر والدهاء اكثر مما يتظاهر به من السذاجة :

ـ ماذا يقصد الشيخ ، أنا حتى الآن لم أعرف شيئاً مما يشير اليه شيخنا ؟..

فرد عليه الشيخ وهو يكاد ان ينفجر كالبركان ويخرج من وقـــاره لو لم يكن المجلس حاشداً باعيان قبيلته فقال :

ـ ألست القائل :

أنا غداً ظاهر وسيـع الفجوجي

اللي ببيته يشبعون المساكين

وفي الحين الذي كان الشيخ يردد هذا البيت بغضب شديد كان الشاعر علي يمد بصره خلسة يتفرس وجوه الفرسان الذين يضمهم ذلك النادي ، فاستقر بصره على شاب واضع على عضده الأيمن (بجولاً) [١] يسمى (نجران[٢] بن هشمي).

---

١ ـ البجول هو سوار من فضة لا يضعه في عضده الا الفارس الذي ابدى شجاعة خارقة في احدى المعارك وطار صيته كفارس بين صفوف اعدائه وقبيلته .

٢ ـ نجران رئيس فخذ كثير العدد من قبيلة شمر الفرات .

وعندما انتهى الشيخ من البيت السالف الذكر وبعدما أرغى وأزبد بكلام لاذع بحق الشاعر ، بعد ذلك اتجه الشاعر نحو الشيخ بكل رزانة وهدوء وقال :

– آه لقد سمعت هذا البيت ضمن القصيدة الطويلة ولكنني لست بقائل القصيدة ..

– لعلك تريد ان تقول قالها الشاعر فلان (يشير الشيخ الى شاعر توفي قريباً) لتخرج نفسك من المسؤولية ..

– لا بل الذي قالها لا زال حياً ..

– أتريد ان تضعها على احد شعراء قبيلة عنزة لتنجو من عقابي ؟

– لا بل الذي قالها من قبيلة شمر ..

– آه من شمر نجد ..

– بل من شمر الجزيرة .. [1]

– دلني عليه ان كنت صادقاً وأين يكون ؟..

– هو في مجلسك هذا ..

– وفي مجلسي ايضاً ..

– أجل هو نجران بن هشمي الجالس عن يمينك ..

– لم أسمع قبل هذه الساعة ان نجران قال بيتاً من الشعر ..

– اسأله ولا اظن ان مثل نجران ينكر شيئاً قاله ..

أمامك اسد ايها الأسد

كان الشاعر يقول هذه الكلمات وهو يحدق بالفارس نجران ويمسح وجهه

---

١ – يقال لشمر الفرات شمر الجزيرة تميزا بينهم وبين شمر نجد .

بكفه اشارة من الشاعر تفيد بمعناها الرمزي وتعبر بمفهومها العملي أن الشاعر يقول: انني مستجير بك يا نجران من سطوة هذا الجبار فاجرني ..

اصبح الشيخ محرجاً بعدما الزمه الشاعر بأن يسأل نجران كما اصبح نجران مضطراً ان يعترف لينقذ الشاعر ، وأن يكن هذا الاضطرار ليس الزامياً فيما لو أراد ان يتهرب من واجبه ويدعي انه لم يفهم ماذا يريد الشاعر من هذه العمليـــة وتلك الاشارة ، ولم يسع الشيخ الا ان انحرف نحو نجران قائلا :

– لا اعتقد بأنك الناظم لتلك القصيدة التي فيها من الاطراء لظاهر ما يوحي ان قائلها تعمد هجائي وذمي على حساب مدحه لظاهر ..

– ولماذا لا تعتقد ذلك بـل عليك ان تعلم انني انا صاحب القصيدة لأن ظاهراً فتى كريم ويستحق مني الثناء ولا اعتقد ان ذلك فيه ما يسوؤك لأن المدح في ظاهر يكون مدحاً لك انت بالذات لأنه ابن عمك وقد فارق الدنيا والمدح الذي يرثى به الميت ، ليس الا تراثا يعتز به الاحياء من اقاربه ..

– الأبيات التي سمعتها لا يقولها الا شاعر مطبوع وانت لست بشاعر ولم نسمع عنك انك قلت بيتاً من الشعر ..

– أنا لست شاعرا يمتهن حرفة الشعر ويرتزق من ورائها ولكنني موهوب القريحة فإذا جاءت مناسبة تشحـــذ موهبتي قلت الشعر كهذه القصيدة التي قلتها بدافع من شعوري نحو رجل كنت أكن له كل محبة واحترام بحياته وعندما مات رأيت من الوفاء ان أعبر عما في نفسي نحوه ..

– أليس لديك من التروي والحكمة ما يجعلك تمتدح ظاهراً بدون ان تتحدى وتغضب الآخرين ؟.

– عندما امتدحته كنت لا اقصد الا ارضاء ضميري فقط ..

– اذن نظرت الى القضية من حيث ارضاء ضميرك بدون ان تنظر لها من حيث شعور الاخرين وغضبهم ..

– انني حريص على ان لا اغضب احداً أما اذا شاء أحـــد ان يتحداني بدون سبب فإنني لا أرضى لنفسي ان اذل بل سوف ادافع عن كرامتي الى آخر نقطة من دمي ..

وعندما رأى وجهاء القبيلة الذين جاءوا ليباركوا للشيخ بالعيد ان الجـــدال سوف يتطور الى اكثر من ذلك عندئذ تدخلوا في الحديث وقطعوا بقية الجدال ، فذهب نجران يتبعه نفر من خيرة ابناء عمه الفرسان ، ومـا ان ابتعدوا عن مجلس شيخ القبيلة حتى وجهوا لومهم الى نجران قائلين له :

– لقد أردت ان توقعنا بورطة بتحديك لشيخنا ..

فأجاب بقوله :

– أنتم تعلمون بأنني لست شاعراً ولا اعرف أن انظم بيتاً من الشعر ولكن الشاعر ابن سريحان رمى نفسه علي واستجار بي عـن طريق الاشارة ولا يسعني ان اتخلى عنه في موقفه الحرج . ولذلك رأيت من واجبي ان اعتبر اشارته استجارة بي، لكي انقذه من عقاب الشيخ واضعاً نصب عيني شتى الاحتمالات التي يمكن ان تكون ، ومعتمدا على ثقتي بنفسي وبوجودكم ومؤمنا بأن الشيـخ يستطيع ان يعاقب الشاعر شر عقاب ، ولكنه لا يستطيـع ان يقـدم على عقابي إلا اذا كان الاسد يطمع بافتراس اسد من نوعه ..

واليك ابياتاً من القصيدة التي اغضبت الشيـخ :

بالله عليك بجاهتك يا خلوج
لا تفطنين قـلوب ناسٍ مرنين

انتِ غدا لِك حاشي تِقلْ بوجي
اللي الى َطبْ المبيعة يِعشـرين

وانا غدا ظاهر وسيـع الفجوجِ
اللي ببيته يشـبعون المساكين

خريصات فوق الخيل مثل البروج
على الكمين وغالي العمر مرخين

الشرح : كثيراً ما يبتدىء شعراء الزجل قصائـدهم بالتوجع ، ولا سيا اذا كانت نفسية الشاعر متألمة بدوافع الحزن .. وهكذا نجد هـذا الشاعر يسير على نهج من قبله لا في الشعر الشعبي بل حتى في الشعر العربي ، وما قصائد الخنساء في رثائها لأخيها صخر الا من هذا النوع ..

وشاعرنا هذا يعبر لنا عن شعوره في البيت الأول بمعنى انه كان كاظماً لحزنه وآلامه بعدما قتل صديقه ظاهر ، ولكنه رأى ناقة فارقها ابنها فظلت تحـن على فراقه وانه في هذه الحال تكدر وانزعج من منظر هذه الناقة التي اثارت شجونـه فراح ينشد قصيدته هذه مخاطباً بلسان حاله تلك الناقة (الخلوج) أي التي فقدت ابنها قائلًا لها :

ناشدتك الله ان تتركي هذا الحنين لأن حنينك هذا يذكرني حزناً عميقاً كنت احاول أن اتناساه ، ثم يعود في البيت الثاني ويقول : ان ابنك هذا الذي تقيمين

الدنيا عليه بجنينك حقير لا قيمة له فلو ادخل السوق للبيع لم تزد قيمته عن عشرين درهما، وفي البيت الثالث يقول : انني احق منك بالحنين والعويل لأنني فقدت ظاهراً، ذلك الفتى السخي الذي كان مأوى الايتام و كهف الارامل ومطعم للمساكين .. أما انت ايتها الناقة فأنك لم تفقدي الا حواراً حقيراً اشبه ما يكون بـ (البوجي)[1] وفي البيت الرابع امتدح الشاعر عشيرة ظاهر الاقربين وهم الخرصة واثنى عليهم جميعاً بشجاعتهم .

---

١ ـــ البوجي : الكلب الأفرنجي الصغير الحجم .



الفصل الثاني

حماية الجار وإكرامه

« من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره »
« حديث شريف »

لا يعاقب الجار حتى ولو كان مخطئاً

-١٩-

هناك قاعدة متفق عليها عند كافة رجال القبائل لا يعاب من يطبقها ولا يلام من يعمل بها وان يكن فيها ما يخالف الأسس الأصيلة من تقاليد العرب كحماية الجار والمستجير ، ولكنها نادرة الوقوع ، وإذا وقعت فلا بد من تطبيقهـا اللهم إلا اذا وقعت مع رجل شجاع منيـع الجانب شديد المراس كالحثي الذي تمرد على رئيس قبيلته بعدم اذعانه لتنفيذها .

وشرح هذه القاعدة يكون على الوجه الآتي:

عندما يقوم رجل من احدى القبائل بعمل سيء مع رجال القبيلة الثانية ، عند ذلك يأتي رئيس هذه القبيلة فيبلغ رجال قبيلته بصورة تعميمية قائلا : ان فلاناً (مرفوعة جنايته) ،، ومعنى ذلك ان هذا الرجل لا يستطيع أحد من رجال هذه القبيلة أن يجيره اذا استجار به وان أجاره فعلى رئيس القبيلة ان يرغم المجير ويقتل المستجير كما انه لا يعطي عهداً فإن احد من رجال القبيلة أعطى (لمرفوع الجناية) عهداً فعلى رئيس القبيلة أن يضرب بالعهد عرض الحائط ويعاقب المعاهد بما يشاء من العقاب ..

وكان رجل من قبيلة شمر يدعى (عايد الصلعا [1]) هذا الرجل رفعت جنايته عند قبيلة عنزة بأمر من رئيس القبيلة ابن هذال ..

وما على رجال قبيلته إلا ان ينفذوا أمر رئيسهم تطبيقاً للعرف المألوف..

وشاء القدر ان يأتي عايد الصلعا بمحض ارادته وينزل جاراً للخمشي[2] بدون ان يعرف طبعاً ان (جنايته مرفوعة) فيقع الخمشي بمأزق حرج .. لا يعلم ماذا يلاقيه من رئيس قبيلته ..

فرأى أن خير وسيلة يتخذها هي ان يخبر رئيس القبيلة بقدوم جاره وضيفه لعل الرئيس يسمح له ببقائه ، ويتنازل له عن تنفيذ القاعدة التي أمر رجال القبيلة بتطبيقها ..

فذهب الى الرئيس وهو مصمم على ما سوف يتخذه من قرار نهائي فيما اذا رفض الرئيس طلبه ، وأصر على مطالبته بتسليم المستجير ..

قال الخمشي :

– ان الرجل مرفوع الجناية أعني به عايد الصلعا نزل بجواري ضيفاً ، وما كان بودي ان يحرج موقفي مع رئيسي .. واعتقد جازماً ان الرجل لم يعلم شيئاً عن الاجراءات المتخذة بصدده ، ولو علم لما اقدم وغامر بنفسه .

ولذلك أرجو ان يعفو شيخنا عنه بعدما وقع تحت رحمتنا ..

فأجابه الرئيس بقوله :

---

١ – الصلعا من عشيرة الاسلم من قبيلة شمر نجد .

٢ – الخمشي من بطن يدعى بالسلقا من قبيلة عنزة .. وقد رويت القصة عن المرحوم دهيسان الخمشي المتوفي عام ١٣٦٣ هـ في مدينة الرياض .. ومن يعرف دهيسان يعرف عنه صدق الحديث وحفظه للاحداث والقصص الشيقة ..

- كان بالإمكان ان نعفو عنه .. فالعفو من شيم الكرام .. وتعرف كما يعرف غيرك من رجال العرب كم عفونا وتسامحنا عمن هم اكبر جريمة من هـذا .. وكنت أود لو انه جاء اليك قبل ان نتخذ بشأنه قراراً تعميمياً ..أما بعدما اتخذنا نحوه القرار الذي بلغت فيه القبيلة بجذافيره ، فلا يسمني والحالة هـذه الا تطبيق القاعدة المألوفة .. وإلا فلا يكون بعد ذلك لهذه القاعدة أي معنى من المعـــاني وسوف يبطل مفعولها .

- ترى لو استضافك هذا الرجل ولاذ بحماك كما استضافني ولاذ بحماي . ايمكن ان تنفذ هذه القاعدة به .. بل أيمكن ان تأخذه من بين يديك أية قـوة في الارض وانت على قيد الحياة ؟..

- حديثك هذا سابق لأوانه ..

- كما انني اعتقد جازماً بأن عايد الصلعا لو استجار بك فإنك سوف تجـيره وتحميه وتضرب بالقاعدة عرض الحائط ، فإنني سوف احميه مـــا استطعت ولن يستطيع أحد ان يناله بسوء ما دمت سليماً شديد القوى ..

لم يرق هذا الكلام للشيخ ابن هذال[1] ..

ذهب الحشي من عند ابن هذال وهو مصمم على انـ لا يمس مستجيره بأدنى ضرر اللهم إلا الضرر الذي ينال المجير والمستجير على حد سواء .. كما اشار الى هذا المعنى بصورة واضحة بأحد الابيات التي انشدها البطل من قصيدته الآتية :

قِصيرَنا مَا حِشْمِتهَ عندنا يَومْ
يَزيد مع زَايد سِنيِنْه وِقارَهْ

١ - فاتني ان اسأل الراوي عن اسم ابن هذال الذي وقعت معه الحادثة كما فاتني ان احتفظ باسم بطل القصة وانمـــا اكتفيت بأخذ القصيدة التي اوافي بها القاريء وهي خير شاهـــد في الموضوع .

الى قزتْ عينه قزينَـــا عن النومْ
والشيخ ما يكتبْ عليه الخَسَارهْ

دِونه نروّي كِل رِمحٍ ومسمومْ
نِرخص عمّار دون كسرْ اعتباره

عفو الظَـهر مضمون إلا عن القومْ
بيـوم يخلط اجارنا مع اجماره

كيف الطيورُ اللّيْ تـلابَدْ عن الحومْ
الناقَله ماكِرِدي الوكارهْ

شرهو على حقاتنـــا ماكر البوم
شرهو على فـتر صعيب دمـــاره

الشرح : يقول الشاعر في البيت الاول ان احترامنـــا لجارنا ليست مدته محصورة على يوم واحد فقط .. بل كلما زادت ايامه ازداد احترامنـا له وتضاعف وقاره عندنا ..

وفي صدر البيت الثاني يقول : اذا بلغ بجارنا همّ أسهره فإننـــا نسهر لسهره ولا يطيب لنا النوم ..

وفي عجز البيت يقول ان الضريبة والقيود التي يفرضها رئيسنا لا يمكن ان تفرض على جارنا .

وفي صدر البيت الثالث يقول : سوف نسقي أسنة رماحنا وأنصلة سيوفنا دماء من يريد ان يعتدي على حرمة جارنا وكرامته ..
وفي عجز البيت يقول: سوف نجعل حياتنا فداء لجارنا ونضحي بأرواحنا عندما نرى ان احداً يريد ان يهينه أو ينقص من كرامته أو ينال من احترامه ..

وفي البيت الرابع يقول أن حياة جارنا مضمونة اللهم ألا أن نصاب نحن وهو بسهام الاعداء في معركة نشترك فيها سوياً ..

وفي البيت الرابع والخامس يهجو الشاعر الوشاة الذين أثروا على ابن هذال بشأن طلبه تسليم جاره ..

ويقول : لقد اراد هؤلاء ان يخفروا ذمتي ويسودوا وجهي .. ولكن ذلك مستحيل تحقيقه [1] ..

---

١ – وبعد : فاننا عندما نذكر نفوذ الشيخ ابن هذال على قبيلته ونرجع البصر كرة اخرى لنقارن بين ابن هذال وبين الخمشي نجد ان الخمشي أضعف من ان يتحدى ابن هذال ، ولكن عندما نرجع الى تاريخ العرب بل ونرجع الى ما يحتويه هذا السفر بالذات نجد ان قضية المستجير عند العربي لا تقاس بالمقارنة من حيث القوة المادية ، فنجد مثلا المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود تحدى بريطانيا العظمى ومن دار بفلكها بشأن حمايته لمستجيره رشيد عالي الكيلاني.. كما نجد محمد بن سمير تحدى الامبراطورية العثمانية بعنفوان قوتها بشأن مستجيره شلاش المر ، ونجد سلطان الاطرش تحدى دولة فرنسا التي كانت وقتذاك تعتبر الدولة الثانية بقوتها بين دول العالم بأسره بشأن مستجيره ادهم خنجر.. ونجد بندر التمياط تحدى أميره محمد العبدالله الرشيد وفضل ان يعيش مشرداً عن بلاده من أجل جاره النخيش الحربي .. والقصص بهذا الشأن اكثر من ان تحصى. فقضية حماية الجار لا تقاس عند العربي بقوة السلطة..وانما تقاس بمقدار ما يتمتع به المجير من غيرة وانفة واباه وشجاعة وشم وشموخ انف ..

هذه المزايا هي المقياس .. وكل مقياس يتلاشى امام هذه المعاني الحية ..

لافرق لحرمة الجار في العرف العربي

بين الاساءة الكبيرة اليه او الصغيرة

- ٢٠ -

لم يكن لدى عرب البادية قانون مدون يعملون بموجبه ، كما هي الحال في عالم الحضارة والمدن ، وانما هنـــاك عادات وتقاليد ورثها الخلف عن السلف وتناقلها الاحفاد عن الاجداد ، حتى اصبحت هذه العادات وتلك التقاليـــد هي الحكم المعمول به في تطبيق حياتهم الاجتماعية .. ومن بديهيات الأمور انه لولا هـــذه التقاليد الموروثة التي يطبقها بعضهم على بعض بشدة لا هوادة فيها ولا رحمة ، لولا ذلك لا ختلت الموازين ، فالضيف مثلا الذي يأتي الى صحراء ليس فيها من يبيع الطعام الناضج إذا لم يجد عند ساكني هذه الفلاة من يضيفه فمعناه انه سوف يبيت على الطوى ، والمسافرون الذين يصاب احدهم بمرض او بأية آفة كانت اذا لم يتفانوا بنجدة رفيقهم مهما بلغ بهم الامر من المشقة فمعناه ايضاً أن هـــذا الرفيق سوف يتركونه في الفلاة لتفتك به السباع قبل ان يفتك به المرض او الآفة التي المت به .. والمستجير الضعيف الذي لا حول له ولا طول اذا لم يحمه مجيره من سطوة المعتدين فإنه سوف يذهب دمه أو ماله هدراً عند احد رجال العشيرة الطائشين .. ولكن

هذه الانظمة التي امست قواعد اجتماعية يسيرون بهديها ويتخذونها (دستوراً)عادلاً يحمي ضعيفهم من سطوة قويهم وينصف مظلومهم من ظالمه هي التي كانت خير حكم عادل يرجعون اليه في جميع تصرفاتهم وخير رادع لقويهم عن افتراس ضعيفهم .. وقد يبلغ الأمر في تطبيق عاداتهم هذه شيئاً من الاسراف الذي يتجاوز الحد ... ولكن هذا الاسراف على ما فيه من الشطط يرون أن القيام به ضرورة حتمية لامفر من القيام بتطبيقها ..

فخذ مثلاً حادثة جرت عند قبيلة حرب بطلها شخصان احدهما يدعى مناور القرد بفتح القاف والثاني محمد بن طريف وكلاهما من ولد علي والحادثة وقعت حوالي عام ١٣١٣ هـ .

كان لمناور القرد جار من قبيلة مطير ومن فخذ الصعران .. وكان هذا الجار قادماً بماء جاء به لأهله من قليب بعيد عن منازل الحي.. فالتقى بمحمد بن طريف فاشتد بين الجار وابن طريف الشقاق الى ان اعتدى الأخير على الجار وطعن قربته بمديته .. وكانت التقاليد تقضي بحالة كهذه أن يذهب المعتدى على الجار ويستجير في حمى احدى الشخصيات من رجال العرب سواء من قبيلته أو من قبيلة ثانية .. ولكن المعتدي لم يفعل أو ان المجير لم يدع له فرصة واعتقد ان الاولى هي الارجح اذ أنه لو أراد ابن طريف ان يستجير بإحدى شخصيات قبيلته لأمكنه ذلك ولكنه لم يحاول شيئاً من ذلك فيما يبدو من سياق القصة الامر الذي جعل مناور القرد ينتقم منه بسبب اهانته لجاره انتقاماً اودى بحياته .. وهكذا يبلغ عقاب المستجير بمن يعتدي على مجيره درجة من الاسراف : لأننا اذا قسنا ما فعله ابن طريف مع جار مناور نجد ان القضية لا تستحق قتل النفس بل من الجريمة ان تزهق نفس بريئة بسبب عمل كهذا العمل البسيط ولكنها التقاليد والعادات التي اصبحت

قوانين لا تتسامح ولا ترحم تلك القوانين التي يعتقد المؤمنون بها أن تقاعس مناوور القرد عن عقابه لابن طريف جريمة يعيبه بها مجتمعه ويمقته بل ويحتقره ..

المقصود هو ان حرمة الجار عند العرب مبدأ لا يتجزأ .. فالاساءة اليه سواء كانت كبيرة او صغيرة عقوبتها واحدة[1] .

---

١ ـــ رويت هذه القصة عن المرحوم الشيخ نافع بن فضليه وذلك في عام ١٣٧٣ هـ الموافق ١٩٥٣ في مدينة الطائف .

ثقوا انكم لن تأخذوا جاري ما دمت حياً

- ٢١ -

يسهل على العربي أن يهجر أرضه ويستبدلها بأرض غيرها، وان يهجر أهله وذويه وعشيرته الأقربين ويذهب شريداً طريداً الى أية ارض كانت والى أي قوم يكونون حتى ولو كانوا اعداءه الألداء ، كل ذلك سهل ويسير على العربي في سبيل حمايته لجاره ، بل يسهل عليه ان يعرض نفسه لغضب وعقاب السلطة الحاكمة مهما كان غضبها ومهما يكون عقابها كل ذلك يهون على العربي الشهم الأبي الشجاع ان يروض نفسه على احتمال المشاق وان يضحي براحته وماله بل وحتى بحياته عندما يستلزم الأمر الى ذلك..والشواهد في هذا الكتاب كثيرة والذي لم أوفق في العثور عليه اكثر بكثير مما وفقت الى جمعه ، وشاهدنا هنا عربي من قبيلة مطير ومن افذاذها البارزين وهو (لافي بن معلث[1]) الشهير بين رجال قبيلته ، بل وعند القبائل الأخرى في الجزيرة .. هذا الرجل الأبي عرض نفسه لعقاب حكومته الصارم فيما

---

١ – لافي من قبيلة مطير. ومن بطن يدعى بني عبدالله وهو شجاع ذائع الصيت ولا زال على قيد الحياة حتى كتابة هذه الأسطر . وقد رأيته في مدينة جدة سنة ١٣٧٧ – ١٩٥٨ م ، وكان آنذاك فيما يبدو لي في بداية العقد السادس اسمر البشرة مديد القامة خفيف الشعر وجهه كالسيف الصارم .

او ظفرت به السلطات لمـــا عرض نفسه ، الى ان يترك أهله وقبيلته وبـــلاده ويذهب (جلوياً) شريداً طريداً مدة طويلة ، كل ذلك في سبيل جاره ومن أجل جاره . .

كان ذلك في عام ١٣٥٤ هـ الموافق ١٩٣٣ م عندما جاء رجال أمير المنطقـــة الشرقية سعود بن جلوى ضيوفاً للافي بن معلث وفي الوقت ذاته قاصدين القبض على جاره المدعو عبدالمحسن بن ملعب[1] .

اتخذ ابن معلث نحو رجال الامير ابن جلوى موقفين مزدوجين: احدهما موقف اكرام واجلال لرجال الحكومة كضيوف ، والثـــاني موقف تهديد وانذار ، فأما الاول فإنه حالما نزل بساحته جنود الحاكم ذهب لافي واستدنا أسمن الاكباش وذبحه كضيافة لهم ، ووضع نفسه تحت امرتهم بمنزلة المضيف الكريم على النهج لذي أشار الى معناه الشاعر العربي :

وإني لعبد الضيف مـا دام نازلا

وما شيمة لي غيرها تشبـه العبدا

هكذا كان موقفه من ضيوفه ، وفي الوقت نفسه كان الرجل حذراً ، فاتخـذ جميع الاحتياطات اللازمة فـــيما اذا أراد رجال الامير ان يبدلوا موقفهم من ضيوف محترمين الى جنود خافرين لذمته ، معتدين على حرمة جواره ، عندئـــذ سوف لا يحدثهم بلغة المضيف وانما يحدثهم باللغة نفسها التي يحدثونه بهـا لغة القوة والنار، وان كانت قوته كفرد أقل وأضعف وأعجز من أن يقاوم رجال الحكومة الذين يستمدون سلطتهم لا من انفسهم ، وانما من حكومتهم ، ولكن الذي يبدو

---

١ – عبدالمحسن من قبيلة حرب .

ان القضية في حالة كهذه تعود الى قوة الإيمان بالمثل المعنوية التي يعتقدها العربي ، ويؤمن بقداستها اكثر من أية قوة اخرى ، وهذا هو الذي حصل فعــلاً بالنسبة لرجال الامير الذين كانوا في أول النهار ضيوفاً محترمين وفي آخر النهار انقلبوا الى نفر معتدين على حرمة مضيفهم متعمدين خفر ذمتـه ، أو على الاصح انقلبوا الى طبيعتهم كجنود مأمورين يتحتم عليهم بطبيعة عملهم ان ينفذوا ما يؤمرون به ، بدون أن يسألوا عن كنه الأمر ، أهو صواب أم شطط ؟..

وبقدر ما كان هؤلاء الجنود مخلصين بتنفيذ ما أمروا به ومستعدين لتنفيذ كل الأوامر حتى ولو كانت على اقرب المقربين اليهم، بقدر ما نجد لافي مستعداً هو الآخر أن ينفذ مـــا يمليه عليه ضميره العربي وما يؤمن به من عادات واخلاق عربيـة لا يتردد عن تطبيقها عملياً مهما كلفه هذا التطبيق من ثمن باهظ ..

وعندما انتهى الجنود من ضيافتهم اعلنوا غايتهم التي جاءوا من اجلها بصورة صريحة ، تلك الرغبة التي تدوز حول اعتقال جاره ، وعندئذ لا بـــد للاهداف المتباينة ان تصطدم بعضها ببعض ، ولا بد للجنود ان ينفذوا اوامرهم بدون ان تأخذهم رحمة أو رأفة ، وبدون ان ينظروا لحرمة مضيفهم الذي لا زال قراه في جوفهم لم يهضم بعد ، ولا بد للافي ان يكافح دون ما يؤمن بـه من شيم العرب ويناضل دون حرمة جاره الى آخر نقطة من دمه ، ولا بـــد للجنود ان يبرزوا عضلاتهم المفتولة مؤمنين بقوة سلاحهم ومعتمدين على سلطة حكومتهم ولا بد للافي أن يقف موقف العربي الشجاع الشهم معتمداً على قوة ايمانه بنفسه بعد الله ومنفذاً مـــا يمليه عليه ضميره العربي ، وهكذا اصطدمت القوتان : قوة سلاح الجنود الوفيين لتنفيذ أوامر السلطة وقوة ايمان العربي الوفي لتنفيذ التعاليم والشيم العربية بكل أمانة وتفان ، وتضحية ، وتأهب الجنود لتنفيذ ما أمروا به وشمر لافي عن ساعديه وحمل بندقيته الالمانية وتوشح بمنجده وحزامه المليء بالطلقات النارية وسدد فوهة بندقيته الى الجنود بعدما ابتعد عنهم مســـافة تجعله يثق من عدم استيلائهم عليه وقال :

- ثقوا انكم لن تأخذوا جاري ما دمت حياً .. ومن الخير لكم ان تعودوا

الى أهلكم مغتنمين السلامة ، وان لم تعودوا فسيكون لي معكم شأن ..

أصغى الجنود الى هذا التحذير الصادر من فتى لا ينطق الا بما يعتقده ، ولا تخرج كلمة من فيه الا وهو مؤمن بأنها عهد يتحتم عليه الوفاء به ، يضاف الى ذلك أن الجنود يعرفون (لافياً) (بوارديا) لا تخطيء رصاصته الهدف ، وشجاعاً لا يتسلل الى قلبه الخوف ، كل هذه المعاني جعلت الجنود يفكرون طويلاً بنتائج عملهم قبل الاقدام عليه ، وبالتالي قرروا ان يتركوا لافياً وجاره ، فكأنهم لم يروه ولم يرهم معتقدين بأنه سوف يجلو عن ارضه الى ارض الله الواسعة ويترك البلاد ومن عليها ، فذهبوا الى اميرهم بخفي حنين، مدعين ان (لافياً) (هرب) قبل ان يروه ، وكانوا صادقين في قولهم (هرب) لأنــه فعلاً هرب وترك البلاد وراح الى العراق ولم يعد الا بعد عدة سنين كما ذكرنا آنفاً [1] .

---

١ - ترى لو ان جنود الأمير ابن جلوى جاءوا الى لافي قاصدين ان يصادروا ابله او جميع ما يملك بصورة شاملة أيمكن ان يقاوم جنود الحكومة طبعاً لا ؟.. بل سوف يسلم ما يريدونه منه بدون تردد بل لو كان جنود الحكومة جاءوا يريدون ان يعتقلوه ويكبلوه بالاصفاد ويقودوه الى مصير مجهول لا يعلم ماذا يلاقيه ؟.. أقول أيمكن ان يرفض اوامر الحكومــة ، لو كان الأمر بهذه الصفة ..؟

الجواب كلا والف كلا..واذا سلمنا جدلاً وآمنا بالمستحيل وقلنا ان لافيا سوف يرفض الانصياع لطلب الحكومة فيما اذا أراد الجنود استلامه، أيمكن ان يكون ايمانــه بالدفاع دون نفسه كايمانه وصلابته وشجاعته وعناده واستماتته دون جاره ..

اترك الامر هنا لمن يعرف الخلق العربي والشيم العربية ليقول حكمه الفاصل ..

حتى ولو غضب الأمير

- ٢٢ -

كنت في شرخ الشباب ، عندما ساقني القدر الى معرفة ذلـك الشيخ الطاعن بالسن الذي تجاوز العقد التاسع من عمره والذي تبدو عليه علامات الفقر من المادة وعلامات غنى النفس في آن واحد، كما يبدو أنه من اولئك الرجال الذين يتوشحون بحلل قشيبة من الفضيلة والعفة والإباء ..

عرفته في بلدة حائل سنة ١٣٥٨ هـ وذلك عندما كنت ماراً في الشارع الذي يقع فيه بيته المتواضع الكائن بين المقصب القديم وبين منزل ابراهيم السالم السبهان ولم اتردد عن الرجوع اليه مسرعاً عندما ناداني بصوته الهزيل ..

ـ يا ولد ..

ـ نعم ماذا تريد يا عم ؟..

ـ انني كما تراني يا بني مقعداً ولي ابن يحملني على كتفه من بيتي ويضعني في هذا المكان لأتسلى وأخفف عن نفسي بعض الهموم برؤيتي للمارة في هــذا الشارع الرئيسي ، وعندما تدنو مني الشمس يأتي ابني فيحملني الى منزلي ..

والآن دنا مني حر الشمس وابني لم يأت ، فهل لك أن تفعل خيراً وتحملني ؟

قلـت :

- ابشر .. فحملته بدون أن ينالني كلفة فقد كان وزنه فيما يبدو لي لا يتجاوز ٣٠ كيلو غرام وحينما أدخلته في تلك الغرفة المتواضعة التي لم يكن فيها أي شيء من الأمتعة ولا من الفراش ما عدا حصير معمول من سعف نخل تلك البلاد عندئذ رفع الشيخ يده الى السماء وظل يدعو لي بدون أن يعرفني ، ثم بعد ذلـــك راح يسألني عن اسمي فعرفته عن نفسي ، وبالرغم من انني من مواليد حائـل ولكنني لا أعرف الشيخ واعتقد أن عدم معرفتي له يعود الى عاملين :

اولاً - انني تركت البلاد قبل بلوغي سن الرشد ولم اعـد اليها إلا بعـد مضي عشر سنوات ولم اقم فيها بعد عودتي هذه الا شهراً ..

ثانياً - أن الشيخ ليس من الجيل الذي يمكن أن اعرفهم ولا من شخصيات اهل البلاد المشهورين ، وهذا مما جعلني ابادله سؤاله عني بسؤال عنه فأجابني بأن اسمه فهد الرقابي ، ولما كنت كما ذكرت في مقدمة الجزء الأول من هـذا الكتاب (شديد الشوق والرغبة في حفظ القصص ذات الأهمية منذ نعومة اظفاري) فقد اعتقدت في تلك اللحظة الوجيزة انني سأجـــد في شيخنا المقعد ضالتي المنشودة ، فوجهت الى الشيخ السؤال التالي :

- ما هي حرفتك عندما كنت قوياً شديداً .

فقال : كنت نجاراً ..

فتضاءلت رغبتي لعلمي أن من يمتهن حرفة الصناعة ليس من الرجال الذين تؤخـذ عنهم قصص من النوع الذي أريده بحكم ابتعادهم عن عالم المغامرات المألوفة بعهـد عمنا الشيخ .. ولكن بالرغم من فتور همتي لم اياس من عدم وجود ما أريده في حياة رجل عاش قرناً ولذلك عدت وسألت ..

- هل سبق أن غزوت في حياتك أو سافرت الى بلاد بعيدة عن بـلادك ..
فقال :

لقد سافرت مرة في حياتي الى بيت الله الحرام حيث اسقطت فريضة الحج، ثم استطرد وقال : كما انني غزوت مع الأمير محمد العبد الله الرشيد في غزوته المسماة بغزوة (النقيرة) الواقع تاريخها في سنة ١٢٩٥ هـ فقلت :

– هل تعرف الأمير محمد عن كثب ؟..

فصمت قليلاً ثم قال : وهو يبتسم .

– أين أنا ومعرفتي للأمير محمد .. قلت :

– الم تقل انك غزوت معه غزوة النقيرة ؟.. فكيف بك لا تعرفه ؟ فقال :

– المعرفة يا بني معرفتين : معرفة مقصورة على رؤية العين ومعرفة المباشرة الشاملة التي يستطيع بها المرء أن يحلل شخصية الرجل تحليلاً كافيــاً .. ثم مضى الشيخ بحديثه الى أن قال : فإذا كنت تسألني عن المعرفة العابرة فانني استطيع أن اقول نعم : اعرف محمداً ولكنها معرفة رؤية لا تعدو أن تكون كرؤيتنا لإحدى النجوم ، اما المعرفة التي هي عن كثب كما تقول فأنى لي أن اعرف محمداً وأنا رجل لا صلة لي بالحكام والأمراء وكل ما في الأمر انني نجـار بسيط يقتات من حرفة النجارة لا له ولا عليه ..

لقد اعطتني العبارات التي قالها الشيخ اكثر من دليل على أن هـذا العجوز المقعد وأن كان نجاراً لا صلة له بالحكام ولا بالمجتمع كما يقول ، ولكن حديثه يدل على أن لديه من سعة المعرفة اكثر من كونه نجاراً لا يتجاوز حدود قدومه ومنشاره ، كما يبدو من حديثه انه من نوع الرجال الصدوقين الذين يحرص كاتب هذه الاسطر على نقل احاديثهم بكل امانة واخلاص ..

ولذلك عدت أوجه اليه اسئلة كثيرة قاصداً أن اوقظ ذاكرته فيما اذا كان رأى بحياته الطويلة أو سمع شيئاً من القصص التي تسترعي الانتباه .. ومن جملة

الاسئلة التي وجهتها اليه اسئلة تتضمن رغبتي منه أن يفيدني عما يعرفه أو ما سمع به عن الرجال المقربين عند محمد العبد الله اعتقاداً مني أن الحاكم لا يستطيع المرء أن يقف على حقيقته ويحلل شخصيته الا بمعرفته لرجاله الذين يتولى بنفسه اختيارهم لهم .. ولذلك ذهبت اسأل الشيخ عما يعرفه عن سبهان السلامة الذي كان صاحب الكلمة الأولى والأخيرة عند الأمير محمد بصفته وزير المال والرأي وصهر الأمير كما سألته عن رجال كثيرين من المقربين من محمد العبد الله،وقد شعرت أن الشيخ يجتر شيئاً من ذكرياته عن اولئك الرجال الذين عاصرهم فسرعان ما قال :

– رحم الله اولئك الرجال ..

فصمت قليلاً ثم تنهد وقال :

– أن بعضاً من اولئك الذين تسألني عنهم لست ممن له بهم صلة ، اللهم إلا أنه جاءت مناسبة لم تكن لي بالحسبان ، ولكنها كانت مناسبة طيبة ، وكانت سبباً مباركاً حيث انتقلت بها من قروي يسكن بيتاً متواضعاً فيقرية الروضة [1] الى بيت اصبحت فيه جاراً لسبهان جنباً لجنب) ..

وبالطبع ازددت رغبة وحرصاً على أن اسأل الشيخ عن كنه هذه المناسبة فقلت :

– ما هي هذه المناسبة يا عم فقال :

– شرحها يا بني طويل وأنت الآن قد يكون لديك عمل تريد ان تذهب اليه ..

---

١ – الروضة قرية من احدى قرى مدينة حائل .

– ليس لدي من الاعمـــال ما يشغلني عن استماع حديثك الشيق مهما طال الوقت .

– سبق أن قلت لك يا بني بأنني غزوت مع محمد العبد الله غزوة النقيرة ..

– أجل ..

– في تلك الغزوة بالذات حدثت مناسبة غريبة كان من نتائجها أن وصلت الى بساط الامير وكانت هذه أول مرة بحياتي اجلس في مجلسه كما أنها آخر مرة أيضاً .. قلت :

كيف كان ذلك ؟ قال

بينما كان الأمير محمد جالساً يحيط به جلساؤه من امراء ورؤساء البدو ووجهاء البلاد فيتبادل واياهم الحديث الذي دائماً مـــا يكون ذا شجون ، حيث انتقل الحديث الى ما هو حسن من اسماء الرجال وما هو قبيح ، وكان من جملة الاسماء التي لم يستحسنها الامير اسم (بندر) وكان بعض الحاضرين من جلسائه لا يوافقونه ومن لم يعارضه لم يؤيده الرأي ، فقال المعارضون ان اسم بندر من أحسن واجمل الاسماء واستدلوا على ذلك بعدة اسماء من الامراء ورؤساء القبائل كالشيخ بندر ابن سعدون شيخ قبيلة المنتفق وكبندر التمياط رئيس عشيرة التومان ، وكلا الاثنين فارسين مشهورين وغيرهمـا .. ولكن الامير لم يقتنع بل ازداد اصراراً على رأيه وقال : ان هذا الاسم مزدوج يسمى بـه النساء ففند المعارضون رأي الامير وقد اشتد الجدل بينهم بدون ان تقوم الحجة على احـد الجانبين وكان الذين يجادلون الامير واثقين ان الصواب بجانبهم ويعتقدون ان السر الذي يجعل الامير يكره اسم بندر ناتج عن كرهه لابن اخيه بندر الذي كان اول قاطع رحم في اسرته ، هكذا كانت عقيدة المعارضين ، بينما كان الامير متأكداً بأنه يوجد فتاة اسمها بندر ، وعلاوة على ذلك يعرف اسم القرية التي تقيم فيها تلك الفتاة من قرى بلدته حائل ، وهذه القرية هي قرية الروضة كما يعرف والد الفتاة وأهلهـــا

ومكان بيت اهلها من القرية ، كان يعرفها حينما كان يتجول في الارض قبل ان يكون أميراً .

حاول الامير ما استطاع ان يقنع معارضيه ، ولكن محاولته كانت ضرباً من العبث ، وبالتالي قال الامير : فليذهب احدكم ، مشيراً الى احد جنوده ليأتي الينا بأي شخص من اهل الروضة ليثبت صحة ما قلته .

ويمضي الشيخ في سرد القصة الى ان قال : وفي الحين الذي كنت جالساً به بين رفاقي الذين من طبقتي ، وبدون سابق انذار جاءني جندي الامير وقال :

– أأنت من اهل الروضة ؟ قلت : نعم.. فقال : هيا بنا .. فقلت: الى اين؟ فقال : الى الامير ..

وقد توقف الشيخ الرقابي لحظة عن مواصلته الحديث ليروي لي الشعور الذي ساوره عندما قاده جندي الحاكم ، وافهمه انه ذاهب به الى بساط الامير فيقول : لقد ارتعدت فرائصي وخارت عزيمتي ولصق لساني وظللت اتصبب عرقاً فرحت أسأل الجندي ماذا يريد مني الامير ؟.. فأجاب : لا أدري ..

ويسترسل الشيخ بحديثه فيقول : لقد تذكرت المثل القائل «كم زج في السجن من مظلوم» ، ولا زلت في حالة ارتباك واضطراب ، ولكنني عندما دنوت من مجلس الامير تشجعت فدخلت نادي الامير المهيب الحاشد بالرجال الذين لا اعرف منهم إلا القليل ، وبعد لحظة قليلة اديرت فيها اكواب القهوة ، عند ذلك اتجه الامير اليّ وقال:

– أأنت من أهالي الروضة ؟..
– نعم ..
فقال : ابن من ؟..
– ابن محمد الرقابي ..

يقول الشيخ ان الامير بعدما سمع اسم والدي ابتسم ابتسامة عريضة تدل

على انه عرفه وعرف منزله بدليل انه انحرف الى رفاقه الجالسين وقال :

ـ لقد انتهى الاشكال .. ثم تابع كلمته هذه بكلمة اخرى موجهة منه الى جلسائه قائلاً لهم :

ـ ألا ترضون هذا الشاب حكماً في الموضوع ؟.

فأجابه الجالسون بنعم .. ثم اتجه نحوي وقال :

ـ أليس بيت والدك ملاصقاً لبيت فلان جنباً لجنب .. (يقصد بيت والد الفتاة) ؟..

يقول الشيخ : قلت بلى ..

فقال الامير : أليس لجاركم بنت تدعى « بندر » ؟..

قال الشيخ :

لقد ادركت الآن السبب الذي دعيت من اجله وهان عليّ الأمر ولكنني في الوقت ذاته شعرت بثقل العبء الذي واجهته ، فالقضية لها علاقة باسم ابنة جارنا ، ومجرد ذكري لاسم ابنة جاري في حفل كهذا أمر أعاب به .

ويمضي الشيخ بحديثه ويقول: لقد ظللت ثواني وانا افكر في الأمر ، لا ادري ماذا أجيب الامير .. أأقول له نعم اسمها بندر وهذه هي الحقيقة ، ولكن كيف بي أذكر اسم جارتي بهذا النادي وأنا لا أعلم ماذا وراء هذا السؤال ؟.. أم أكذب الأمير وهو صادق بما يقول ؟..

ويزيد الشيخ وضوحاً فيقول : بينما كنت في حيرة في أمري عاد الامير وكرر السؤال نفسه.. فيقول الشيخ : كنت قد اتخذت بيني وبين نفسي القرار النهائي فأجبت الامير قائلاً :

ـ اذا يسألني طويل العمر عن أسماء أبناء جاري الذكور فانني استطيع أن

أسرد اسماءهم واحداً واحداً أما الأناث فإنني لا أعرف اسم أية واحدة منهن .. فيقول الشيخ : لم يرض كلامي هذا الامير . ولذلك أمر بأبعادي عنـــه ، فخرجت مطروداً ولكنني غير نادم على طردي ..

الوزير العاقل الشهم

ويواصل الشيخ القروي حديثه الى ان قال : وفي أثناء خروجي لحق بي وزير الامير وصهره سبهان السلامة ابن سبهان وأمسكني من كتفي وقال :

ـ لقد أغضبت الامير ، أليس من الخير لك أن تعود اليــه الآن وتقول لقد كنت ناسياً اسم الفتاة والآن ذكرتها .. قل ذلك حتى ولو لم تعرفهـا وليس في الأمر شيء يخيف ..

يقول الرقابي عندما حدثني الوزير بهذه العبارات أجبته قائلا :

ـ ان الامير صادق من حيث اسم الفتاة ولكنني لن ارضى لنفسي أن اذكر اسم ابنة جـــاري في ناد كبير كهذا النادي وانا لا أعلم ماذا يراد من وراء معرفة اسمها ..

يقول الشيخ ما ان انتهيت من حديثي هذا مع الوزير حتى تراجع الوزير عن طلبه لي بأن أعود الى الامير وراح يربت على كتفي وفي الوقت ذاتـه بعث معي أحد رجاله ليأتوا بأمتعتي من الخيمة التي فيها رفاقي ووضعني في خيمته ضمن حاشيته المقربين فتبدلت حياتي الاجتماعية في تلك الغزوة من خيمـة القرويين الى خيمة الوزير ومن معيشتي مع أبناء القرية الى معيشتي من مائدة الوزير ، وظللت في جوار الوزير حتى انتهت الغزوة وظننت ان القضية انتهت عند هـــذا الحد ، ولكن الذي لفت نظري كلمة قالها لي الوزير عند موادعتي له حيث قال :

– دعك في قريتك حتى يأتيك مني خبر ..

بيت بلا ثمن

ويقول الرقابي ذهبت الى اهلي وبقيت فترة من الوقت ولم اشعر حتى جاءني رسول من الوزير يطلب مني ان آتي اليه في حائل . ولم أتردد طبعاً عن تلبية طلبه وعندما وصلت هناك أنزلني بضيافته أول ليلة وفي اليوم الثاني أخذ بيدي حتى أدخلني بيتاً كبيراً مجاوراً لبيته جنباً لجنب ثم تناول مفتاح هذا البيت وقال : خذه فانه هبة الك .. ثم أردف الوزير قائلاً : لقد وهبتك هذا البيت لأمرين :

الأمر الاول – تقديراً مني لموقفك المشرف في نادي الامير من اجل جارك..

الأمر الثاني – هو ان هذا البيت كان ملكاً لجاري السابق المدعو سليمان بن جمعان ، وكان ذلك الرجل جار سوء بصورة شكا منه نساؤنا اكثر من مرة وكان من جملة اساءته الينا انه قام وثقب في جدار منزله ثقباً حتى إذا غفلت نساؤنا راح يشرف خلسة عليهن من خلال ذلك الثقب وهو يظن انني لا اعلم شيئاً عنه ،ولكنني ظللت صابراً على اذيته لأمرين :

الأمر الاول – انه باستطاعتي بكل سهولة ان اتخذ نحوه اجراءات تأديبية ولكنني لو فعلت ذلك فإنه سوف يشاع عني بأنني استعملت نفوذي وجاهي عند الحاكم وعاقبت جاري ظلماً .. وسوف يجد اعدائي مجالاً يشمتون به ، ومن الذي يستطيع ان يقنع السواد الاعظم بأن هذا الرجل الضعيف هو البادي بظلمه والمؤذي لحرمي ..

والامر الثاني هو انني لو اقدمت على عقابه وطردته من بيته بأية وسيلة كانت من يضمن لي بأنه سوف يأتيني جار صالح شريف يرعى حرمة الجوار ؟.. ومن

يدري قد يأتيني جار اسوأ افعالاً من الاول، ولذلك صبرت على جار السوء حتى سمعت ورأيت موقفك النبيل من أجل جارك في نادي الأمير ساعتذاك قررت بأن اغرى جاري السابق واشتري بيته .. وقد فعلت ذلك ووفقت .. والآن اصبح البيت ملكاً لي وأنا بدوري اهبك اياه تقديراً لوفائك مع جارك الاسبق..[1]

---

١ – توفي بطل القصة رحمه الله بعد ان نقلت منه هذه الرواية بعامين.. ولما كان المرحوم عبدالعزيز اليوسف العتيق المتوفي سنة ١٣٧٧ - ١٩٥٧ ثقة وفي الوقت ذاته يعرف الرقابي جيداً فقد سألته عن القصة لازداد ثقة من صحتها فأكدها لي وزادني يقيناً بأن الرقابي صدوق بحديثه وثقة بروايته .

ضحى بأعز ما يملك من اجل جاره

-٢٣-

تلك سنة الله في خلقه ولن تجد لسنته بديلًا ، ولكل أمة من الأمم عادات مألوفة تكون عند هذه الأمة حسنة وقد تكون عند الأمة الاخرى قبيحة، ولهذا نجد القرآن الشريف صور لنا هذه الظاهرة بأروع ما يمكن ان يعبر عنها إذ قال جل شأنه : «وزيّنا لكل أمة عملهم » ..

وعند العرب وخاصة الذين هم على فطرتهم وسجيتهم الصحراوية، تبلغ التضحية والايثار على النفس حداً لا يتصوره الخيال وهذه التضحية وذلك الايثار لا يبرزان في أوضح معانيها إلا في حالة معينة كنجدة الرفيق وكالمكافأة على المعروف وكحماية الجار الخ .. وفي حدود هذه المعاني نجد ان العربي يضحي بنفسه وبولده وبكل ما يملك عندما يدعو الداعي..

وكل من درس ادبهم القومي وحياتهم الاجتماعية يتضح له بجلاء ان العربي يرأف بماشيته ويعتني بسقيها ورعايتها ويحرص على تنميتها وراحتها اكثر بكثير من حرصه على عنايته بنفسه ، والأدلة على ذلك اكثر من ان تعد ، ولا بد لي هنا من ان اقدم الادلة والشواهد على ذلك اكثر من ان تعد ، ولا بد لي هنا من ان اقدم الأدلة والشواهد على هذه الحقيقة ثم آتي بالأدلة والشواهد التي تثبت بأن هذا العربي

الذي يجعل من نفسه خادماً لإنعامه مرعان ما يضحي بها عندما يفاجئه القـــدر بامتحان يضطره الى الاقدام على احد الامرين ، اما ان يضحي بماشيته على حساب اكرامه جاره واما ان يضحي براحة جاره في سبيل سلامة ماشيته ..

اقول : لا بد أن اقدم الادلة على ذلك كشاهد لقصتنا الآتية ثم أورد فيما بعد الأدلة والشواهد المؤكدة للمعنى الثاني ..

واذا حاولت ان آتي بالأدلة التي تثبت بأن العربي يؤثر ماشيته على نفسه ، فإنني لن أجد شاهداً أصدق أو دليلًا أبلغ من الآية الشريفة التي جاءت في سورة السجدة ونصها كما يلي : « أوَ لم يروا أنّا نسوقُ الماءَ إلى الارضِ الجرز فنخرجُ به زرعاً تأكلُ منه أنعامهم وأنفسهمْ أفلا يبصرون » .

كنت قرأت هذه الآية وسمعتها أكثر من عشرات المرات ولم اتصور معانيهـا بدقة وعمق حتى اسمعني المرحوم الشيخ عبد اللهالصالح الخليفي قاضي المدينة المنوره سابقاً والمتوفي رحمه الله في عام ١٣٨١ هـ ١٩٦١ م سؤالاً وجهه اليه شخص مـــا يتضمن استفسار السائلعن الآية سالفة الذكر وعن الآية التي في سورة طه المتضمنة قوله تعالى : « كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى » ..

وكان السائل يود ان يستوضح عن السر الذي بموجبه قدم البـــاريء في الآية الأولى الأنعام على البشر بينما هو في الآية الثانية قدم البشر على الأنعام ..

فكان جواب الشيخ الخليفي في تفسيره للآية الاولى ان قال ان الآية التي في سورة طه تشير بمفهومها الى قوم موسى الفراعنة لأنهم يؤثرون انفسهم على انعامهم وأمـــا التي في سورة السجدة ، فمفهومها يعني العرب لأنهم يؤثرون انعامهم على أنفسهم ..

هذا تفسير قاضي المدينة الخليفي ولديّ من القرائن الشيء الذي يؤيد هـــذا التفسير خاصة بما له علاقة بإيثار العربي ماشيته على نفسه وذلك انني شاهدت بعيني

وآمي وسمعت بأذنيّ عربياً من قبيلة شمر ، في الحين الذي كنت به ضيفاً في بيت المرحوم الشيخ هباس بن هرشان عام ١٣٦٢ هـ ١٩٤١ م يدعى (ساكت)[1] سمعته يقول :

أمسيت الليلة الماضية في مكان ناء عن اهلي وابلي مما اضطرني الى أن أبيت على الطوى ، فسأله أحد الحاضرين قائلا له :

– لماذا لم تحلب احدى نوقك وتنتعش من حليبها ؟. فأجاب ساكت بقوله :

– ان حليب الناقة هو جزء من دمها ..

معناه انه فضل أن يبيت على الطوى على ان يحلب ناقته لئلا تسوء صحتها ويتلاشى دمها ، هذا شيء سمعته ولو نقل اليّ لكدت أشك في صحته .

* * *

وشاهدنا من هذه الأدلة هو كما أسلفنا ان العربي وان يبلغ به ايثاره لأنعامه الى هذا الحد فإنه عندما تصطدم سلامة ماشيته ، وحرمة جــاره ، فإنه على أتم الاستعداد لأن يقدم ماشيته كلها ضحية في سبيل حرمة جاره وشاهدنا المحسوس المادي على ما نشير اليه هو ما وقع مع هجرس[2] بن عاش وجاره العنزي ، اللذين نوافي القارىء بقصتها على الوجه الآتي :

كان ذلك بين عام ١٢٩٠ هـ و ١٢٩٥ هـ عندما جاء هجرس بن عايش وجــاره بماشيتها الى احدى الآبار الكائنة في شمال نجد التي لا يقل بعد مائها عن سطح الارض مسافة اربعين متراً وكان الفصل صيفاً شديد الحرارة .. وصبر الغنم عن الماء يختلف اختلافاً كلياً عن صبر الابل واذا الابل تصبر اياماً كثيرة عن الماء ، فإن الغنم لا تطيق الصبر عن الماء في أيام الصيف اكثر من ساعات معينة ، يعرفها رجال البادية ،

---

١ – ساكت من قبيلة شمر نجد من عبده من بطن يقال له الويبار توفي عام ١٣٦٦ هـ .

٢ – هجرس من قبيلة شمر نجد ومن التومان .

وإذا تجاوزت هذه المدة المحدودة يكون مصيرها الهلاك لا محالة ، كان بعد الماء وشدة حرارة الشمس المحرقة يجعلان كلا من هجرس وجاره يدركان ان الظرف لا يتحمل أن ترتوي غنمها جميعاً ، فأما ان تسقى غنم الجار على حساب هلاك وموت غنم المجير وإما العكس .. كانت غنمها تتنافض تثغي بشدة من تأثير الظمأ ، وحتى لو أراد احدهما أن يسقي غنمه مسبقاً على غنم صاحبه فانه لا يستطيع أن يقوم بعملية كهذه حتى يحجز غنمه عن اقتحامها الماء لكي يتسنى لها الشرب وحدها، وفي خضم هذا الامتحان الشديد بالنسبة للمجير الذي تصارع في نفسه تلف غنمه التي هي من اهم مصادر رزقه ، أو تلف غنم جاره الذي يعتبره في عهدته ومسؤولاً عن حمايته وعن أقل جفاء يحل به ، في تلك اللحظة الوجيزة الحاسمة ، قام المجير واتخذ الاجراءات التالية :

اولاً ـ أنه عمد الى نفر من ذويه الأقربين أن يتولوا اخراج الماء من ذلك البئر العميق بقدر ما يمكنهم من السرعة ليسقوا غنم جاره..

ثانياً ـ اسند الى نفر آخرين من اقاربه أن يتولوا حجز غنمه عن شرب الماء حتى تنتهي غنم جاره لكي لا تهجم غنمه على حوض الماء الذي تشرب منه غنم جاره بحكم أنه لا يتحمل غنم الجهتين .

ثالثاً ـ عهد الى رعاة ابله ورعاة أبل اقاربه أن يحلبوا أبلهم بقدر ما استطاعوا من السرعة لكي يمزجوا الحليب بالماء في الحالة الاضطرارية التي يتوقع بها أن يفتك الظمأ بغنم جاره قبل أن ترتوي جميعها بحكم عمق البئر لان اخراج الماء منه يستغرق وقتاً طويلًا .. وقد كان موفقاً بعمليته هذه الأخيرة بحيث كان حليب الأبل مما ساعد كثيراً على اسعاف غنم جاره وانقاذها من الهلاك وذلك لأن ما توقعه من بعد الماء الذي لا يخرج بسهولة حصل فعلاً مما جعل لحليب الأبل الأثر الفعال في اسعاف ونجدة غنم الجار التي ظلت تشرب من حليب الابل الممزوج بالماء أي أن ما نقصها من الماء كمله الرجل من حليب ابله ..

وقد ظلت غنم الجار تشرب من الماء الممزوج بالحليب حتى ارتوت عن بكرة

ابيها ولما لم يبق الا الحمار الذي يركبه راعي الغنم فقد شاء الراعي أن يمنعه عندما أقبل الى الحوض يريد أن يشرب ولكن المجير أصر بإلحاح الا ان يشرب حتى يرتوى.. فشرب ذلك الحمار الأسود كما وصفه الرواة حتى صدر عن الحوض وشفتاه السوداوان عليهما مسحة من بياض رغوة الحليب ..

وبعد ذلك فتح رواق البيت عن غنمه التي كانت محجوزة في بيته فوجدهـا قد فتك فيها الظمأ وماتت كلها عن بكرة أبيها ..

ومن هذه القصة وأمثالها يبدو لنا الأمر جلياً بأن العربي اذا كان يؤثر انعامه على نفسه فإنه يؤثر ضيفه وجاره والمستجير به على انعامه . والقصة مشهورة

هاجر عن ذويه وعادى حاكمه من اجل جاره

- ٢٤ -

صاحب هذه القصة هو بندر التمياط[١] من أشهر فرسان قبيلته، وأشمهم أنفاً، كان له جار من قبيلة حرب يدعى «براك النخيش»، مضت أيام طويلة والنخيش بجوار بندر موفور الكرامة شأنه شأن أي جار عند أي عربي شهم كريم كبندر التمياط، وفي اثناء اقامته عند التمياط ضاعت احدى نياقه في الفلاة ، فراح يسأل عنها هنا وهناك ، وبعد الجهد والعناء الكثير وجد من يؤكد له ان ناقته دخلت حمى الأمير محمد العبد الله الرشيد وظلت مـــدة من الايام بدون ان يأتي احد يسأل عنهـا . وكانت العادة المأخوذ بها تقضي بأنه عندما تأتي ناقة كهذه وتدخل الحمى الخاص بهجن الامير تترك مدة معينة فإن جاء صاحبها خلال هذه المدة تسلم له بعد تهديد ووعيد الرجال المنتدبين من قبل الأمير لهذه المهمة ، أما إذا مضت المدة المحددة ، قبل ان يأتي صاحب الناقة فعندئذ يوضع على الناقة (وسم الامارة) ومتى ما وضع عليهـــا الوسم اصبحت ملكاً للامارة . ولا يمكن ان تعود الى صاحبها إلا بأمر من الأمير

---

١ - بندر التمياط رئيس عشيرة التومان من قبيلة شمر .

نفسه . والوسم هو عبارة عن سيخ حديد يوضع بالنـــار ثم يكوى به رقبة الناقة أو فخذها فهذا يكون بمثابة علامة فارقـة يستدل بها بملكية الابل بعضهـــا عن بعض ..

كانت ناقة الحربي قد تجاوزت المدة المحددة قبل أن يأتي صاحبها ولذلك اصبح من حق الحماة أن يضعوا عليها وسم الامارة . ولم يكن والحـالة هذه لدى الحربي من وسيلة يبذلها إلا ان يعود الى الشيخ بندر يخبره بما تم من مصير ناقته التي اصبحت تحت قبضة الحماة ، وما من سبيل الى اعادتها لصاحبها إلا بعد مراجعة الامير نفسه ، وحتى الامير إذا علم ان الناقة تجاوزت المدة المحددة بدون ان يأتي اليه صاحبها وان رجاله وضعوا عليها الوسم ، إذا علم بذلك فإنه قد يمنح التمياط ناقة تكون خيراً من ناقة جاره وأغلى ثمناً فيما إذا أراد ان يبتاعها ، ولكنه ليس من السهل أن يعيد عليه الناقة ذاتها التي وقع عليها العقاب ، وهذا ما حصل فعلاً ، عندما جـــاء التمياط يراجـع الأمير بشأن ناقة جاره ، اظهر الاخير استعداده لأن يقدم للتمياط ناقة أحسن من ناقة جاره الحربي أما الناقة نفسها فقد رفض الأمير ان تعـــاد الى صاحبها بعدما تجاوزت المدة المحددة ووضع عليها الوسم ، وفي الوقت نفسه رفض بندر التمياط ان يقبل بناقة جاره أية ناقة اخرى بدلاً عنهـــا مهما كان البدل أثمن وأجمل من ناقة جاره، وكان لا بد للأمير ان يقابل اصرار التمياط باصرار مضاعف وكان للتمياط أيضاً أن لا يتراجـع عن اصراره ولو أدى الأمر الى ان يفصم صلة القربى القبلية المرتبطة بالأمير ارتباطاً قوياً ، بل عليه في سبيل ناقة جاره ان يعلن الحرب على الأمير ، وان كان يعتقد جيداً انه مهما بلغ من القوة لا يعـدو عن ان يكون رئيساً لبطن من قبيلة شمر محدود العدد ، وان كان رجـال ذلك البطن معروفين بالفروسية التي نالوا بها شهرة ممتازة ، ولكنه مهما يكن من أمره فإنــه

أعجز وأضعف عن ان يتحدى سلطة وقوة الامير الذي يحكم شمال [1] شبه الجزيرة وقتذاك ..

بدل الناقة الواحدة نياق كثيرة بالقوة لا بالرضا

ومع ذلك فان التمياط عازم على ان يعلن عداءه للامير مهما كلفه ذلك من ثمن غال . وذلك من أجل ناقة جاره فراح وصب غارته على هجن الامير في حماها ، ونهب منها ما استطاع الحصول عليه ودفع لجاره عوض ناقته عدداً من خيرة (هجن) الامير النجائب ، ومضى في سبيله الى الاراضي السورية تاركاً بلاده نجداً ومعادياً لأميره ولقبيلته معاً .. حيث ظل مستجيراً عند الشيخ جدعان بن مهيد رئيس قبيلة الفدعان ، ولم يسع محمد العبد الله الا أن ثارت ثائرته وجهز جيشاً لجباً لغزو ابن مهيد في الحدود السورية لعله يظفر برأس التمياط ، فخرج من بلاده يقود من الفرسان والهجانة عدداً هائلاً لا قبل لابن مهيد بمقاومته ..

واليك قصيدة وجيزة لشاعر من قبيلة ابن مهيد يصف كثرة جيش محمد العبدالله العرمرم عندما غزا ابن مهيد :

البارحـــة بالليـــل اسمـــع رزيمه
وأخاف منهـــا كان مثلي تخافون

---

١ ـ الحادثة هذه وقعت قبل معركة المليدا الكائنة بتاريخ ١٣٠٨ هـ ١٨٩١ م لأن محمد العبدالله لم يتجاوز حكمه شمال نجد الا بعد تلك المعركة . والدليـــل ان هذه الحادثة كانت قبل المليدا هو ان التميـــاط هرب من نجد واستجار بأبن مهيد رئيس قبيلة الفدعان القاطنين ارض سورية وجاء محمد وغزا ابن مهيد،وفي تلك الغزوة قتل احد فرسانه وهو حمـــد الزهيري ابن عربان احد فرسان الفدعان . ومعروف ان الزهيري قتل في معركة المليدا سنة ١٣٠٨ هـ .

(ذِرْواتْ)[1] تال الليل أوحى حطيمه
ميل تَحَدَّرْ مِنوِي لو تعذلون

هذا الخصيم اللي يَخَوِّفْ خصيمه
مقيم ثلاثة أيام وانتم تهجُون

لا والله إلا ضامنا بالهزيمة
يا مِنوةَ الغزايْ واللي يفيدون

ابن عليّ مفجعات حريمه
هاذي مضت واللي تجي وش تسوُون

الشرح : يقول الشاعر في البيت الاول : انني في الليلة الماضية سمعت دوياً مخيفاً .. فهل سمعتم يا قومي هذا الشيء المخيف وخفتم من عواقبه كما أصابني الخوف منه .

ويشرح الشاعر في البيت الثاني هذا المعنى فيقول : ان الذي سمعته البارحة ليس إلا صوت خيل وهجن الامير الذي له دوي كدوي النحل .

وفي عجز البيت الثاني يقول : ان جيش الامير أشبه ما يكون بسيل الوادي الجارف الغزير الذي لا بد له من ان يجرف كل شيء يقف في سبيله وان لا فائدة من محاولة صرفه عن مجراه الطبيعي ..

وفي البيت الثالث يقول : ان قوة عدونا تفوق قوتنا ومن أوضح الادلة على ذلك ان خصمنا بعدما غزانا في عقر دارنا ظل نازلاً في ارضنا التي غزانا بها بينما نحن

---

١ - ذروات : اسم لهجن ابن رشيد .

لذنا بالفرار ثلاثة ايام على التوالي ، ونحن نتابع سيرنا في الهزيمة .. ومعنى البيت الثالث قريب من معنى الذي قبله ..

وأما البيت الخامس فقد أشار الشاعر الى مصرع الفارس ابن عربان وما أصاب حرمه من الفاجعة بقتله ، وفي عجز البيت يقول : هذه المرة وقفت القضية الى هذا الحد ، ولكن ما الذي يجب أن نفعله في المستقبل ، وكأنه يريد من قومه أن يصلحوا أمرهم مع محمد بدون ان يسلموه المستجير طبعاً ، أي التمياط .

هذا وقد ظل بندر التمياط بجوار جدعان بن مهيد مدة طويلة .. وأكثر الروايات تفيد انه لم يعد الى بلاده ، وقبيلته إلا بعد أن توفي محمد العبد الله حيث حضر وقعة الطرفيه الكائنة عام ١٣١٨ هـ ١٩٠١ م بين مبارك الصباح وعبدالعزيز ابن متعب الرشيد كما كان له في تلك المعركة العنيفة موقف بطولي ذكرته في مكانه المناسب ..

والذي تجدر الاشارة اليه هو ان بندر التمياط عندما كان مستجيراً بابن مهيد، في تلك الأيام كان رجال عشيرته أي المسمين التومان هؤلاء كانوا بحالة لا يحسدون عليها من الدعاية السيئة التي الصقت بهم عند كلتا القبيلتين ، سواء عند قبيلتهم شمر أو عند قبيلة ابن مهيد عنزة ، فان جاء قبيلة شمر غزاة من عنزة قال الشمريون : ان الذين يخبرون عدونا عن منازلنا واوقات غفلتنا ليس إلا أبناء قبيلتنا التومان الذين ذهبوا الى أعدائنا وراحوا يخونون قبيلتهم ويدلون العدو على أرضنا ومراعي ابلنا الخ ..

وأما اذا غزت قبيلة شمر عنزه فعندئذ ذهب هؤلاء يتحادثون فيما بينهم همساً قائلين : « ان الذين يدلون غزاة قبيلة شمر ليس إلا هؤلاء المستجيرين فهم وحدهم الذين يبعثون رسلاً من عندهم سراً ليخبروا رجال قبيلتهم عن منازلنا ...

هكذا كان واقع أمر عشيرة التمياط أثناء وجودهم عند ابن مهيد فهم في رأي

قبيلتهم أو على الأصح في رأي سخفاء قبيلتهم خونة سخرهم العدو ليتجسسوا على بني قومهم ، كما انهم في رأي المغفلين من قبيـــلة عنزه أعداء انذال لم ينظروا لحرمة ومعروف الشيـخ ابن مهيد بعد أن آوى رئيس قبيلتهم وواسـاه بنفسه وتحمل في سبيل ذلك ما تحمله من غزو محمد له ونهبه لأمواله وقتله لخيرة فرسانه .

وهكذا ظل التومان خلال تلك الفترة خونة جواسيس بنظر قومهم ، وأعداء أنذالاً لا يملكهم المعروف في نظر مجيريهم ، مع العلم اليقين بان شيمتهم العربية تأبى أن يكونوا جواسيس لابن مهيد على رجال قبيلتهم ، كما ان وفاءهم العربي يمنعهم ان يقابلوا معروف ابن مهيد وقبيلته بالاساءة التي تنسب عنهم ، وبالرغم من كونهم بريئين من كلا الاتهامين فانهم تأثروا من ذلك لأن الدعاية التي تغلغلت كان لها الأثر السيء حتى ولو كانت مختلقة من أصلها ولا أساس لها من الصحة ، ولذلك نجد شاعرهم يعبر عن واقع أمرهم وقتذاك أبلغ التعبير بقوله :

المسعد الـــلي مهو تُومي
من كل يمٍ مهو غـالي

من كل الاشناق متهومي
كلٍ يرصه على الجـــال

ربما كان لهذين البيتين بقية لم تصل الينا وانما الذي اعتقده فهو انه حتى لو كان هناك بقية فانها لن تكن كثيرة بحكم ان القصيدة على وزن ما يسمى (هجيني) وهـــذا النوع كما أشرنا اكثر من مرة بأن ابيات القصيدة التي على هذا الوزن لا تتجاوز نسبة معينة محدودة أقصاها خمسة أو ستة أبيات .

وشرح البيتين اللذين يشير اليهما الشاعر مطابق للمعنى الذي أشرت اليه آنفـاً فهو يقول في صدر البيت الاول ان من يريد الله له السعادة فينبغي ان لا يكون من

قبيلة التومان أي قبيلة الشاعر . وفي عجز البيت نفسه يقول : ان المرء من هـذه القبيلة اصبح مكروهـاً أينما ولى وجهه وفي صدر البيت الثاني يقول ان أي فرد يقال عنه انه (تومي) أي من عشيرة التومان فإنه منهم من جميـع الجهات يشير الى الاتهامين الموجهين له من قبيلته ومن قبيلة الفدعان . وفي عجز البيت يقول كل من هؤلاء واولئك يحاولون ان يلصقوا به شتى الاتهامات المختلفة ومختلف الافتراءات المفتعلة .



الفَصْلُ الثَالِث

الصّبر على المصائب

تعز فان الصـــبر بالحر اجمـــل وليس على ريب الزمان معول
فلو كان يغني أن يرى المرء جازعاً لحادثـة أو كان يغنى التذلـــل
لـكان التعزي عند كل مصيبة ونائبـــة بالحر اولى واجمـــل
فكيف وكل ليس يعدو حمامـه وما لامرىء عما قضى الله مزحل
فإن تكن الأيام فينا تبـدلت ببؤسى ونعمى والحوادث تفعـل
فما لينت منـــا قنـــاة صلبة ولا ذللتنـــا للتي ليس تجمـــل
ولكن رحلناها نفوساً كريمـــة تحمل مـــالا يستطاع فتحمـــل
وقينا بحسن الصبر منـــا نفوسنا فصحت لنا الأعراض والناس هزل

(ابراهيم بن كنيف النبهاني)

الصبر على المصائب مصيبة على الشامت

- ٢٥ -

زرت صديقي الشيخ عبد الله السعد القبلان [١] في جدة في تاريخ ٧-٢-١٣٧٤هـ ١٩٥٤ وقد دار الحديث بيننا حول اهتمامي بجمع القصص التي تمت الى شيم العرب بأية صلة من الصلات فأكد السعد بانه سمع من الشيخ محمد آل سليمان التركي [٢] مدير مالية جدة آنذاك قصة تسترعي الانتباه ، ولما كنت ولم ازل شديد الحرص على أن لا يفوتني من الحوادث العربية الطريفة حادثـــة استطيع العثور عليها بشتى الاسباب إلا استقصيتها ، فقد ذهبت مسرعاً الى زيارة التركي واستفسرت منه عما ذكره لي السعد ، فقال : بانه كان يحفظ كثيراً من قصص العرب ؛ وذلك قبـل أن ينهمك بالأعمال الادارية التي انسته قسطاً وافراً من الأمثال الادبية ، ونوادر القصص العربية التي كان يحرص على روايتها من مصادرها الثقاة . ثم صمت قليلاً كالذي يتذكر حاجة ثمينة ضاعت منه ، وفي خلال الفترة التي صمت بها جاءصاحب القهوة وسكب لكل واحد منا كوبا . وبعد أن احتسى الكوب الأول والثاني،

---

١ - عبد الله السعد كان وزيراً للمواصلات في المملكة العربية السعودية في عـــام ١٣٨١ هـ ١٩٦١ ومن سكان مدينة جدة حالياً وهو قحطاني النسب . ويعمل الآن مديراً لشركـــة الأسمنت .

٢ - محمد التركي كان كما ذكرت اعلاه مديراً لمالية جدة ومن سكانهـــا حالياً وهو في الأصل من مدينة عنيزة .

اتجه نحوي وقال :

- أعاننا الله على مشا كل الحياة لقد تبدد ذهني . واصبح تفكيري محصوراً في نطاق عملي ، حتى أنني ضيعت الكثير من الرصيد الأدبي . ولم يتبادر لذهني الآن إلا قصة واحدة .

قلـت :

- ما هي العبرة المستوحاة من القصة ؟

فقـال :

- الصبر على المحن والمصائب وعدم اليأس والقنوط ، قلت :

- عمن رويتها ؟ فقال :

- عن المرحوم عبد العزيز الميان والميان يرويها مباشرة عن بطل القصة المرحوم عبد الله العمري [1] المتوفى بين عامي ١٢٩٥ و ١٣٠٠ هـ .

فطلبت منه أن يسمعني اياها فلم يبخل الرجل وقصها علي على الشكل الآتي :

كان عبد الله العمري صاحب أموال طائلة ، جمعها من عرق جبينه وكسب يمينه حيث كان يمتهن حرفة التجارة ، وقد اتخذ مدينة الزبير مقراً لا عماله التجارية فربح الى جانب مركزه الاقتصادي ومكانته الاجتماعية ، مكانة معنوية ، الأمر الذي جعل حكام الزبير وقتذاك آل ابراهيم ، وكثيراً من أغنيائهم يثقون بـه ويؤمنون عنده المبالغ الطائلة من النقود الذهبية .

مضت أشهر وسنون ، والعمري اسعد بني جنسه ، فالبضاعة التي يشتريها اليوم بدرهم لا يأتي الغد الا وسعر هذه البضاعة قد ارتفع من الدرهم الى الدينار . وكان صاحب المال الذي يقبل العمري أن يشغل ماله على سبيل المضاربة يجد نفسه سعيداً كما يرى أن العمري صاحب الفضل عليه لقبوله منه المال ، لأن لديه من رأس المال

---

١ - كل من الميان والعمري من مدينة عنيزة .

الزائد ما يغنيه عن تشغيل أموال الناس ، وإذا قدر له أن يأخذ من أحد شيئاً من المال ليشغله فانما هو من اجل فعل المعروف لأخوانـه وأصدقائه ، أمـا هو فليس بحاجة لأن يستعين بمال أي كان .

ما أضحكت الا وأبكت !!!

مضت أيام سعيدة كحلم الليل وهو في حالة يغبطه عليها الملوك ، عندما كانت تجارته رابحة ، وبضاعته رائجة والدنيا ضاحكة له والاخلاء يخطبون وده والفقراء ينعمون من خيراته والاثرياء السعيد منهم الذي يشاركه ببضاعة يشتريها .

ولكن الدنيا التي لا يدوم نعيمها ولا يؤمن لها جانب، تلك التي ما اضحكت إلا وأبكت ، قلبت له ظهر المجن ، فانقلبت ساعدتـــه الى بؤس . ونعيمه الى شقاء . وغناؤه الى فقر ، بسبب غلطة تجارية من غلطات التجار جاءت بمحض صدفة القضاء والقدر، وعندئذ بدأت أوضاعه كلها تتبدل وتجارته لا توحي بخير. فالبضاعة التي يشتريها اليوم بمائة سوف يضطر لبيعها غداً أو بعد الغد بنصف قيمتها ، وظـل مدة وهو يحاول ان يخفي خلله الاقتصادي المتهلهل ولكن أنى له أن يستطيـع اخفاء أمره بعدما عرف الناس انه وصل الى درجة من التدهور المـــالي لا يسعه الاستمرار به والثبات عليه . فالفقراء الذين عوّدهم احسانه ، يريدون منه مـــا عودهم عليه ، والاخلاء والضيوف الذين اعتادوا الجلوس على مائدته الدسمة،يريدون ان تظل تلك المائدة كما كانت متنوعة الاصناف من الاطعمة اللذيذة . وموظفوه وخدامه يريدون مرتباتهم الشهرية ، والنوافل التي يخصهم بها أحياناً في المناسبات، وعائلته وابناؤه ، هم الآخرون يريدون منه الدلال ، والترف الذي يعهدونـــه ويريدون ان لا يتبدل منه شيء . كل هـــذه الأمور أو بعضها تجعل الرجل لا يستطيع الصمود أمام هذه التيارات المتباينة ، ولا بد من ان يقدم على ما كان له

كاره وهو اعـــلان افلاسه وهذه هي المرحلة النهائية ، ولكن ماذا يفعل انه شر لا بد منه .

وعندما اتخذ الرجل قراره النهائي وقع بالمشكلة الاخرى وهي مطالبة اصحاب الودائع له ، فهذا صادر ، وذاك وارد ، وهو بحـالة كهذه لا يستطيـع ان يسدد واحـداً بالمائة من ودائع الناس ، فظل يهرب من منزله هائماً لا يدري أين يذهب ، وحتى اولئك الاخلاء الكثيرون تخلوا عنه فذهب يفتش عن الذين كان يعهد فيهم الوفاء لعلهم يواسونه في محنته ، فوجد ان اصدقاءه ينقسمون الى قسمين : قسم منهم الاغنياء والقسم الآخر الذين الى فراغ ذات اليـد أقرب منهم الى الثراء . فهؤلاء وجد فيهم الوفاء ، ولكن وفاءهم محدود علي مشاركتهم له بالآلام والتوجع وعلى كفاحهم عن عرضه عندما يسمعون أحداً ينال منه أو يشمت به . أمـا اصدقاؤه الاثرياء فقد كان الوفاء فيهم أندر من الكبريت الأحمر ، وكان الوفي فيهم هو الذي لا يشمت به .

وعندئذ وجد الرجل أن لا محيص له من أن يترك البلاد ومن فيهـا ويهرب تحت جنح الليل الدامس الى بلاده عنيزه ليواري نفسه عن الانظار الى ان يقضي الله أمراً كان مفعولاً .

وكما انه هرب من الزبير خلسة وفي غسق من الليل المدلهم ، كذلك دخل بلاده في النصف الأخير من ليل الشتاء المظلم ، كي لا يرى ولا يرى ، فظل الرجل سجين بيته لا يخرج منه ، ولا يزور أحداً ولا يريد أن يزوره أحد .

والمشكلة انه لم يكن فراره من مدينة الزبير وتركه ماله من ديون على الناس مجدياً ولا سجنه لنفسه في منزله بين أهل بلاده نافعـاً ، كل ذلك لم يكن نهاية لتعاسته المريرة .

بلغت المحنة الذروة

كان ذلك بعد الظهيرة عندما طرق باب منزله بشدة شرطي امير عنيزه زامل بن سليم فجـاء مذعوراً ويسير الهوينا لينظر من وراء شقوق الباب من هو الطارق ؟ وكم تضاعف ذعره ورعبه عندما رأى ان الطارق شرطي الحاكم، فوقف حائراً شارد الذهن لا يدري أيفتح له أ . لا ؟ وبينما العمري في حيرته هذه طرق الجندي الباب بصورة كانت أشد من سابقتها ، ولما لم يجد سبيلاً ينتهجه أو يفر اليه اضطر مرغماً الى فتح الباب . وعندها ناوله الشرطي رسالة من الامير ، أو كما يقال عنها الآن – مذكرة – انذار تتضمن مغادرته البلاد فوراً وذهابه الى الزبير بنـاء على طلب امير الزبير وأصحاب الامانات الزبيريين الذين يطالبونه بتسديد أماناتهم ..

كان أمر الأمير زامل حاسماً ولا يقبل الاستئناف أو التأجيل ، ولم يكن للعمري إلا أن باع بيتـه الذي ورثه من أبويه في مدينة عنيزه بأبخس الاثمان واشترى بثمنه راحلة، وشخص نحو الزبير، وكل خطوة يسير بها الى الامام يشعر كأنه يسير الى حبل المشنقة .

وبينما هو سائر في سبيله هذا ، رمى به الفال الى صاحب بيت شعر كبير من قبيلة شمر [١] ، فحل عنده ضيفاً ، وكان صاحب البيت شيخـاً مسناً ولم يدخر

---

١ – حرصت كثيراً ان اعرف اسم هـذا الشمري لا لكونه محور القصة فحسب ، بل من اجل ان يكون للقصة الاثر المحسوس الاكثر من الناحية العلمية ، مع يقيني الوطيد ان القصة ليست وليدة خيال طالما ان رواتها كلهم ثقاة ، هذا من ناحية ، والناحية الثانية هي ان ساكني الجزيرة ابعد ما يكونون عن الخيال المكذوب ولكن لم أوفق وغاية ما وصلت اليه بأنه شمري.

المضيف وسيلة في إكرام مثوى مضيفـــه ، لا من حيث الكبش السمين الذي قدمه له ولا من حيث مسامرته تلك الليلة ومحاولة تسليته وشرح صدره كضيف يجب اكرامه بشتى الوسائل ومختلف الاسباب ، كل هذه الأمور بذلها الشيخ المحنك الكريم ،ولكنه وجد ضيفه بشغل شاغل عن كل هذه الامور ،فمن حيث الطعام لم يمس لحم الخروف الذي قدم له بالرغم من ان اللحم تكون له في الصحراء لذة تختلف عن دوافع الشهية في المدينة ، أما من حيث الأحاديث التي يسامره بها ، فقد وجده شارد الذهن عن الاستماع لها ، ومن هنـــا راح الشيخ يفترض شتى الاحتمالات بضيفه. فظن أولاً أن في عقله خللاً ،ولكن سرعان ما تلاشى ظنه عندما القى عليه أسئلة لها علاقة في شؤون البشر العامة قاصداً امتحانه ، فوجده ليس بالرجل العادي ، كما أن محياه يعبر عن شخص محترم وقور ، وكان الاحتمال الأخير الذي اعتقـــده بضيفه هو أنه يعاني الهم من محنة المت به ، فذهب الشيخ يلح على مضيفه ويناشده الله بأن يخبره بأمره ، وتحت أصرار المضيف والحاحه ، راح العمري يشرح له محنته بكل وضوح ، فأبتسم الشيخ وهو يقول :

ـ اعتقد أنك لم تصب بحياتك كلها بمحنة اكبر من هذه ؟

دروس ليلة خير من تجربة عمر طويل

كلا بل كانت حياتي كلها تسير من نعيم الى نعيم أكثر ولم أر بحيـــاتي قطعياً اليوم الأسود ، كما أنني لا أظن أن أحداً أبتلي بما ابتليت به .

ـ لا يابني قد نوافقك الرأي على ما أشرت إليـــه بجملتك الأولى بأنك لم تر بحياتك يوم بؤس ، وهذا يبدو واضحاً من وضعك الراهن بأنك عشت مترفاً غض العود لم يعركك الدهر ولم تجرب المحن ، أما جملتك الأخـيرة التي تشير بهـــا وهماً بأن محنتك هذه ليس لها مضارع من نوعها ، فهذا خطأ فادح يا بني .

– كيف يا عم أتريد مصيبة أكبر على المرء من أن يكون فقيراً بعد غنى وذليلاً بعد عز ومتهماً بعدم امانته بين قومه بعدما كان مضرب المثل بينهم بالأمانة والثقة ، وعاجزاً من أن يعول نفسه بعدما كان يعول اسراً مستورة لا يعلم فاقتها الا الله .

– كل ما ذكرته يا بني صحيح ، ولكن قضيتك اولاً أنها لم تكن بدعاً من نوعها ولم تكن أنت أول رجل امتهن التجارة بأمانة وشرف وربح اموالاً طائلة ثم خانه الجد وخسر رأس ماله ومال الرجال الذي بذمته ، والتاجر يا بني أشبه ما يكون من الناحية العملية بالمقامر ، وبعبارة أوضح واصح نستطيع أن نقول بأن حياة بني البشر اغلبها أو كلها عبارة عن مغامرة بل الحياة كلها كالقمار ، فالمزارع مثلاً الذي يحرث الأرض ويبث فيها البذور إذا لم يوفق بسقي زراعته فإنه سوف تكون خسارته فادحة ، ومثله صاحب الماشية إذا اجدبت الأرض سنين متوالية فالماشية سوف تموت عن بكرة أبيها الخ ... ثم مضى الشيخ وقال: ولكن الفرق هنا يكون بين الرجل الذي عندما يصدم بأول صدمة بحياته يهرب من مواجهة الحياة ويستسلم بخنوع وذل وخور عزيمة ويدع الهموم تفتك بجسمه والجبن يسيطر على عزيمته ، واليأس يتحكم بعقله ، والقنوط يهيمن على أرادته وتفكيره ، وبين الرجل ذي الهمة القعساء والارادة الفولاذية والعزيمة الماضية الذي إذا اصابته المحن أزداد قوة في أرادته ، وإذا فاجأته الكوارث أزداد تمرداً وواجهها بكل ثبات ورباطة جأش .

– كلامك يا عم فيه حكمة وفيه فائدة من حيث الناحية النظرية ولكنك لا تستطيع أن تطبقه من الناحية العملية عندما تصطدم بالحقائق وجهاً لوجه .

– أنا رجل بدوي لا أعرف ما تعنيه النظرية وإنما أعرف الأمور العملية ، ولم يكن حديثي معك إلا ثمرة تجربة عملية عانيت مرارتها في منتصف شبابي وها آنذا الآن في منتصف العقد الثامن من عمري لا أذكر أنه مر بي بؤس اسوأ واشد من من ذلك اليوم .

ـ أود أن يشرح لي العم كنه هذه التجربة لعلي اخذ منها عبرة استفيد منها لمعالجة وضعي الراهن .

ـ أن الحادثة التي وقعت معي عندما أرويها لك الآن سوف يتبادر الى ذهنك انها من نسج الخيال لا من صميم الواقع ولكن من الأفضل أن أنادي رجالاً من شخصيات القبيلة لتسمعها منهم ، لكي تطمئن الى صحتها .

ـ لا لا أريدك أن تدعو احداً فأنت عندي موضع ثقة لا يتخلل الى قلبي ادنى شك بصحة ما تتحدث به فهات ما عندك .

ـ كنت يا بن أخي منذ ثلاثين سنة مقيماً في هذا المكان نفسه الذي نحن فيه الآن ، وكنت رافلاً بسعادة اغبط عليها من حيث المال والبنون وهما لاشك زينة الحياة وكان في حوزتي من الأبل العدد الذي لا يشاركني بكثرته أحد من أثرياء عشيرتي ، ولدي فرسان من اطيب الخيل ، كما انني رزقت فتيين لا يضارعهما أحد بالنجابة من فتيان الحي ، وكان الكبير منهما في سن العشرين عاماً والصغير أقل من أخيه بسنتين كما رزقت أبنة لها من العمر سنتان من زوجتي الفتاة البارعة بالجمال التي تزوجتها من جديد بعدما توفيت زوجتي الاولى أم الفتيين ، وكنت لا أعرف شيئاً أسمه الهم قطعياً ، وذلك أن هذه الأبل ورثتها عن والدي الذي توفي في الحين الذي بلغت فيه من العمر خمس عشرة سنة ، ولم ينجب والدي ذرية سواي فأصبحت بحكم الواقع الوارث الشرعي ، لجميع ما يملكه ابي من أبل ومن جياد ، ومنذ أن خرجت على الدنيا والسعادة تحفني بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، منذ أن كنت طفلاً وحيد والدي المدلل ، وكنت أقضي يومي على النهج الآتي :

أذهب بعد ارتفاع الشمس على ظهر مطيتي لاصطاد الأرانب والغزلان في الفلاة واعود عند المساء حاملاً ما أصطدته في رحلتي هذه ، وفي الليل يتجمع عندي كل رجال العشيرة يحتسون القهوة ويتبادلون الأحاديث التي تهمهم ويتناوبون

روايات القصص الشيقة ويصغون الى أحد المطربين صاحب الصوت الجميل ، الذى يحسن التلحين على الربابة ، وهكذا كنت أمضي أيامي كلها بسعادة واطمئنان ، وخاصة بعدما كبر ابناي واصبحا يذهبان جنباً [1] مع الأبل بعدما كنت أتولى القيام بهذه المهمة بنفسي ، وفي ذات يوم ذهبت ممتطياً مطيتي بغية الصيد كالمعتاد فوجدت صيداً كثيرا مما جعلني أبيت تلك الليلة في الفلاة خلافاً للعادة، وذلك بعدما انهكني التعب ، وكان الفصل صيفاً ، وليالي الصحراء في الصيف لذيذة وممتعة ، وفي الغد تابعت مواصلة مهمتي بالصيد ، ثم عدت راجعاً الى أهلي في وقت القيلولة ، وعندما مددت بصري نحو بيتي الشعر وجدت مكانه خلواً ولم يكن له أي أثر ، فأرجعت بصري كرة اخرى فرأيت امرأة متجهة نحوي،فأوقفت راحلتي واستدنيت الدربيل [2] لأتحقق من هذه المرأة ، واذا بها زوجتي فأرخيت لذلولي الرسن وأغرتها متجهاً نحوها ، وعندما دنوت منها وجدتها على آخر رمق من الظمأ الذي على وشك أن يفتك بها هي وابنتها الطفلة التي تحملها على ذراعيها ، فأنخت الراحلة وذهبت استفسر من أمرها ، فوجدتها لا تحسن الحديث من شدة الظمأ ، وكل ما في الأمر انها ألقت ابنتها على الارض وسقطت مغمى عليها،فتناولت الطفلة ووضعتها في الخرج الكائن على متن الراحلة ، رحمة بها من حمو الرمضاء المحرقة ، ثم عدت لاتناول الاناء لاسكب ماء من القربة لأسقي الأم وطفلتها،وعندما فككت وكاء القربة ، قفزت أرنب من أحد الاشجار القريبة منا ، مما جعل الذلول تقفز جافلة وراحت تجري بدون هوادة،فبقيت ممسكاً بوكاء القربة جارياً مجرى الراحلة التي كانت كلما سمعت حركتي بجانبها ازدادت جفالاً وجرياً ، حتى سقطت الطفلة من الخرج على أثر جري الذلول الشديد فلفظت انفاسها وأخيراً تركت الراحلة المشؤومة عائداً الى زوجتي التي وجدتها التحقت بالرفيق الأعلى فذهبت الى منازل الحي وأنا أشعر أن المنية اصبحت أقرب الي من حبل الوريد،فوجدت هناك بعض

---

١ - كلمة جنب تعني الفارس الذي يتولى حراسة الأبل .

٢ - الدربيل : هو النظارة المكبرة .

الشيوخ الذين أكدوا أن العدو صب غارته عليهم ونهب الأبل وقتل بعض شباب القبيلة ، وفي مقدمة المقتولين ابناي الفتيان كما اغتنم فرسيها[1] وعندما ابتليت بهذه المصيبة التي جاءت الي بصورة فجائية ، حمدت الله وشكرته الذي لم يبتليني بمصيبة اكبر من ذلك .

ومن هنا قاطع العمري الشيخ قائلاً :

– ما هي المصيبة التي اكبر من هذه ما دام انك فقدت كل مـــا تملك ، كما فقدت زوجتك وبنيك ، فرد عليه الشيخ المحنك فوراً بقوله :

– أكبر من ذلك مصيبة لو حضرت المعركة وفقدت حيـــاتي ، أو طعنت وأصبت باصابة افقدتني بصرى ، أو لو انه عندما بلغني الخبر انهارت أعصـــابي وفقدت شجاعتي ، وصبري وايماني ، ولما لم افقد شيئاً لا من تلك الامور الصحية ،

---

١ – عندما يطلع القارىء على مثل هذه القصة وامثالها سوف ينزعج ولا شك عندما يسمع أن بني الأنسان تصل به درجة الوحشية الى الحد الذي يقتل به اخاه الانسان وينهب مـــاله ، ولكنه يعود ويخادع نفسه قائلاً : كان ذلك في عالم البدو الذي هو اشبه ما يكون في عالم الغاب . وينسى المتمدن منا أو يتناسى أن الدول التي تزعم أنها بلغت القمة في عالم المدنية والحضارة ، كانت حتى عهدنا الحـــالي تقوم بالغزوات والنهب والقتل الأبادي للابرياء بصورة أعنف وأوقح من ذلك المصر الذي كان يقوم به البدو منذ قرن . وهل يريد القارىء دليلا أعظـــم وأوضح وأقرب عهداً من الغزو الثلاثي على القاهرة الذي قام بـــه دولة الانجليز وفرنسا وربيبة الغزاة اسرائيل في عام ١٩٥٦ م ١٣٧٦ هـ . وممـــا يدعو الى السخرية أن الأولى يقال عنهـــا أم الديموقراطية والثانية يقال عنها أم الحرية ، وما وجود اسرائيل في وسط عالمنا العربي وتأييد دول الاستعمار لها الا دليل لا يقبل الشك بأن الغزو العشائري انقطع من عالم البادية منذ منتصف هذا القرن ولكنه لم ينقطع من دول الاستعمار التي تعيش على عرق وكدح الشعوب الضعيفة ولن تتخلى عن استعمارها بل استعبادها واستغلالها لمقدرات الشعوب الا خوفاً من وعي هذه الشعوب نفسها التي سمت نفسها دول عدم الأنحياز .

ولا الامور المعنوية ، فقد وجدت ان الامور الأخرى وان كانت مؤلمة حقاً ، ولكنها أهون من الاخيرة فلو فقدت شجاعتي وصبري فهذا يعني استسلامي لليأس والقنوط ومعناه ايضاً انني سوف أفشل في الحياة الى النهاية ، والنتيجة تكون هي انني أدع مجالاً لاعدائي الشامتين وأوصد الباب في وجه اصدقائي المخلصين، ولكن صبري وإيماني وشجاعتي لمواجهة الاحداث ، كل ذلك جعلني اكون عكس ذلك ، فالشامتون لم يروا مني أية بادرة تدل على يأسي أو قنوطي ، بل على العكس رأوا مني صبراً ، واستهتاراً بالحادثة،فكان الصبر الذي شاهدوه مني مصيبة عليهم،اكبر من المصيبة التي داهمتني ، وأما اصدقائي المخلصون فإنهم استبشروا خيراً وبسط كل فرد منهم يد المعونة والمواساة لي ، وذلك عندما وجدوا مني رجـلاً لم تزده تلك الحادثة إلا قوة وشجاعة وثباتاً ، وها أنذا الآن قد منّ الله علي نتيجة لصبري،بمال وبنين وجاه لا يضارعني به أي واحد من رجال عشيرتي .

ثم ختم الشيخ حديثه بقوله : وأعظم من ذلك هو أن السعادة التي أشعر بها الآن يا بني ألذّ عندي من تلك الاولى لأن سعادتي السابقة شكلية لا طعم لها ولا قيمة لأن الغنى الذي كان مصدراً لتلك السعادة ، لم يردني عن طريق الكدح والكفاح في الحياة بل وردني كما ذكرت لك سابقاً عن طريق الوراثة ولذلك لم تكن له تلك اللذة التي اشعر بها الآن بسعادتي التي ارفل بها كعصامي جمع ماله بصبره وكدحه ، وبعرق الجبين والساعدين . وشتان بين من يرث المال وبين من يكسبه ، وبين وارث المجد وبين من يصنعه .

وبعدما انتهى الشيخ من حديثه ، قفز العمري وذهب يقبل رأس عمه الشيخ وهو يقول :

– لقد أزحت عني كابوساً من الهم فبوركت من شيخ محنك بثثت في نفسي عزيمة سأمضي بها بعون الله حتى النجاح ، وقتلت يأساً كاد أن يقضي على حيويتي

مدى الحياة .

ثم مضى العمري حتى قال : لقد أخذت عنك درساً جعلني أثق ان المصيبة الكبرى التي يفاجأ بها المرء في حياته هي اليأس والقنوط ، وموت الهمة وخور العزيمة .

وفي صباح الغد رحل العمري وهو فسيح الأمل رحب الصدر قوي الثقة بهمته الجديدة التي اصبحت تناطح السحاب ، فوصل مدينة الزبير بعزيمة تفل الحديد ، وارادة لا تعرف اليأس ، فحل ضيفاً في بداية الأمر على ابن ابراهيم حاكم الزبير ، ومن فوره طلب من ابن ابراهيم ان يستدعي كل من له في ذمته مال من أصحاب الأمانات والديون ، وعندما اجتمع القوم راح يتحدث معهم بحديث ينم عن ثقة الرجل بنفسه ، ويجعل دائنيه يثقون بأن الرجل لو لم يكن مستنداً على شيء يضمن لهم اعادة أماناتهم لما كان لديه هذه المعنوية القوية التي تختلف عن معنويته السابقة ..

وعندما رأى الزبيريون وحاكمهم معاً شدة ثقة الرجل بنفسه وقوة معنويته وايمانه بمستقبله ، عندئذ ذهبوا واعتذروا منه وفي الوقت ذاته جاء اصدقاؤه المخلصون يعرضون عليه ما يريده من سلفة مالية ليعمل بها كتاجر كما كان سابقاً ، فاستقرض من اصدقائه الاوفياء ما أمكنه أن يستقرضه من المال وراح يشتغل بالتجارة كما كان من قبل ، وعاد له الحظ من جديد ، ولم تمض مدة طويلة الا قد استرد مكانته الاجتماعية والمعنوية وثروته الاقتصادية بصورة أعظم من ذي قبل ..

وظل الرجل يدعو في سره وعلانيته لذلك الشيخ البدوي الذي بث في روحه

الهمة الشامخة بعدما كان قانطاً يائساً [١].

١ - وبعد ، لنا أن نقول أن الشيخ بلا شك نفض الغبار المخيم على همة العمري وحطم اصفاد الكسل التي كان العمري مقيداً بها نفسه بنفسه ، ولكن علينا أن لاننسى بأنه لو لم يكن بين جنبي الرجل روح حية قابلة للنهوض وهمة عصامية متهيئة للطموح وقلب المعي يستوعب العبر ويستفيد من الحكم ، لولا توفر هذه الاشياء في شخصية العمري لما كان لحديث الشيخ وقصته الواقعية أي اثر على نفسه . وفي حالة كهذه نستطيع أن نثبت بأن الشيخ المحنك أشبه ما يكون بالمطر الغزير الذي نزل على أرض مقحلة مجدبة ولكنها تربة خصبة ومجرد ما تدفق عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج .. ولكن هذا الماء مهما كان غزيراً وعذباً لو نزل على أرض سبخة لما كان له أي اثر محسوس .. وهكذا الحكمة والموعظة اذا القيت الى غير اهلها فلن يكون لها أي تأثير ، ورحم الله عبد الله بن العباس الذي يقول : لا تعطوا الحكمه الى غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها اهلها فتظلموهم .

الصبر سر النجاح

-٢٦-

(وبشّر الصابرين الذين إذا اصابتهم مصيبة قالوا أنا لله وأنا اليـــه راجعون . اولئك عليهم صلاة من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون) قرآن كريم .

ذكر الله تبارك وتعالى فضيلة الصبر في أكثر من موضع في كتابه العزيز ، وإذا كان الحلم كما يعبر عنه بالمثل الدارج القائل : (الحلم سيد الأخلاق) فإن الصبر هو الأصل والحلم لم يكن إلا فرعاً عن اصل ، فالرجل الذي لا يملك الصبر في حالة الغضب لا يمكن أن يكون حليماً ، ولئن كانت الشجاعة من أهم صفات الرجولة فإن مصدرها الأساسي وينبوعها الأصيل في كيان المرء ليس إلا الصبر ، فالشجاعة فرع والصبر اصل .. والكثير من الناس من يبدي شجاعة خارقـــة في معركة عابرة أو (في مغامرة مرتجلة) ..

ولكن القليل جداً الذين إذا استمرت الشدائد وتوالت المحن وتضاعفت البلوى وطالت الحروب وإزداد السهر واشتدت الأزمة وبلغت الروح الحلقوم ، قليلون الذين يثبتون شجاعة في حالة كهذه وأقل منهم من يبدي شجاعة وثباتاً وصبراً وجلداً بل وتحدياً للعدو عندما يقع في قبضة اعداء الداء .. ومن ثم يـــلاقي أشد

الامتحانات هولا واعنفها ضراوة فإما أن تخور قواه ويستكين ويخنع طمعاً منه بالحياة ، وإما أن يتحدى اعداءه بكل آباء وشمم كما فعل المارشال الألماني غورنغ في محاكمات الزعماء النازيين في نورمبرغ [1] ، وكما فعـــل بعض شجعان العرب في موقف مماثل لموقف المارشال غورنغ ، وأية شجاعة من هذا النوع مصدرها الاساسي هو الصبر ..

وأما الرواية التي يتناقلها الشعبيون في جزيرتنا العربية فهي أن لم تكن من صميم الواقع فإنها تعبر تعبيراً بالغاً عن الحقيقة التي نشير اليها عن أهمية الصبر وعن كونه هو الأصل الأساسي لكل فضيلة ، بصورة عامـــة .. ولكل معنى من المعاني التي تمت الى الشجاعة بأدنى صلة ..

وخلاصة القصة التي يتناقلها شيوخنا الشعبيون هي كما يقال : أن عنترة العبسي وحاتم الطائي جمعتهما الصدف فقال الأول : أريد أن تخبرني عن السر الذي جعلك تكون كريماً الى الدرجة التي جعلت شهرتك تسمو على كل كريم من كرمـــاء العرب ..

فقال حاتم :

— السر في ذلك يعود الى الصبر ..

قال عنترة :

— كيف ذلك ؟

— قال حاتم : أنني اعتبر أن الصبر على الفقر وما يلحق به من جوع وتقشف عامل اساسي في حياتي .. وما أملكه اليوم وأنا بحاجة اليه انفقه في يومه وقـــد

---

١ — انظر محاكمات نورمبرغ . طبع دار اليقظة للتأليف والترجمـــة . تعريب فتح الله محمد المشعشع وجورج شاهين صائغ ص ٨٧ و ٨٨ .

انحر ناقتي لضيوفي وافرق بقية المأدبة لجيراني ومن ثم أبيت الطوى صابراً على ذلك غير مكترث بما يلحقني من مشقة وعناء في ذلك ، ثم استطرد وقال : فهل لك أن تفيدني انت عن السر الذي جعلك تبلغ انت الأخر من شهرة الشجاعة إلى الحد الذي جعل لك من ذيوع الصيت ما يطغى على سمعة أي شجاع سواك ؟.. فيقول الرواة أن عنترة ابتسم ثم قال : أدن مني وضع احدى انامك في فمي وأنا ايضاً سأضع احدى أناملي في فمك .. وكلانا يعض أصبع اخيه بكل شدة وعنف .. وعليك أن لا تدخر وسعاً بأن تضغط على اصبعي بكل ما لديك من قوة .. كما انني سوف اقوم بعمل مماثل .. وعلى كل منا أن لا يبدي ضجراً مهما قسى أحدنا على أصبع أخيه . جرت العملية على هذا الشكل وشد كل واحد منهما اصبع اخيه بعنف فشعر حاتم بالألم وشاء أن يضجر ولكنه تصبر وشد على اصبع صاحبه بقسوة محاولاً أن تكون بداية الضجر من رفيقه لامنه وما كان من عنترة الا أن قابل العنف بعنف أشد ولما لم يطق حاتم شدة الام صرخ شاكياً ألمه فتركه عنترة وهو يقول :

– ثق أنك لو صبرت قليلاً لكنت البادىء بالصراخ والضجر ..

هذه القصة تعطينا دليلاً واضح المعالم على أن الصبر هو العنصر الاساسي لكل مكرمة وإنما انواع الصبر تختلف باختلاف الميول والطبائع البشرية فهذا مثلاً يكون صبره على ما يناله من شظف العيش والبؤس والفقر في سبيل الكرم كحاتم .. وذاك يكون صبره على ما يناله من طعون في جسمه وعلى الأقدام حتى الموت اذا دعت الحاجة كعنترة .. وآخر يكون صبره على الملمات والاحداث الفاجعة والمصائب المذهلة كصاحب قصتنا هذه التي نقلتها عن المرحوم الامير عبد العزيز ابن احمد السديري الذي اشرت الى ذكره في أكثر من مناسبة .. في هذا السفر.. ويؤكد المرحوم بأنه نقلها عن والده (رحمه الله احمد السديري وهذا الأخير نقلها لنا عن المرحوم سالم بن سبهان ويقع تاريخها بين عامي ١٣٠٩ هـ – ١٣١٢ هـ .

يقول الراوي : عندما كان سالم السبهان يأخذ زكاة الماشية من القبائل الكائنة في جنوب الجزيرة في تلك الظروف التقى بمحض الصدفة بجماعة كثيري العدد من

بادية قبيلة قحطان ، فسأل عمن يكون هؤلاء ؟.. فقيل انهم من قبيلة قحطان فسأل ثانية من أي فرع أو من أية أسرة ؟ فأخبره المسؤول انهم من أسرة رجل واحد يقال له (ابو رقطة) فحط عن رحاله عندهم وأمر رجاله بأن يجبوا له زكاة الابل والغنم فكانت الزكاة وافرة وفي الغد وجد قومه يضارعون العدد الأسبق فسأل عنهم ممن يكونون ؟ فأفيد بأنهم أبناء (أبو رقطه) فأخذ منهم زكاة لا تقل عن الزكاة التي أخذها أمس الماضي ثم مضى في سبيله .. فوجد قطيناً لا يقل عددهم عن عدد سابقيهم فحط عن رحاله وأمر من يسأل عن هؤلاء الآخرين؟فجاء اليه الرسول يخبره بأن هؤلاء أيضاً أبناء أبو رقطه .. فجاء منهم الزكاة كالمعتاد فكانت الأموال التي جباها من هؤلاء القوم أموالاً طائلة ..

فقال سالم السبهان فليبارك الله لك يا عشيرة ابو رقطة على المال الكثير الذي توفر عندك فأجابه أحد السامعين من أبناء «أبو رقطة» قائلاً :

ــ انهم ليسوا بعشيرة وانما هم أبناء رجل واحد ..

فقال السبهان بلغة التعجب والاستفهام..

ــ أكلهم ينتمون الى أسرة واحدة ؟..

فأجابه هذا بقوله :

ــ بل كلنا أبناء رجل واحد ، فرد مستغرباً ..

ــ أمن جد واحد ؟.. فقال البدوي :

ــ بل من رجل واحد وأبونا لا زال على قيد الحياة وأنا واحد من أبنائه ..

وكان هذا الذي يخاطب السبهان في العقد السادس من عمره وقد وخطه الشيب مما جعل السبهان يزداد حيرة ودهشة في آن واحد عندما علم ان هؤلاء النفر الذين يشكلون عشيرة بكاملها كلهم من سلالة رجل واحد.. ومما جعل دهشته تتضاعف هو

ان أبا هؤلاء القوم لا زال على قيد الحياة ، الامر الذي جعله يحرصا إن يعرف مقدار عمر هذا الشيخ،وهل هو قوي البنية يقظ الحواس أم انه شيخ هرم؟..فراح يستفسر من ابنه بقوله :

- كم يبلغ والدك من العمر ؟..

فأجابه الأبن بسرعة ..

- في آخر العقد العاشر ، ولكن صحته قوية وحواسه سليمه وعندما تراه لا تظن إلا انه في بداية العقد السادس ..

- أيمكن أن أراه ؟.

- أجل وفي أي وقت تريد ..

- أين يكون الآن ؟.. هل هو يقيم معكم أو مع الآخرين ؟؟

- بل هو معناه وهو الشيخ الريان الجسم الربعة الذي كان يتقدمنا عندما سلمنا عليك وبيته ذاك البيت المرتفع على الاعمدة الثلاثة وإذا كان لك به حاجة فإنني على استعداد لأن اخبره ليأتيك في أي وقت تريد ؟.

- لا ليس لي به حاجة خاصة بالنسبة إلي وإنما أود أن اعرف شيئاً عن حياة والدك التي لا شك عندي بأنها حياة سعيدة لم ير فيها ما يكدر صفو عيشه..

- ما هو دليلك على ان حياته كانت كلها سعيدة ولم ير فيها ما يشوبها من نكد الدنيا ؟..

- من أعظم الأدلة على ذلك وجود هذه الأسرة الكبيرة بل العشيرة الكثيرة وهذه الأموال الطائلة التي كلها محسوبة له سواء من المال أو من البنين.. وهذان الاثنان هما كمال لذة الدنيـا وزينتها كما ذكرها الله بكتابه العزيز بقوله : المال والبنون زينة الحياة الدنيا الخ ..

وبعدما انتهى السبهان من حديثه هذا تنهد ابن (ابو رقطه)وقال :

– أرى انه من الاحسن والحالة هذه أن تبعث رسولاً من عنــدك لتستدعي والدي لـكي يقص عليك ما لقيه من حياته السعيدة كما يخيل اليكم..

– يبدو من الجملة الاخيرة أن في حياة والدك لغزاً مبهماً؟.

– طبعاً فيها أكثر من لغز ..

أتستطيع أن تشرح لي ما تعرفه عن حياة والدك ؟.

– مـا دام أن والدي قريب منا الآن فمن الاحسن ان تبعث اليه رسولاً من عندك ليحضر .. ومن ثم يروي لـكم الشيء الذي يسترعي الانتباه من صميم واقع حياته ..

– لا بأس هذا أحد رجالي سوف يذهب الى والدك ليأتي به الينا وإنما اريـد منك ان تهدي رسولي الى بيت والدك ..

– لا يحتاج بيت والدي الى دليل ثم أشار بيده الى بيت أبيـه قائلاً للرسول بالاشارة :

– انظر الى بيته المرفوع على ثلاثة أعمدة وتلك علامته الفارقة لأنه ليس في قطين الحي بيت على ثلاثة أعمدة يشابهه ..

فراح الرسول الى البيت المشار اليـه ووجد صاحبـه متكئاً على سرج الفرس ويحيط به عدد كبير من أبنائه وأحفاده وأحفاد احفاده فقال له الرسول بعد ان بدأ بالتحية التقليدية :

– ان الامير يريد أن يراك ..

فأجابه الشيـخ بالموافقة بعد ان طلب منه ان ينتظر حتى يقدم له اكواباً من

القهوة ، وبعدما أحتسى الرسول مـــا طاب له من القهوة ذهب الى السبهان وبصحبته الشيـخ ..

وبعد تبادل التحية التقليدية وانتهاء الشيـخ من أكواب القهوة والشاي اللذين احتساهما بأناة ووقار ، بعد ذلك وجه له سالم السبهان السؤال التالي :

– أيسمح لنا عمنا بأن نسأله بعض الاسئلة ؟..

– تفضل يا بني ..

– كم تبلغ من العمر ؟..

– ما يناهز المائة سنة ..

– يبدو لي انك اصغر من ذلك بكثير ..

– ولكن الذي قلته لك هو الواقع ..

– مـا هو السر في نمو صحتك وسلامة حواسك بالرغم من كونك بلغت من العمر عتياً ؟..

– أهم شيء في ذلك حسبما أظن هو ان التجارب علمتني بأن لا أحزن على الماضي ولا أفرح بالحاضر ولا اهتم للمستقبل ..

– فهمت من مجرى الحديث الذي دار بيني وبين ابنك ان في حياتك عبراً .. فهل يمكن ان تحدثنا عن أهم تجربة عرفتها خلال حياتك الطويلة ؟..

– لم أر – ولله المنة والشكر – في حياتي ما يكدر صفوها خاصة بعدمـا تجاوزت سن الشباب والفتوة وربما كان هذا ايضـاً من أهم العوامل التي ساعدتني على تماسك صحتي لأن أهم شيء يؤثر على صحـــة المرء ، ليس الا توالي الامراض وتتابع الأحداث والمصائب التي يبتلي بهـــا الانسان بعدما يتجاوز سن الفتوة

ويدخل مرحلة من سن الكهولة .. عند ذلك يفقد قوة المقاومة ..

ومضى الشيخ بحديثه الى ان قال : ومن رحمة الله ولطفه بي أن المصيبة التي ابتليت بها كانت في عنفوان شبابي فلم تؤثر عليّ من الناحية الصحية لأن في الشباب قوة ومناعة لمواجهة الاحداث لا توجد عند الشيوخ ، كما اعطتني تلك التجربة المرة درساً في مستقبل حياتي فصيّرت مني إنساناً يقابل الملمات والمصائب بايمان وصبر لا يتخلل اليهما القنوط واليأس ..

– نحن بحاجة الى أن تسمعنا التجربة التي أشرت اليها ..

– أنكحني والدي من ابنة أخيه المتوفي وذلك عندما كنت في سن المراهقة فأنجبت مني ذكورين- وذلك بعد أن توفي والدي فأصبحت ابل والدي الكثيرة وابل عمي التي لا تقل عنها عدداً ملكاً لي بحكم انني العاصب لعمي والابن الوارث الفذ الوحيد لوالدي ، ولم يكن لعمي ذرية ما عدا ابنته التي في عهدتي ، فكنت أغنى وأسعد فتيان عشيرتي ..

ثم استطرد الشيخ وقال :

– وفي ذات يوم ضافني ضيوف لم يكن لي بهم سابق معرفة من قبل ، ولم أرهم فيما بعد فذهبت واستدنيت كبشاً وذبحته كضيافة لهم ثم ذهبت لقضاء حاجة ما ، فجاء الطفل الكبير وأخذ المدية واتجه نحو أخيه الاصغر الذي انطرح له ليمثل دور الكبش كما مثل الكبير دوري بتذكيتي للخروف فذكاه بالشفرة المسنونة كما رآني أذكي الكبش .. فخرجت والدتهما وعندما رأت هذا المنظر فقدت رشدها فالتقطت حجراً كبيراً وقذفت به الصبي الكبير فأصابت منه مقتلاً ، فخر الآخر ميتاً بجانب أخيه ، فوقعت هي الاخرى على ابنيها ميتة من فورها ، فجئت فوجدت الابنين وزوجتي قد فارقوا الحياة ، فكان وجود ضيوفي مما ساعدني على التجلد والصبر ، فذهبت أحفر قبورهم بمعونة من ضيوفي .. وبينما كنت قد حفرت القبر الاول والثاني وبدأت بالثالث عند ذلك جاءني راعي ابلي يصيح بأعلى صوته

فتركت حفر القبر واتجهت نحوه اسأله الخبر فأخبرني ان غزاة من قبيلة عتيبه صبت غارتها ونهبت الابل بكاملها. فذهبت على الفور وامتطيت جوادي الأصيلة السريعة العدو ، وتنكبت سلاحي ولحقت العدو وأنا في حالة يأس من حياتي.. قد قررت أحد الامرين أما ان استعيد أبلي وأما ان اقاتل الغزاة حتى اقتل ، ولكن الذي حصل هو انني لم أحظ لا بهذه ولا بتلك ، لانني عندما هجمت على الغزاة اطلقوا علي عياراتهم النارية فأصابت مقتلاً من الفرس فسقطت ميتة فذهب الغزاة بالابل بعدما عدت الى بيتي الخالي من الزوجة والابل والاولاد والفرس ،وحتى الضيوف ذهبوا وتركوا ضيافتهم ولكنهم لم يذهبوا حتى واروا جثمان الزوجة وطفليها..

وصمت الشيخ قليلاً .. فانتهز ابن سبهان صمته هذا وقال :

ـ وكيف جمعت هذا المال بعد تلك الكارثة ؟.

ـ فأجابه الشيخ وهو يبتسم فقال :

عندما بلغ رجال قبيلتي ما حل بي من كارثة أبدوا رأيهم بالاجماع بأن أذهب الى قبيلة عتيبة الذين غزوني ونهبوا أبلي لأشكو لهم أمري لعلهم يعيدون لي أبلي أو بعضاً منها بعدما يعلمون بالكارثة التي حلت بي ،ولكنني رفضت واصررت معتمداً على الله ، وواثقاً به ومقرراً بأن لا أبدي شكواي لأي مخلوق كان ومؤمناً بأن الضجر والشكوى للمخلوق الفاني ليست إلا عدم ثقة بالباريء جلت قدرته ، فقاطعه ابن سبهان قائلاً :

ثم ماذا كانت الاسباب التي التمستها حتى وصلت الى هذه الثروة الطائلة والبنين الكثيري العدد ؟.. فقال الشيخ :

ـ ليس هناك أسباب مادية تستحق الذكر سوى الاسباب المعنوية التي أهمها

الصبر .. ثم مضى الشيخ في حديثه الى أن قال :

– عندما نكبت بهذه المصائب جاء قومي فتطوعوا من تلقاء أنفسهم فجمعوا لي أبلاً كما هو شأنهم في تكاتفهم الاجتماعي بحالة كهذه ، وقدموها لي كسلفة [1] على أن أتولى رعايتها والعناية بها فلي منها البانها ، وأوبارها وما تنجبه في العام الاول من ذرية مقابل عنايتي ورعايتي لها .. فقبلت ذلك كقاعدة متبعة وعرف متبادل ، فأعطاني رجال قبيلتي مجموعة كثيرة من أبلهم وقد أخذت أتولى رعايتها والعناية بها حتى بارك الله في ذريتها ، فأنجبت جميعها ..

وبعد ذلك أعدت الأصل من الابل الى أهلها بينما بقيت عندي الذرية .. واسترسل الشيخ بحديثه الى ان قال :

– وأعجب ما في الامر أن غزاة عتيبة الذين نهبوا أبلي لم يبلغهم خبر الكارثة التي حلت بي إلا بعد مدة تزيد على العام بحكم الحروب القائمة على قدم وساق بيننا وإياهم التي من شأنها ان تجعل حلقة الصلة بين الطرفين مقطوعة ..

ولكن ما أن تأكد غزاة عتيبة انهم اختطفوا أبلي وقتلوا فرسي في اليوم نفسه الذي مات فيه ولداي وزوجتي حتى أعادوا عليّ ابلي كاملة مضافاً اليها ما انجبته من الذرية خلال المدة التي بقيت عندهم بها كما اعطوني عهداً متفقاً عليه من رجال قبيلة عتيبة بأن لا يغزوني أحد منهم قطعياً ، فعادت إليّ ابلي بكاملها مع ما أنجبته من ذرية بالاضافة الى ما هو عندي من ذرية الابل التي أشرت اليها ، فأصبحت من ذلك اليوم الى يومنا هذا لا أغزو ولا أغزى لا أنا ولا أبنائي

---

١ – انظر كتابنا التطور الفكري في جزيرة العرب في القرن العشرين للمؤلف ص ٣٥ .

وحتى احفادي ، وكل هذه النعمة نتيجة للصبر فهو خير عدة يستعين بـــه المرء بالملمات والمحن .. وهذا ما أوصي به أبنائي فيما اذا أصابتهم كارثة مـا فيها ضياع للمال أو الاولاد ، فقد أوصيتهم أن لا يفقدوا الصبر . فيكونوا وقتهـــا حرموا الأثنين : ضياع ما اصيبوا به في إتلاف كما حرموا الصبر [1] .

---

١ - ومن هنا بدى لنا الامر جلياً ان من اهم اسرار النجاح في هذه الحياة هو الصبر .. لا اعدمنا الله اياه ..



الفَصْلُ الرَّابع

اصطناع المَعروف وَالمكافأة عَليه

ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يصنه ومن لم يتق الشتم يشتم

اذا كان ابتكار المعروف فرض كفاية
فان المكافأة عليه فرض عـــين

- ٢٧ -

إذا كانت الارض الطيبة والتربة الخصبة البكر إذا جاءها المـاء القراح الزلال اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، فإن الارض السبخة مهما تدفق عليها الماء العذب فإنه لا يغير شيئاً من طبيعتها ..

وما يقال عن الارض يقـــال عن طبيعة بني الانسان عينـاً بعين ولا غرو ، فإن القرآن الشريف يقول : منهـا خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى) ..

إذن فالانسان بطبيعته جزء لا يتجزأ من الارض التي منها الخصبة ومنهـــا السبخة ..

وعندما ننظر الى ما قاله كثير من الشعراء والأدباء المتشائمين بل ونشاهد نحن بأنفسنا رؤية العين مـا يؤيد كلام هؤلاء في حكمهم على كثير من البشر الذين لا يفيد في طباعهم المعروف ولا يؤثر عليهم الفضل إلا إذا كان الماء القراح الزلال يؤثر على الارض السبخة ..

عندما ننظر هذه الظاهرة نكاد أن نؤمن إيماناً راسخاً بأن بني الانسان خلقوا كلهم من ارض سبخة ولكن سرعان ما نفند هذه النظرية حينما نرى من بني الانسان من يؤثر على كيانه أدنى عمل من المعروف كما هو شأن الارض الخصبة التي تثمر تربتها وتزدهر فيها شتى أنواع النبات بدون سقي ماء مباشر وإنما بمجرد طل خفيف فقط ..

هكذا طبيعة الارض الخصبة وهذه سجية الانسان الكريم الوفي الذي خلقت طينته من هذه الارض المباركة الشكور بطبيعتها ..

وليست الحادثة المشهورة التي سوف نوردها الآن إلا دليلاً ملحوظاً من جملة الأدلة الواقعية المؤيدة لصحة ما نصبو اليه ..

وقصتنا هذه وقعت في عام ١٢٦٨ هـ فيكون لها الآن ما يقارب قرن وربع القرن ..

وفي العام المشار اليه أعلاه فكر أمير بلدة حائل آنذاك المدعو (طلال العبدالله الرشيد) ان يدعو البارزين من أعيان بلاده وأعيان أهل القرى القريبين من البلاد ليأخذ رأيهم في أمر ذي أهمية فبعث رسولاً من عنده يخبرهم برغبته هذه ويعين لهم الزمان والمكان اللذين سيتم الاجتماع فيهما .

ووفقاً للرغبة المشتركة توافد المواطنون حسب تعيين الزمان المحدد قاصدين المكان الذي كان في قصر الامير بالذات ، فانتظر الامير قليلاً ليصل بقية المواطنين خاصة من أهل القرى النائين عن البلاد ، ثم بعد ذلك بدأ يشرح الأمر الذي جمعهم من أجله ، وبعد أن أنهى حديثه صمت فترة ثم قال :

كل منكم يوافيني في رأيه في هذا الشأن لأنني لم اطلب حضوركم هنا إلا ليكون الرأي مشتركاً ..

وفي أثناء كلامه هذا وقبل أن يبدي كل فرد من القوم رأيه دخل شخص من أبرز شخصيات قرية تسمى قفار[1] يدعى سالم بن راشد ولهـذا الشخص مكانة مرموقة في المجتمع وكان حضوره المتأخر مشكلة بالنسبة اليه وللأمير ايضاً وذلك انه لم يأت إلا بعد ان اخذ كل فرد من اعيان البلاد مكانه في المجلس وكان مركز هذا الشخص القادم يفرض عليه ان يكون في صدر المجلس فاذا لم يكن الرجل الاول الذي يلي الامير بصورة مباشرة فينبغي أن يكون الثاني أو الثالث فاتجـه الرجل الى صدر المجلس ليتخذ مكانه الطبيعي فيه فوجده حاشداً بأعيان البلاد الذين يرى كل فرد منهم لنفسه من المكانة ما يضارع ابن راشد ، فاتجـه الى يمين النادي ليختار له مكاناً فيه فوجده غاصاً ولم يكن له مكان فيه ، فعـاد الى اليسار بسرعة فيها شيء من الخجل فكان الرجال متراصين فيه المنكب حذو المنكب ، وليس من السهل ان يتنازل أي من هؤلاء الاعيان قبل ان يشارك جماعته بالرأي وقبل ان يعرف ما هو الرأي الذي اتفق عليه القوم ، كما ان الامير وان كان يرى لابن راشـد مكانة تستحق الاحترام ولكنه لا يستطيع من الناحية الأدبيـة والاجتماعية ان يأمر احداً من هؤلاء الاعيان بالخروج ليجلس ابن راشد في محله فهذه العملية وان كانت احتراماً لابن راشد من ناحية ولكنها احترام لا يتم إلا على حساب المس من حرمة وكرامة المواطن الآخر ..

وفي هذه اللحظة الوجيزة التي كان فيهـا الامير في حيرة من أمر ابن راشد وكان ابن راشد يتصبب عرقاً من الخجل متمنياً في قرارات نفسه أنـه لم يأت من قريته في هذه الثواني لم يكن أمام ابن راشد إلا أن يتجـه نحو الباب قاصداً الخروج .

---

١ ـ كانت هذه القرية الاصل وكانت حائل عبارة عن قرية اذ لم تكن تابعة لقفار فهي اقل منها شأناً . انظر كتاب المؤلف الجزء الخامس فيما اذا اصدر .

وقبل أن يتخذ قراره النهائي قفز شخص يدعى حسن الباذري[1] من صدر المجلس وصاح به : تفضل يا أبا فلان في مكاني ثم انحرف بوجهه نحو الأمير قائلاً :

ـ لقد سمع القوم الرأي الذي جمعتنا من اجله ، ولكن فلانا لم يسمعه بحكم بعد قريته ومن الاوفق أن يعيد الأمير اطال الله عمره حديثه ليسمعه فلان بصفته رجلا لا نستغني عن رأيه ، ثم اردف قائلاً : أما بالنسبة لرأيي فقد منحت صوتي لفلان (يقصد ابن راشد) قال الباذري هذه الكلمة بعدما اخلى مكانه لابن راشد ثم خرج فوراً ..

سر الامير لهذا الموقف الذي اتخذه الباذري والذي سر له اكثر وأكثر ابن راشد طبعاً .

كان الحديث الذي تحدثه الباذري من شأنه أن يجعل الامير ملزماً باعادة حديثه من جديد ليسمعه القادم الجديد فما وسع الامير الا أن اعاد حديثه السابق وقد اعيد تداول الرأي فيه من جديد وساهم ابن راشد برأيه الذي يعتبر رأي رجلين أي رأيه ورأي رفيقه الباذري ..

ولما كان الرأي المأخوذ به في حالة كهذه يعود الى الاكثرية فقد كانت الاكثرية بجانب القوم الذين في طليعتهم ابن راشد فأخذ برأي الاكثرية في ذلك الامر الذي حتى الآن لم نعرف كنهه لانه ضاع في خضم الحادثة التي كان لها من الاثر في نفوس المواطنين ما جعل ذلك الموضوع نسياً منسياً ..

كانت العادة المألوفة آنذاك أن يتبادل الدعوة فيما بينهم أهل القرى واهل البلاد

---

١ ـ الباذري من أهالي بلدة حائل ،

وحيث أن القرى في فصل الصيف يكون فيها خضروات وفواكه لذلك تكون الدعوات من أهل القرى لاهل البلد بصورة مستمرة بهذا الفصل يضاف الى ذلك أن اهالي قرى حائل اكرم بكثير من اهل البلاد انفسهم بل أكرم من أهل اية قرية من قرى شبه الجزيرة ، ولذلك لم يستغرب الباذري دعوة ابن راشد له لتناول وجبة الغذاء .. لا لم يستغرب الباذري هذه الدعوة ولم يفسرها إلا انها دعوة طبيعية كشأن كثير من الدعوات والولائم التي يقوم بها ابن راشد بين فترة وأخرى فذهب الرجل ممتطياً دابته قاصداً قرية قفار التي لا يتجاوز بعدها عن بلدة حائل اكثر من خمسة عشر كيلومتراً وقد رأى الرجل وهو في طريقه ما أثار انتباهه من كثرة عدد الرجال الذاهبين من اعيان أهل البلاد إلى قرية قفار بدعوة من صاحبه نفسه ولكنه لم يفسر ذلك إلا انها دعوة من ابن راشد أما على شرف الأمير او في مناسبة اخرى ذات شأن خاص به ..

وعندما دخل بيت صاحب الدعوة ووجد الامير طلالاً والقاضي وجميع أعيان أهل البلاد وأعيان أهل القرى الذين حضروا مجلس الامير سالف الذكر كلهم موجودون فظن في نفسه أن الامر كما تخيله ..

ولكنه سرعان ما أدرك ان الدعوة له بالذات لا للأمير ولا للقاضي وإنما هي على شرفه ، لقد شعر بذلك بصورة واضحة عندما أمسك بذراعه المضيف وأجلسه في المكان الذي أعده له كضيف شرف ثم تلى الكلمة المألوفة التي يعرف المدعوون من مفهومها من هو ضيف الشرف عندما قال :

– ان «حسناً» كثير البركة فقد كان سبباً لحضور الامير والقاضي وأعيان قومنا الافاضل .

دهش الباذري من هذه الدعوة التي هي على شرفه بدون ان يخبره المدعو ، اديرت اكواب القهوة كالمعتاد وبعد ذلك وقف احد أخوة المضيف وأشار لهم ان يتفضلوا الى المائدة فجاء ضيف الشرف يسير بخطى وئيدة بين الامير والقاضي وكانت المائدة

فيها من الخيرات ما يزيد عن كفاية الامير وحاشيته الكثيري العدد وأعيان البلاد والقرى .. خرفان كثيرة العدد وناقة من سمان الابل واكواب اللبن المخيض يدور به رجاله على المدعوين وصحون الفاكهة والتمر الذي يسيل منه الدبس وجد كل ذلك موضوعاً تحت الجفنات التي يقطر منها السمن ويغطيها أليات الخرفان وسنام الناقة .. ظل الامير وبعض من المدعوين تتجه أبصارهم نحو ضيف الشرف فكان لسان حالهم يشير له من طرف خفي بأن هذه الدعوة اكرام لك تجاه موقفك من مضيفك في المجلس الحاشد أي سالف الذكر .. كما أن ضيف الشرف هو الآخر بدأ يشعر ان هذه الدعوة مقابل قيامه له بذاك الحفل ..

كان كل من الامير وضيف الشرف والمدعوون يرون ان ابن راشد قابل معروف الباذري بدعوته له مقابلة لا مزيد عليها ولم يخطر لهم ببال ان القضية لم تقف عند هذا الحد.

« الرجل اكثر كرماً مما يظنه المدعوون وأجم مروءة مما يتصورون »

عندما انتهى المدعوون من طعامهم ذهبوا الى مجلس المضيف وبعدما احتسوا اكواباً من القهوة ولم يبق إلا (دخون العود)[1] عندئذ وقف المضيف وقال :

– لا يخفى على الامير المثل القائل: ثلاث هزلهن جد وهن الهبة والطلاق والعتق ثم مضى قائلًا : اشهدوا عليّ بأنني قد وهبت حسن الباذري نصف ما املك فهو من الآن فصاعداً يشاركني بكل ما أملك من المال والماشية والارض الزراعية، كما اني اشهدكم بأن هذه الهبة سوف تكون سارية المفعول في حياتي وبعد مماتي . ثم أوضح قائلًا : يعني أن أبناءه سيكون لهم حق الشراكة مع ابنائي ..

---

١ – معروف لدى المواطنين في الجزيرة العود الى يومنا هذا وهو نوع من شجر يأتي من الهند طيب الرائحة وعندما يوضع دليل ان المجلس انتهى .. ويقال في المثل ليس بعد العود قعود..

ومن هنا قفز الباذري وقال :
– انني أرفض قبول هذه الهبة ..
فأجابه أبن راشد قائلاً :
– الهبة لا ترد .. والكريم امثالك لا يرد هبة الكريم .. ثم استطرد وقال : لا تنس انك انت صاحب الفضل الاسبق وانت الذي بدأتني بمعروفك ..
فعارضه الباذري قائلاً :
– أنا لا أذكر انني قدمت لك معروفاً يستحق الذكر الى هذا الحد .
– معروفك الذي وشحتني فيه لا يحتاج الى شهود فكل هؤلاء القوم بما فيهم الامير خير شاهد على معروفك الذي أسديته لي عندما كنت في احرج الظروف – مشيراً الى قيامه له – .

– أنا لم أفعل إلا ما يفرضه عليّ الواجب ليس إلا .

– إذا كنت تعتبر ما قمت به نحوى فرض كفاية فإنني اعتبر ان ما سأقوم به الآن فرض عين وإذا كنت ترى لذة في فعل المعروف من حيث هو معروف فإنني اشعر بلذة لا يعادلها لذة في المكافأة على المعروف ..

– عندما قمت لك لم افكر ولم يخطر لي ببال انك ستقف مني هذا الموقف الذي اخجلتني واحرجت به موقفي .

– لو كنت أعلم أو أشك بأنك قمت بدافع يحدوك نحـــو طلب الجزاء أو المكافأة مني لمـا فعلت معك ذلك .. ولما كنت مؤمنـاً بأنك لم تفعل معي ذلك إلا بدافع المروءة ، فانني أجد الدافع نفسه يضطرني أيضاً لأن أقابل معروفك هذا بدافع من المروءة لأجل المروءة وبحـــافز من النخوة لكي يكون كل منا قدوة صالحة لقومه ..

وعندما طال الجدل بين الراشد والباذري ، فالأول يعبر لسان حـاله عن المثل العربي القائل : (اصطناع المعروف فرض كفاية والمكافأة عليه فرض عين) ..

والثاني يناجي نفسه بما قاله البارودي :

خلقت عيوفاً لأرى لابن حرة
عليّ يداً أغضي لها حين يغضب

وبينا كل منهما متعنت بفكرته عند ذلك توسط الامير فقال :

- ألا تقبلان أن اكون حكماً في حل الإشكال بينكما ..

فانتهز هذه الفرصة ابن راشد وسبق صاحبه قائلًا :

- لا مانع عندي ..

فالتفت الامير الى الباذري يسأله :

- هل انت موافق على حكمي ..

فقال وهو يتلعثم خجلًا :

- أجل اوافق ولكن بشرط ..

وقد أدرك ابن الراشد عن طريق البديهة ان الامير سوف يصدر حكمه بصالحه لكي يتنافس مواطنوه على ابتكار المعروف والمكافأة عليه ، لذلك أسرع فقال :

- لا أعلم ماذا يكون حكم الامير ، هل يكون بصالحي أم ضدي ولكني مع ذلك لا يسعني الا أن اقول انني قابل بما يحكم به اميرنا بدون قيد ولا شرط ..

ثم أردف قائلًا :

- ولا اعتقد إلا ان أبا فلان سيقبل (مشيراً الى الباذري) حكم الامير بدون قيد أو شرط ..

فأجاب الباذري بالقبول ..

فقال الامير : خير الأمور أوسطها ..

ثم مضى وقال : عليك يا ابن راشد ان تتراجع عن كون ابنـاء الباذري يكونون شركاء لأبنائك وان تتراجع ايضاً عن كون الهبة سارية المفعول حتى بعد مماتك وان تكتفي بأن تكون الهبة معمولاً بها ما دمت على قيد الحياة كشريك لك بكل ما تملك ..

ثم وجه الامير كلامه الى الباذري فقال : وعليك ايضاً ان تقبل هـذا الشرط فتكون أخاً شقيقاً لصاحبك ..

ثم قفز الامير وذهب يتبعه حاشيته دون أن يعطي الباذري مجالا للمعارضة أو طلب استئناف الحكم .. كما ان المدعوين تفرقوا حالما ان ذهب الامير، فلم يسع الباذري إلا ان قبل حكم الامير وهو يردد في نفسه المعنى الذي عبر عنه الشاعر المعاصر احمد الصافي النجفي :

ونبيل قوم جـاد لي برسالة
فواحـة من لطفـه بعبيره

وإذا بهـا ملغومـة بسخائـه
فاختـرت بـين مساءتي وسروره

حـاولت رد سخائـه فخشيت أن
اقضي على نبـع السخـا بضميره

فرضيت منكسراً بجرح كرامتي
وقبلت جرحي خوف جرح شعوره

وقد قام ابن راشد من فوره بارسال نصف ما يملك من حصاد زرعه ونخله وما لديه من نقود إلى صاحبه الباذري .

وظلت الصلة بينهما وثيقة العرى الى أن توفاهما الله ..

ولست أدري ايهما الذي لقي ربه قبل صاحبه ..

وقد رويت هذه القصة عن اكثر من واحد من النفر الذين منهم عاصر الحادثة وتوفي الى رحمة الله ومنهم من نقلها عمن شاهد الحادثة وكانوا شهود عيـان عليها ..

وعلى أية حال فالقصة معروفة ومشهورة خاصة عند سكان مدينة حائل فهناك من الاحياء الذين يعرفونها بحكم تناقل الرواية المتداولة من السلف الى الخلف ..

ادخار الفضل في اعناق الكرام خير من ادخار المال

-٢٨-

يخطيء كل الخطأ من يظن أن المال او العقار الذي يدخره المرء لابنائه وحدهما كاف لسد حاجات الزمان وغوائل الدهر ، بل هناك من الاشياء التي يصطدم بهـا المرء في حياته احياناً لا ينفع بها المال المرصود ولا العقار المدخر اكثر من نفـع المعروف الذي يدخره المرء في اعناق الرجال ذوى الفضـل ، فالمعروف في ذمـة اصحاب المروءة كنز لا ينضب معينه ، ولعـل في هـذه الحادثة التي نقلتهـا من مصدرها المرحوم محمد بن ماضي [١] ما يعطينا اصدق الأدلة على صحة هذه النظرية .

كنت بين فترة وأخرى اذهب من دمشق الى لبنان لزيارة المرحوم ابن ماضي عندما كان في مصـح ظهر الباشق والواقع انني كنت انوي في زيارتي له ان اسليه واقاسمه الهموم كمريض يشكو من عدة امراض وكغريب وبعيد عن اهـله .. ولكنني عندما اجتمع به أجدني عند رجل بدلاً من أن اسليه اشعر بأنه هو الذي يسليني وهو الذى يبدد الهموم عني ، بأحاديثه الشيقة التي هي من صميم واقعنـا العربي ، فكأن الرجل دائرة معارف مستقلة خاصة بمـا له علاقة في تاريخ جزيرة العرب ، وبمعرفة انساب الاسر والقصص الشعبية .. ويعجبني منه ضبطه للحوادث

---

١ – محمد من بلدة الروضة في سدير توفي عام ١٣٧٣ هـ ١٩٥٣ م .

وحسن القائه ، فتارة يحدثني عن تاريخ بلادنا في قرننا الحالي وطوراً يتحدث عن رجال القرن الماضي الخ ...

وفي ذات يوم اسمعني حادثة وقعت على يده ويؤكد انه كلما يذكرها يشعر بسعادة ولذة لا يعادلها اية سعادة ولذة في حياته كلها.. فيقول :

عندما كنت والياً من قبل الحكومة السعودية على مدينة ضبة المتاخمة للحدود الاردنية وردتني اوامر من المرحوم الملك عبد العزيز تشير الى المنع التام لتصدير اغنام المملكة الى الخارج ، لأن كثيراً من تجار المواشي اصدروا غنماً الى سورية والاردن وفلسطين في عهد الانتداب البريطاني بلا حساب ، الامر الذي سوف يجعل البلاد فقيرة بثروتها الحيوانية فيما اذا استمر التجار في سلوكهم هذا ، ولما كانت المكاسب التي يربحها التجار من وراء الماشية مغرية فان ذلك مما دفعهم الى الاستمرار بتجارتهم وذلك عن طريق التهريب، وحينما بلغ الملك ان التجار انتحلوا طريق التهريب ، عند ذلك أمر القائمين على رؤوس الحدود بأن يشددوا الحراسة وبالاضافة الى ذلك أمر بان الماشية المهربة التي تقع بيد امراء الحدود تكون ملكاً لهم ، الأمر الذي جعلهم يتصرفون بها كيف يشاؤون، وهذه الاوامر الاخيرة المغرية جعلت امراء الحدود يزدادون حرصاً على الحراسة اكثر من أي وقت مضى ، لأن القضية اصبحت قضية مصلحة محسوسة ، والامير الذي يوفق الى القبض على غنم مهربة فهذا يعني انه سوف يكسب صفقة خيالية من المال تزيد اضعافاً مضاعفة عما سيوفره من مرتبه الشهري ، فيما لو عاش عمراً طويلاً في خدمة الدولة ، لأن التاجر الذي ينوي ان يهرب غنماً من المملكة سوف لا يغامر بأقل من الفي كبش وقيمة الكبش لا تقل عن خمسين ريالا ..

وأمام هذا الربح المغري يؤكد ابن ماضي انه امر جنوده بأن يضاعفوا جهودهم بالتحري والتنقيب في الصحراء لعل القدر يسوق لهم من يستولون على غنمه ..

غنيمة لا يخشى مغتنمها الفقر

وعندما كان جنود ابن ماضي يطوفون الصحراء تارة خلسة ، واحياناً علانية ، التقوا بضالتهم المنشودة ، حيث وجدوا غنمـاً كثيرة العدد يسوقها صاحبها نحو الحدود الاردنية ، وقبل ان يدخل الحدود القي عليه القبض ، وجاءوا به يسوقونه الى اميرهم ابن مـاضي ، بينما ذهب بعض من الجنود مسرعاً الى الامير ليبشره بالغنيمة الدسمة التي لا يخشى مغتنمها من غارات الفقر مدة حياته .

كانت البشرى عظيمة بالنسبة لابن ماضي ، وكانت الغنيمة فوق مـا يتصوره ومنتهى امنيته ..

وعلى الفور أمر رجـالا ممن يثق بهم بأن يحصوا عدد الغنم ، كما أمر بسجن التاجر صاحب الغنم بدون ان يعرف اسمه أو يحقق معه ، لأنـه ليس بحاجة الى معرفة اسمه كما ان القضية لا تحتاج الى تحقيق لأن الاوامر الصادرة اليهم من قبل الملك تشير الى مصادرة أي شيء من الماشية التي تتجه نحو الحدود الاردنية بأي شكل من أشكال هذا الاتجاه. والتجار سبق ان ابلغوا هذا الانذار،واصبح لديهم علم بأن من يقرب من الحدود الاردنية الهاشمية بماشيته أو يتجه نحوها ومن ثم يلقى عليه القبض فان ماشيته سوف تصادر عن بكرة ابيهـا .. ولا يقبل له أي عذر كان ..

وعلى هذا الاعتبار اصبح صاحب الغنم يائساً من استرجاع غنمه .. وكل مـا يهمه الآن هو ان ينجو بنفسه من غياهب السجن الذي أودع فيه ، اما امير ضبة ابن ماضي فقد كان همه الوحيد محصوراً بتصفية هذه الصفقة ومعرفـة الزبون الذي اشترى منه الغنم دفعة واحدة ، وبينما هو سابح في لجة سروره بغنيمته هـذه واذا به يسمع احد جنوده يذكر اسماً يكنى به اسرة كبيرة من اهالي بريدة محبباً الى

نفسه وهو ما يدعى (بابن شريدة) فقال ابن ماضي للجندي :

– ما هي المناسبة التي جاء بها ذكر ابن شريدة ؟..

فقال الجندي ببساطة :

– يسألني رفيقي عن اسم صاحب الغنم فقلت يدعى سليمان بن شريدة ..

« لذة كسبه المعنوي طغت على اللذة المادية !! »

– ولماذا لم تخبرني ان صاحب الغنم ابن شريدة ؟..

– لم تسألني عنه ..

– اذهب فوراً الى وكيلي الذي وضعتم عنده الغنم وأكد عليه بأن لا يتصرف بشيء منها وها انا ذاهب اليه لأقدم له اعتذاري وافرج عنه واسلمه غنمه ليتصرف بها كيف يشاء ..

* * *

كان المرحوم ابن ماضي يروي لي هـــذه القصة وكنت مصغياً بكل حواسي لحديثه ، إلا أنه بعدما وصل الى تصرفه الاخـير أي عفوه عن السجين واعادة غنمه اليه وتحمله المسؤولية امام الحكومة ، عند ذلك قاطعته الحديث قائلاً :

– ما هو سر هذا التناقض ؟..

فقال : عندما عرفت ان الغنم لابن شريدة شعرت بلذة طغت على كل مـا في نفسي من الطمع ، وذلك ان والدي حدثني بأن محمد بن شريدة عميد هذه الامرة أسدى اليه معروفاً وذلك منذ اربعين سنة ، وصفة هذا المعروف هـو ان والدي عندما زار مدينة بريدة بمعية المرحوم الملك عبد العزيز قـدم ابن شريدة لوالدي مبلغاً من المال وقال له : هذه النقود خذها ان شئت فهي قرض وأن شئت هبة

واستعن بها على نوائب الدهر ..

واسترسل ابن ماضي بحديثه الى ان قال : ومن اجل هذا المعروف الذي بذله ابن شريدة لوالدي تحملت المسؤولية ، واطلقت سراح السجين واعدت اليه غنمه بعدما اعددت له ضيافة تليق بمقامه .. وزدت على ذلك بأن بعثت معه جنوداً يحرسونه حتى يوصلوه المكان الذي وجدوه فيه ، وفي الوقت نفسه بعثت رسالة للملك عبدالعزيز شرحت فيها جميع تصرفاتي من اولها عندما اردت ان ابتلع الغنم كما شرحت فيها الاسباب التي جعلتني اقدم على ما اقدمت عليه .. ولم يأت الي من المرحوم ادنى ملامة على تصرفي الاخير .

الفضل يملك الكريم وان قلّ

-٢٩-

قرأنا في كتب الأدب العربي المثل القائل (الفضل يملك الكريم ويخدع اللئيم والمثل الآخر القائل : استغن عمن شئت تكن نظيره ، واحسن الى من شئت تكن أميره ، واقبل معروف من شئت تكن أسيره ، والأمثال في مثل هذه المعاني كثيرة ، وأسوأ مثل سمعته هو المثل القائل: (اتق شر من أحسنت اليه). فهذا المثل ينهى بطريقة غير مباشرة عن فعل المعروف ، ومن المؤسف انني وجدته معلقاً في براويز في اكثر من بيت من بيوت المدن العربية فكأن واضعه يوصي أبناءه ان لا يفعلوا معروفاً ..

والحقيقة ان هذا المثل لا يضعه في منزلهالاشرير لئيم..أجل فالمعروف لايذهب سدى حتى مع الأشرار اللؤماء ، فالشرير اذا قدم له المعروف اذا لم يكن هذا المعروف رادعاً لشره فإنه على الأقل يكون مخففاً من أذيته ولو الى حد ما.. وللشاعر العربي بيت يناقض هذا المثل السيء اذ يقول :

احسن الى الناس تستعبد قلوبهم

فطالما استعبد الانسانَ احسانُ

والمثل العربي المنسجم مع بيت الشاعر يقول : المعروف رق ، فاختر لنفسك من تضع رقك بيده .

والذي أراه في هذا الصدد هو أن يبتعد المرء ما استطاع عن قبوله لمعروف أي انسان كان .

وأما اذا كان تنفيذ هذه القاعدة ضرباً من المستحيل وفقاً للمثل القائل: الناس بالناس والكل بالله ، إذا كان الأمر كذلك فعلى الرجل الابي الحر ان يختار كريماً لقضاء حاجته هذا إذا كان في ضرورة ماسة الى ان يعتبر ذلك ديناً معنوياً في ذمته وان يبتعد عن منّة اللئام مهما قست ظروفه .

وإذا كان من خلق الكريم ان ينسى أو يتناسى أو يتجاهل أي معروف يصدر منه مهما كبر شأنه وفي الوقت ذاته يستكثر أي فضل يسدى اليه مهما كان ضئيلاً ، فإن من طبعت نفسه على اللؤم سيكون عكس الاول .

«والفضل في نظر الكرام جزء لا يتجزأ ،قليله كثير،وكما ان اعادة الدين المادي واجب شرعاً فإن المكافأة على المعروف واجبة خلقاً وأدباً ومروءة، وتلك ظاهرة أمر بتنفيذها النبي محمد ﷺ فقال : من أسدى اليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا فادعوا له ، ومن معنى الحديث الشريف يبدو ان المكافأة على المعروف واجبة..»

وفي قصتنا هذه أكثر من معنى يدل على أن المعروف في نظر الكرام وان كان ضئيلاً لا أهمية له فإنه كبير كمعروف ،بصرف النظر عن ضآلته وصغر حجمه ..

في عام ١٢٤٩ هـ غزا الامام فيصل[١] بن تركي آل سعود جنوب الجزيرة، وكان من ضمن رجاله الغزاة عبدالله العلي الرشيد وكان وقتها لم يبلغ من ذيوع الصيت ما

---

١ – الامام فيصل الجد المباشر للمرحوم الملك عبدالعزيز .

بلغه مؤخراً ، وانما كانت دلائل النجابة وعلامات الرجولة تعبران على انه لم يكن بالشاب العادي ..

وفي ذات يوم دخل الفتى مجلس الامام فيصل فوجده حاشداً من شتى أعيان ساكني شبه الجزيرة بدوهم وحضرهم فجلس الرجل حيث انتهى به المجلس وكان من ضمن الرجال الذين جمهم نادي الامام فيصل شخص يدعى حماد الذائدي من قبيلة عنزة،وما ان ابصر الذائدي عبدالله جالساً حتى قفز من مكانه وقدم اليه (عوكية)[1] فاستدناها عبدالله واتكأ عليها وبعد ان انتهى المجلس أعادها الى صاحبها ..

مرّت الايام وإذا بعبدالله ينال ثقة الامام فيصل واعجابه فيوليه امارة بلدته حائل، فيكون عبدالله أميراً للبلاد ولقبيلته شمر بعدما كان شاباً عادياً لا يملك من الدنيا إلا قلباً ألمعياً طموحاً مغامراً لا يفكر في نتائج مغامرته ومنفذاً كل التنفيذ للمعاني التي نوه عنها الشاعر الاحسائي ابن المقرب حينما قال :

لا يبلغ العليـاء إلا ابن حرة
قليل افتكار في وقوع العواقب

جريء على الاعداء مر مذاقه
بعيد المدى جم الندى والمواهب

وعندما بلغ عبدالله ما بلغه من المجد هناك راح ينفذ عملياً قول الشاعر العربي:

ان الكرام إذا ما أيسروا ذكروا
من كان يألفهم في المنزل الخشن

فذهب ينقب عن الذائدي الذي ناوله العوكية في أيام ضعفه لكي يكافئه على

---

١ ـ العوكية هي عبارة عن عصا معكوفة الرأس صالحة لأن يتكأ عليها .

ذلك المعروف المتواضع . في ايام قوته ومجده، وعندما وجده أكرمه اكراماً يليق به وواساه واعتبره أخاً حميماً . وقد توفي الذائدي قبل وفاة صديقه عبدالله فما كان من هذا الاخير الا ان تعهد برعاية وعناية ابناء الذائدي الايتام كأنهم ابناء أخيه، ومما هو جدير باعجابنا بالوفاء العربي من حيث هو .وأنى كان مصدره،ان عبدالله لم تقف به مكافأته لمعروف الذائدي الى حد اكرامه له في حياته واكرامه لابنائه بعد مماته والدهم،لا لم يقف به الامر الى هذا الحد، بل انه أوصى ابناءه بأن يتعهدوا ابناء الذائدي بالاكرام مما جعل اواصر الصداقة بين ابناء عبدالله وابناء الذائدي وطيدة الاساس راسخة الاصل مدة طويلة من الزمان .

الكريم الذي ينسى ما اسداه من معروف ويذكر ما اسدي اليه

- ٣٠ -

اعتقد إنني ذكرت في غير هذه المناسبة انه من شيمة الكريم ، أن ينسى كل ما يبدو منه من معروف لاخوانه وأن يذكر بالخير دائماً ما يسدى إليه حتى ولو كان المعروف المسدى اليه قليلاً ومعروفه هو كبيراً ..

وهذه الظاهرة معروفة في عالم الاخلاق والشيم العربيـــة ، ولدينا من الادلة الواقعية بهذا الشأن أكثر من دليل وأنما أود أن استشهد بقليل من كثير ..

نقل اليّ السيد سليمان [١] ابراهيم القاضي الرواية الآتية :

يقول القاضي انه عندما كان موظفاً للحكومة السعودية ويعمل كمشرف على الحجاج القادمين عن طريق الكويت وذلك في عام ١٣٦٠ هـ في تلك الأيام مر به نفر من سكان الكويت قاصدين بيت الله الحرام .. وكان الفصل شتاء شديـــد البرد ، وقد لفت نظر القاضي على حد قوله شيخ مديد القامة يوحي منظره لأول وهلة بالوقار والهيبة والرجولة .. فسأل عنه فقيل هذا شملان بن رومي [٢].. يقول

---

١ – سليمان القاضي من بلدة عنيزة .. راجع كتاب المؤلف (من شيم العرب) الطبعة الثانية ج ١ ص ١٥٠ .

٢ – شملان من اعيان اهالي الكويت واصله من قبيلة عنزه .

القاضي : كنت اسمع عن الرجل بأنه كان من رجال المروءة والكرم والنجـــدة والثروة الجمة ..

قل أن يجتمع المال والكمال

كما سمعت أن مروءته الدافقة وسخاءه المتناهي كانا على حساب رأس ماله الذي انفقه في سبيل النجدة وبذل المعروف .. ولذلك يقول الراوي إنني عندما رأيته في منظر لا يتجاوب ومنزلته الاجتماعية وسمعته الطيبة جئت اليه وأخذت بيـــده قائلاً العبارة الآتية :

(تفضل يا شيخ شملان أنت كالحصان الاصيل عند الشواوي) [١] .. فيقول : جئت به الى مكاني الخاص وأكرمت مثواه وكان ذلك كما أشرت في عـــام ١٣٦٠ هـ ..

ويؤكد القاضي انه لم ير شملان بعد ذلك إلا في الكويت بعد مضي أربع سنوات وذلك في مناسبة جاء بها القاضي الى الكويت كمندوب من قبل الحكومـــة السعودية ، ويقوم بعمل المساعد التجاري وهو ما يعبر عنه بالملحق التجاري ..

وفي اللحظة الاخيرة التي كان فيها القاضي على اهبة الاستعداد للسفر الى بلاده منتهياً من مهمته .

كان يظن أنه يريد أن يأخذ منه واذا به يريد أن يهبه

وقف شملان بجانبه وقال :

– إنني أريد منك يا بني حاجة ما ،وأود ان لا تردني خائباً ..

---

١ – الشواوي الذين لا يعرفون الخيل الأصيلة . أي انك كالجوهرة عند من لايعرفها .

يقول القاضي : لما كنت أعرف ان اوضاع الرجل المالية متدهورة فإنني لم اشك قطعياً إلا انه يريد ان يستدين مني ،ولذلك شعرت ساعتذاك بعاملين يغمران كياني وكلاهما متضاربان : العامل الاول هو سروري عندما قصدني هذا الرجل الكريم دون غيري لاعتقادي ان نفسه العظيمة لا يمكن ان يذلها لأحد الا لأفذاذ الرجال الذين يعتقد فيهم المروءة . والعامل الثاني هو انني خشيت انه سوف يطلب مني ان اقرضه مبلغاً من المال اكثر من الرصيد الذي املكه .. ويقول القاضي : وبين هذين العاملين وجدتني بحيرة من امري واخيراً مددت يميني له وقلت :

- أبشر بموافقتي سلفاً على ما تطلبه مني فيم اذا كنت استطيع ان اقوم بطلبك على الوجه الاكمل ..

فقال الشيخ :

- لقد طوقت عنقي بمعروفك الذي لا يمكن ان انساه مدى حياتي ، وذلك عندما اخذت بيدي وقلت لي تلك الكلمة التي كلما اذكرها اشعر بنشوة تهيمن على كياني ، ولهذا اود ان تقبل مني يا بني هذه الهبة التي اجدني بغنى عنها وانت كموظف راتبك محدود قد تكون بحاجة اليها وهي عشرين الف روبية ..

يقول القاضي : انني لم استغرب هذه المروءة من شملان ، ولكن موضع استغرابي هو انني اعرف ان الرجل صفر اليدين من المال ..

الفضل كله يعود لصديقي الوفي

ويؤكد القاضي بأنه شكر الشيخ واقسم له انه ليس بحاجة لشيء من ذلك ، وانما الشيخ الذكي ادرك بفطنته ما يدور في مخيلة القاضي من الاستغراب وعلامات

الاستفهام الخفية ولذلك بادر شملان القاضي قائلاً له :

– قد يقول لسان حالك يا بني ان شملان تقلصت ماليته ، فمن اين له هذا المال الآن ؟..

ثم مضى الشيخ بحديثه الى ان قال : حقيقة ان مالي ضاع من بين يدي ، ومستني الحاجة واصبحت فقيراً بعدما كنت ثرياً ، ولكن الفضل كله يعود لصديقي الوفي الشيخ يوسف [1] بن عيسى القناعي الذي جبر عثرتي وواساني بنفسه وأعاد الي اعتباري وذلك بنجدته الفذة ..

وراح الشيخ يروي المروءة التي قام بها صديقه يوسف القناعي فقال :

– عندما مررت بك حاجاً الى بيت الله الحرام كانت اوضاعي الاقتصادية متدهورة ، وعندما عدت من مكة الى اهلي وجدت منزلي مملوءاً بالسكر والشاي والقهوة والهيل والاقمشة الخ .. فسألت الاهل لمن تكون هذه البضاعة فقيل انها ليوسف القناع ،ولما كان بيني وبين القناع صداقة ارتفعت فيها الكلفة ، فقد ظننت انه اراد ان يؤمن عندي هذه البضاعة الى ان يحين الوقت الذي يأتي فيه زبون يشتريها منه ، وعندما طالت المدة ذهبت اليه فقلت على سبيل المداعبة :

– لقد مضى على بضاعتك مدة طويلة في منزلي فما عليك الا ان تدفع لي الارضية والاجرة معاً ..

فصمت القناع قليلاً ثم ابتسم وقال :

– أرى ان تتصرف في جميع ما عندك من البضاعة مقابل الاجرة ..

---

١ – يوسف القناع من اهالي الكويت ، وحتى كتابة هذه الاسطر وهو على قيد الحياة ، وكان يعمل رئيساً لمحكمة التميز في الكويت .

يقول شمـــلان : كنت اظن ان حديث صاحبي كله مزاح بمزاح ولكنه عاد وقال :

- ان كل مـا في منزلي من البضاعة انما هو ملك لك انت بالذات ، لانني منذ مدة طويلة فرزت رصيداً معيناً من ماليتي ونويت ان اضعه بأسمك وان ابيع فيه واشتري كتجارة لحسابك ، فكانت النتيجة ان نمت تلك التجـــارة وتباركت حتى بلغت الذروة ، ومـا هذه الاشياء التي في منزلك إلا حق لك لا يشاركك به احد ..

هو صاحب الفضل الاسبق

يقول القاضي : عندما سمعت هذا الحديث من الشيخ شملان بحق الشيـخ القناع ذهبت على الفور الى منزل يوسف القناع ورحت اشكره على مروءته التي أسداها إلى رفيقه ، فقال القناعي : سامح الله أخي شملان لقد تحدث عني بأكثر من اللازم ولكنه لم يتحدث عن نفسه ، وعن المعروف الذي أسداه إليّ فلو انه قال الحقيقة على وجهها الأكمل لعلمت انه هو صاحب الفضل الأسبق عليّ والذي فعلته لم يكن إلا مقابل الشيء القليل من كثير .. ومضى القناع بحديثه الى ان قال : عندمـــا أوصدت بوجهي جميع أبواب الرزق جاءني الشيخ شملان وقال :

- اريد منك ان تأمر أخاك حسيناً لـكي يذهب الى الهند ليفتح مكتباً هناك وأنا بدوري ارسل له كوكيل لي ، يقول فأجبته قائلًا :

- ان المكتب يحتاج الى رأس مال كثير ونحن لا نملك من المـال شيئاً .. فقال شملان :

– فليذهب الآن وقضية المال لا يهمك أمرها فهذا شيء سوف اكون انا المسؤول عنه فيقول الشيخ القناع فذهب اخي الى الهند وظل الشيخ شملان يموله بالمال والمعاملة من عنده حتى يسر الله امرنا وجميع ما نملكه الآن هو فرع من أصل البذرة التي غرس ثمرتها اخي شملان فهو الأصل في رزقنا بعد الله ..

الفصل الخامس

برّ الوالدين وفطنة المرأة العربية

العَيْشُ ماضٍ فأكرمْ والديكَ بِهِ
والأمُّ أولَى بإكرامٍ وإحسانِ

أبو العلاء أحمد بن عبد الله
ابن سليمان المعري

الفتاة التي طغى برها بوالدها على عطفها بابنها

- ٣١ -

كانت القاعدة المألوفة تشير الى ان الفتاة متى ذهبت من بيت ابيها الى بيت بعلها فمعنى ذلك انها ارتبطت بنسب زوجها واصبحت محسوبة من اسرة الزوج، اما إذا انجبت من بعلها ذرية فعندئذ تكون انقطعت صلتها نهائياً بوالدها واهلها واصبحت صلتها ببعلها واهله صلة وثيقة لا تنفصل .. •

وكثيراً ما نرى صحة هذه القاعدة في تاريخ ارتباط النكاح المشروع ، فنرى مثلاً فتاة ما انكحت من رجل من غير اسرة اهلها او من غير رجال قبيلتها ثم حدثت خصومة وشقاق بعد عقد النكاح بين اهل الفتاة وبين بعلها ، فكثيراً ما نسمع ونرى ان الفتاة تميل مع بعلها اكثر من ميلها مع اهلها ، خاصة إذا انجبت منه ذرية واصبحت رابطة الالفة والنكاح قوية بين الزوجين .

وكنا نظن ان هذه القاعدة مطردة لا تؤثر عليها عاطفة الوالدين .. ولكن سرعان ما اتضح لنا خطأ ما كنا نتصوره ..

وذلك في مناسبة حادثة سوف نذكرها في حديثنا هذا ، تلك الحادثة التي اعطتنا دليلاً واضح المعالم على ان هناك من الفتيات العربيات من يرين ان الوفاء

للوالدين والبر بهما فوق الرابطة الزوجية بل وفوق عاطفة الام لأبنها ..

وخير المشاهد الناطقه على صحة مـــا اشرنا اليه من صميم هذه القصة الواقعية التالية :

بين عام ١٢٩٠ و١٣٠٠ هـ وقع نزاع بين سالم الشليخي [١] ومبارك بن مغيث وتطور ذلك النزاع من الكلام الى الفعل ، حتى وصل الأمر الى ان طعن احدهما الثـــاني بعديته طعنة بليغة ولكنها لم تصب منه مقتلاً .. وكان البادىء بالطعنة الشليخي ..

وحسب العرف المتبع هرب الطاعن الى قبيلة عتيبة المضادة لقبيلة قحطان لكي يكون في حصانة منيعة من يحاول ان يأخذ منه الثأر ..

وكان الطاعن والمطعون كلاهما كما اشرت آنفاً من عشيرة واحـدة ومن بطن واحد وتربطهما ببعضهما لا رابطة العشيرة فحسب .. بل ورابطة المصاهرة وذلك أن ابنة الشليخي الطاعن في عصمة شقيق مبارك المطعون .. وكانت الفتـــاة في وضع حرج جداً بين والدها الذي ذهب شريداً طريداً خوفاً من انتقام بعلها واخيه وبين زوجها الذي هي مرتبطة به برابطة النكاح الشرعي .. وزاد الطين بلة انهـا انجبت من بعلها مولوداً لا زال يعيش على حليب أمه ، فأصبحت الفتـــاة تكافح عاملين كلاهما يتصارعان في صميم كيانها :

- عامل عاطفة الامومة تجاه طفلها الرضيـع ..

- وعامل يحفزها بعنف تجـــاه برها بوالدها الذي ترى انه سبب وجودها بهذه الحياة ..

ظلت الفتاة في حيرة من أمرها بين اختيارها لأحد السببين ، وبلغت بها الحيرة

---

١ - كل من الشليخي وابن مغيث من قبيلة قحطان ومن فخذ يسمى آل عاصم .

وشرود الذهن درجة أنستها ابنهـــا وأصمت اذنيها عن صياح الطفل الذي اقض مضجع رجـــال ونساء القبيلة في تلك الليلة الماطرة المدلهمة من ليـــالي الشتاء الطويلة ..

كان والد الطفل يتعلل في نادي رئيس القبيلة ويشارك القوم بالاستماع الى قصة يرويهـــا شيخ طاعن بالسن من الرواة المختصين بحفظ القصص الشعبية ، والبارعين بحسن الالقاء .. وكان مصغياً لأحاديث الراوي بكل حواسه .. وفجـــأة قطع الشيخ القصاص حديثه دون أن تنتهي القصة متأثراً بصراخ الطفل المزعج .. كما ان والد الطفل استعـــاد حواسه التي كانت منصبة نحو احاديث الشيخ ، وتحركت عواطفه نحو صياح الطفل الذي وجده يشبه صياح ابنه .. كما ان رجال الندوة عن بكرة أبيهم تأثروا من صوت الطفل ، الذي يشبه صياح من لدغته افعى . ولكن الوالد كان اكثر القوم انزعاجاً وتأثراً من صوت الطفل ، الذي كلما اصغى اذنيه ليتثبت من الصوت ازادد يقيناً بأن الصوت ليس الا صوت ابنه ..فلم يسعه إلا ان قفز من النادي وذهب الى بيتـــه .. وكان يسير في بداية الأمر سيراً طبيعياً ، ولكنه كلما ازداد قربـــاً من بيته ازداد يقيناً بصحة حدسه بأن الصراخ صراخ ابنه .. فبدل مشيه المعتاد بالهرولة ثم بالقفز كالمطرود.حتى وقف على الحقيقة فوجد ابنه يصيح صياحاً يتفطر له أقسى القلوب غلظة.. ويتقلب على بطنه تارة وعلى ظهره أحياناً ويتخبط الارض بساقيه الطريتين.. فخطفه ووضعه على ذراعيه وراح يسأل عن أمه وقد اخذته روعة منظر الطفل عن رؤيته لزوجته التي كانت بجانب الطفل جالسة ولكنها شاردة الذهن فكأنها في سبات عميق ولم تفق من ذهولهـا وحيرتها حتى صاح بهـا بعلها بعدما استرد شيئاً من ذهوله هو الآخر ونظر اليهـا فوجدها صامتة كأنها تمثال من تماثيـــل دكاكين الاقمشة في المدن الكبرى لم يتحرك منها شيء ابداً حتى بصرها كان طافحاً شارداً كأنها في عالم غير عالم الاحياء.. فدنا منها ووضع كفه الايمن على رأسها بينما كان ضاماً ابنـه الى صدره بذراعه الايسر وقد تضاعف بكاؤه وازداد صراخه ثم شد رأس زوجته بعنف صارخاً بها قائلاً :

ـ يا فلانة .. مالك .. فكأنه يوقظها من سبات عميق ، فأشاحت بوجهها عنه بعدما اتخذت قرارها النهائي ولم يكن للحيرة والموقف الوسط المذبذب أي مكان في قلبها الوفي البار بوالدها الذي استولى على كيانها، الأمر الذي جعلها تضحي بكل غال في سبيل رضاه حتى ولو كان فلذة كبدها البكر الوحيد.. فشعر زوجها ان حليلته تتعمد تحديه وتتجاهل وجوده فصرخ بها ثانية :

ـ ألا تسمعين ؟ ..

ـ بلى أسمع وأرى ..

ـ ألا تسمعين صراخ ابنك اللديغ ؟..

ـ أجل ، ولكنه ليس باللديغ كما تظن ؟..

ـ اذن ما باله يصيح ؟..

ـ لأنه جائع يريد الرضاع ..

ـ ولماذا سهوت عن رضاعه ؟..

ـ لم أنسه بل تركته عامدة متعمدة ولن يرضع ثديي البتة ..

ـ أبك جنة ؟..

ـ كلا بل انني سليمة العقل والحواس ولله المنة وانما رأيت أن من العقل والوفاء والبر بأن اهجر الابن الذي كان ابوه وعمه جعلا والدي يهجرني ويهجر أهله وقبيلته ويجلو شريداً طريداً ..

ثم صمتت قليلاً وقبل أن ينتهي بعلها من جوابه لها الذي بدأه بقوله :

ـ ألا تعلمين ان والدك كان البادىء باعتدائه على أخي ..

فقاطعته الحديث قائلة :

ـ أجل لقد اخذت على نفسي عهداً بأن لا ارضع ابنك لأن اباه وعمه لم يكن لديها من التسامح والعفو اللذين هما من شيمة الكرام مـا يجعلانها يغفران عقوة جده ..

وقد توقفت قليلاً تكفكف دمعتها التي انحدرت على خديهـا كحب اللؤلؤ المنفرط من سلك الحرير ، ثم قالت :

ـ ان الولد الذي ينحدر من هذه العائلة العاقة الجافية التي لم يفكر رجالها يوماً من الايام بالحلم والعفو عن والدي بقدر ما يفكرون بعقابه والانتقام منـه جدير بالجفاء وخليق بالعقوق والحرمان ..

وجم الرجل قليلاً ثم ذهب الى اخيه حاملاً ابنه الذي لا زال يوالي صراخه المفجع ..

وكان الليل قد مضى منه ثلثاه وكان أخوه قد تدثر بلحافه السميك .. ولكن صراخ الطفل قد أيقظه من سباته قبل ان يوقظه اخوه .. فراح يشعل النار مقابلاً أخاه بالتحية التي تلتها حروف الاستفهام المترادفة :

ـ مال ابنك يا أخي ؟.. عسى ان لا يكون لديغاً .. أهو الذي كان يصرخ من أول الليل .. حتى قطع علينا القصة الشيقة التي رواها لنا الشيخ فلان ..

ـ أجل هو ابني ولكنه لم يكن لديغاً كما تظن وكما خيل الي سابقاً عندما سمعت صراخه في أول الامر ..

ـ اذن لا بد ان يكون مريضاً .. ما أسوأ مرض الاطفال ..

فقاطعه اخوه قبل ان يزيد على كلمته التي اشار بها الى قوله ان الطفل اذا مرض مرض والده فقال :

ـ ان ابني لم يكن مريضاً ولكنه جائع ..

ـ جائع .. أين والدته ؟..

ـ الحديث عن والدته طويل وطويل .. وسوف اشرح لك امرها بعدما تأخذ طفلي وتسلمه لزوجتك لترضعه ..

ـ أنا لا أحب ان يكون بين ابنك وابنتي رضاع خشية من المستقبل الذي يجعل القران بينهما محرماً ..

ـ نحن الآن في حالة ضرورة والمستقبل لا يعلم ما وراءه إلا الله ..

اخذ العم ابن اخيــه وسلمه لحليلته التي هي الاخرى أيقظها من رقادها صراخ الطفل ثم عاد لأخيه ليستفهم منه خبر زوجته ..

وقد بدأ أبوالطفل يشرح لأخيه الرواية بينما أخوه مصغ لحديثه بجميــع حواسه ولكن صراخ الطفل كان يستثير عاطفة والده فيقطع الحديث بين كل كلمة وجملة ويسأل أخاه قائلا :

ـ أرى الطفل ما زال صراخه مستمراً ..

فيهدىء أخوه من روعه بقوله :

ـ سوف يسكت الآن وينام بعدما يرتوي من الرضاع .. فيمضي والد الطفل يواصل قصة زوجه ثم يصمت برهة مصغياً الى صراخ الطفل الذي أخذ في الازدياد.. وكان أخوه مبارك قد استوعب قصة الزوجة وان كان ابو الطفل لم يصل بالقصة الى نهايتها بسبب صياح طفله الذي شتت عليه افكاره وبعثر حواسه ..

ذهب مبارك الى زوجته لينظر ما هو سبب بكاء الطفـل بعدمـــا ارتوى من الرضاع على ما يظن.. وقبل ان يسأل مبارك زوجته قاطعته امرأته قائلة :

ـ ان الطفل رفض ان يرضع مني بل ولم يقبل ان يضع ثديي بفيه رغم محاولتي اليائسة ..

فعاد إلى أخيه لا ليخبره بأن طفله رفض الرضاع وإنما ليؤكد له بأنه قد تجاوز وعفا عن والد الفتاة الذي طعنه .. فقال مبارك ..

– هيا بنا الى امرأتك ..

– ماذا تريد منها ؟..

– لأعطيها عهدالله بأني قد تنازلت عن ثأري الذي أدين به والدها واؤكد لها بأني سوف اذهب غداً الى قبيلة عتيبة لأعلن لوالدها تنازلي عن حقي ولن أعود حتى يكون أبوها بجانبي .. ما رأيك بهذه الفكرة ؟..

– الأمر عائد اليك فأنت صاحب الحق فإذا عفوت فهذه شيمة وفضيلة منك.. ثم انت الأخ الاكبر فالذي تأمرنا به سوف لا نخالفه ..

– أرى ان نذهب الان الى زوجتك ونخبرها بالحديث الذي يسرها طبعاً ..

– فلنأخذ الطفل معنا ..

– دع الطفل الان عند زوجتي وسوف تأتي والدته نفسها تحمله وتكفينا أمره ..

ذهب الاخوان الى المرأة البارة وما ان رأتهما حتى أيقنت انها نجحت بفرض إرادتها فبادرها مبارك قائلاً :

– يا ابنة فلان .. لقد تضاعف قدرك واحترامك عندنا بعد موقفك هذه الليلة مضاعفة فوق ما تتصورينها .. فصمت قليلاً ثم واصل حديثه قائلاً:

– اعاهدك الله اني قد عفوت عن والدك كما اعاهدك الله ثانية بأني سوف اذهب غداً اليه ولن أعود حتى يكون بصحبتي ..

– هذا ما ينبغي ان يعمل به كريم من امثالك ولست استغرب ذلك منك وانما استغرب منك عكس هذا..

– ألا تذهبين معنا لتأخذي طفلك ؟..

– بلى ..

ذهبت الزوجة الى بيت حماها وأخذت طفلها وأرضعته ونام الطفل بعد ذلك

نوماً لذيذاً كما نامت والدته وهي قريرة العين عامرة الوجدان راضية عن نفسها بارة بوالدها ..

وفي الصباح الباكر ذهب الاخوان الى قبيلة عتيبة ولم يعودا حتى عاد معهم ابو الزوجة ..

وعندما وصل اهله وذويه ووجد ان اصدقاءه الذين كان يعتقد فيهم الوفاء قد جفوه بعدما ابتلي بمحنته التي اضطرته الى الجلاء والتشريد، كما وجد ذويه الاقربين لم يواسوه بغربته ولم يسألوا عنه .. عند ذلك راح يفكر ويفكر .. ويعبر عن افكاره وما يختلج في نفسه بقصيدته التي جاء منها قوله :

الله يلومْ خويلدٍ وابن دِرعانْ
لومٍ بهم ورقْ الحَمايِم تُغني

ما ساعدوني يوم تفريق الاضعان
تجالدوا يوم الذيابةَ عوني

الشرح : يلوم الشاعر بعض أفراد قومه الذين لم يتوسطوا له بالصلح مع أبناء عمه .. وهذا ما قصده في البيت الاول ، وأما في البيت الثاني فإنه يقول ان هؤلاء النفر تخلوا عني في أبان محنتي يقصد عندما أراد أن يجلو عن أهله وقبيلته فيقول لقد تركوني في الحين الذي كثر فيه اعدائي حتى أصبحوا كالذئاب المفترسة ..

اقْطعْ رفيقٍ لي الى صِرتْ طَربانْ
والا على الشدّاتْ ما هو مني

يقول : ألا قبح الله الصديق الذي يتظاهر بالوفاء والاخلاص بأيام السلم

والسرور والطرب بينما هو بالشدائـــد والمحن سرعان مـا يتخلى عني كأنه لا يعرفني ..

إذا احتمَلتْ فهو من الشَيلِ عَريانْ

وإذا احتملْ مني العيون اسهرني

يقول : ألا قبح الله الصديق الذي إذا أصابتني مصيبـــة لا يعبأ بمصيبتي ولا يعيرها ادنى اهتمام .. بينما أجدني إذا أصابته مصيبة لا أبيت الليل من همـه حتى اشعر انني اشاركه بآلامه وبؤسه وأحزانه ..

اذا كان لك يد على الكرام فلا تخف

- ٣٢ -

كان الزمان الذي عاشته أمة العرب خاصة في الزمان الاول قائماً على الأمور المعنوية أكثر من قيامه على الماديات ،وحياتهم الأدبيةوالأجتماعية كلها تثبت صحة ما أشرت اليه بأدلة لا يعتريها شك ولا ريب ..

ولئن بدأت تلك الناحية تتقلص مع الأسف في بعض البلاد العربية فإنها في صميم جزيرة العرب اذا لم أقل انها سارية المفعول الى يومنا هذا فإنني لا أستطيع أن أقول أنها اضمحلت نهائياً لأنني تركت البلاد منذ مدة لا تقل عن ثمانية عشرة سنة من تاريخ يومناهذا ١٧ -٧-١٣٨٤ هـ -٢٧-٧-١٩٦٤ واعني أنني تركت السكنى بين تلك الاحياء الشعبية وأبعدت عن معرفة الحياة الأجتماعية وأصبحت من تلك المدة بعيداً كل البعد عما كنت اعرفه عن حياة قومي عن كثب كما كنت سابقاً وهذا ما يجعلني أزداد تأكيداً بأنني لا أستطيع أن احكم الحكم الفاصل في كلتا الحالتين ، فلا اقول أن جزيرة العرب اصابتها العدوى التي أصابت بعض البلاد العربية كما أنني لا أستطيع القول أيضاً بأن سكانها ظلوا متمسكين حتى الآن ، بعاداتهم وشيمهم التي ورثوها منذ فجر التاريخ ، ولكن الشيء الذي استطيع أن

اثبته بالأدلة الأكيدة وهو أن الأخلاق التي عرفت بها العرب منذ العهد الجاهلي وما قبله تلك التي قامت على احترام المعنويات اكثر من احترامهم للماديات ، هذه الاخلاق ظلت سارية المفعول بصورة ملحوظة الى عهدنا القريب الى درجة أن النساء المخدرات اصبحن يدركن هذه الظاهرة بالبديهة ، واليك الدليل القاطع على صحة ما أشرت اليه :

كان ذلك في عام ١٢٨٩ هـ عندما قتل محمد العبد الله الرشيد ابن أخيه «بندر» امير حائل ، ولا أراني بحاجة الى شرح الأسباب والحوافز التي دفعت محمداً الى ذلك ، فتلك امور أشار اليها المؤرخون الذين كتبوا عن تلك الحقبة من الزمان ..

وشاهدنا هنا ما نقله اليّ المرحوم سلمان بن رشدان [1] يقول ابن رشدان أن مصرع بندر على يد محمد كان مفاجئاً لنا نحن اهل البلاد بشكل عام ، كما كان بلا ريب مفاجئاً لاخوته وزوجه بصورة مذهلة .والسبب على حد قول الراوي أن اهل البلاد كانوا يعرفون أن محمداً سافر في مهمة ما ، ولكن القضاء والقدر اخلف ظن الجميع وذلك أن المسافر قدم في الحين الذي كان أمير البلاد بندر خارجاً عن البلاد قاصداً موقعاً قريباً من البلاد يسمى (الحريمي) لا يتجاوز خمسة كيلومتراً يتنزه فيه ويغرس مشاتل النخل في أرضه الخصبة ،وفي قدوم المسافر محمد من سفره وخروج الأمير بندر الى نزهته حدث الامر الذي لم يكن بالحسبان والذي كما اشرت لا أريد شرح اسبابه ومسبباته ، المقصود أن محمداً قتل بندرا خارج البلاد، وكان حمود العبيد ابن عم محمد حاضراً عملية التنفيذ ويؤيد محمداً ضمنا بقتله لبندر ، وكان أخوة بندر الاشقاء ستة وهم بدر وسلطان ومسلط ونهار ونايف وعبد الله بينما

---

١ – سلمان بن رشدان ورد اسمه والتعريف عنه في اكثر من موضع من كتابنا هـذا ..

كان محمد لا أخوة له ولا أبناء ايضاً بصفته عقيا ، الامر الذي جعله لا يستطيع أن يقدم من فوره على احتلال قصر الامارة الذي يقيم فيه اخوة الامير المقتول فذهب وقصد جبلاً يشرف على مدينة حائل وملاصقاً لها للغاية .. سمي (غَنِيف) وهو في ذهابه هذا يريد أن يعرف ماذا يلاقيه من موقف الرأي العام الشعبي ، فإن وجد تأييداً شعبياً اقدم على قصر الحكم وأن لم يجد مضى في سبيله لينجو بنفسه ، أما أبن عمه حمود فقد ذهب الى قصر الامارة بحكم انه يسكن في الجانب الشمالي منه وراح يعد العدة لمؤازرة محمد ..

فطنة وذكاء وبعد نظر

فذهب يفرق السلاح على حاشيته ، ويهيء نفسه للطوارىء ، اما أخوة بندر فلم يعرف أحد منهم ماذا حصل لأخيهم القتيل ، ولم يكن لديهم من الفطنة ما يجعلهم ينظرون الى ما يقوم به جارهم حمود من تفريق السلاح على حاشيته ومن الاعمال التي تدل على الريبة منه وعدم الاطمئنان اليه ، لا لم ينتبه اخوة الامير القتيل لهذه الناحية وانما الذي انتبه اليها ولاحظها بدقة زوجة الأمير بندر المسماة (نشه) أبنة بن علي والتي هي محور قصتنا هذه ..

فهذه المرأة عندما رأت حمود العبيد يفرق السلاح والعتاد على رجاله وجهت سؤالها التالي الى بدر شقيق بندر القتيل قائلة :

ـ أين شقيقك الامير ؟.. فرد عليها قائلاً :

ـ خرج للنزهة الى (غريسه) .. فقالت :

الا ترى أن مجيء حمود قبل الامير وتفريقه للسلاح على حاشيته واغلاقه لباب

القصر الا تشعر أن كل هذه الامور من شأنها ان تدخـــل الشك والريبة وتجعلنا نفترض شتى الاحتمالات السيئة ؟..

وعندئذ استيقظ بدر من غفلته وقال :

– كل ما اشرت اليه حقيقة وما علي الآن الا أن اذهب الى اخوتي وحاشيتي لنتخذ الاجراءات اللازمة لمواجهة الطوارىء وشتى الاحتمالات .

فقالت المرأة الذكية :

– فلنفرض أن شقيقك الامير قتل ، ثم مضت وقالت : وهب ان هـــذا الافتراض حقيقة واقعية لا تقبل الجدل فقل لي من الآن كم عدد الرجال المواطنين الاوفياء الذين استطعت أن تضع في اعناقهم معروفاً معنوياً لكي يقفوا بجانبك فيما اذا دعتك الحاجة الى مؤازرتك في ظروف حرجة كهذه .. فقال :

– كنت اذكر انني شفعت عند الامير بصالح الجراد [1] في مناسبة مـا .. فقالت :

اذا كان الامر كذلك فهذا دليل على أنه لم يكن لك منن في اعناق الرجال الكرام الا بصورة فردية محدودة ، وهذا يعني انني سوف اعتقد جازمـة انك لن تجد من يناصرك او يربـط مصيره بمصيرك في هـذه الساعة الحرجـــة المجهولة المستقبل ..

وأخيراً جاءت تقديرات تلك المرأة موافقة طبق الاصل لما توقعته ، وذلك انه عندما علم المواطنون بمصرع الامير بندر على يد عمـه محمد ، لم يكن وقتهـا لدى شقيق المقتول أي رصيد شعبي يمكن ان يعتمد عليه في ساعته تلك الحرجة ، وكل

---

١ – انظر ص ١١٧ ج ١ من شيم العرب الطبعة الثانية للمؤلف .

ما في الامر ان جاء اليه عدد قليل جداً من المواطنين وفي مقدمتهم ذلك الرجل الذي شفع له عند الامير المدعو صالح الجراد وظل بجانبه الى اللحظة الاخيرة ، وبالتالي انتهى الامر بتخلي المواطنين عنه هو واخوته الستة الذين لم يكن لهم في اعناق الرجال الفضلاء من المعروف ادنى شيء يذكر فكانت نهايته كنهاية أي حاكم لا يحسن سياسته باختياره للرجال الكرام ذوى المروءة والفضل والوفاء ..

الفصل السادس

أفعال البر والسخاء المحمود

« كما أن السؤال يذل قوما ... كذاك يعز قوم بالعطاء »

علي بن الجهم

باعث نهضة ومعلم جيل

-٣٣-

قد يخيل لقارىء هذا العنوان انني أقصد بذلك منه أكبر منزلة سياسية واجتماعية من صاحبه الحقيقي ، ولكن الذي يعرف صاحب الترجمة ، يدرك للوهلة الاولى ان العنوان المشار اليه اعلاه مطابق كل المطابقة للاعمال التي قدمها هذا الرجل لأمته بكل تفان واخلاص ..

والرجل الذي أعنيه هو محمد علي زينل رضا [١] صاحب الاعمال الجبارة التي لا يستطيع القيام بها الا من وفقه الله لضمير يتجاوب والقيام بمثل تلك الاعمال التي سوف يبقى ذكرها خالداً الى الابد ..

وحيث انني لا اعرف الرجل شخصياً ، كما انني لا اعرف أعماله التي قام بها إلا بصورة اجمالية لذلك رأيت انه من الانسب ان اكتب رسالة لكل من الشيخ محمد نصيف الذي عاصر الرجل ولابن عمه الشيخ أحمد يوسف زينل طالباً منهما أن يوضحا ما يعرفانه عن الشيخ محمد علي زينل خاصة بما له علاقة

---

١ – لما كانت اسرة زينل بين رجالها اسمين متشابهين : فانه يطيب لي بأن اوضح للقارىء بأنني اقصد بذلك محمد علي زينل مؤسس مدرسة الفلاح صاحب الاعمال الانسانية والاجتماعية، لا محمد علي زينل الذي كان اول وزير للتجارة في المملكة العربية السعودية . والذي يعمل حالياً سفيراً للملكة العربية السعودية في الجمهورية العربية المتحدة . لا لم اقصد هذا وانما اقصد الأول .

بقيامه بمشروعه الذي شمل نفعه جيلاً بكامله ..

فجاءني الرد من الشيـخ محمد نصيف والاخ احمد زينل في آن واحد .

ويسرني ان اقدم رسالتيها للقارىء كما وردتا بنصها الحرفي ،

وهذه رسالة الشيـخ نصيف :

من جده في ٣ جمادى الاولى سنة ١٣٨٣ هـ ٢١ سبتمبر ايلول ١٩٦٣.

الى انقره

حضرة الفاضل الاستاذ الشيـخ فهد المارك المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وصلني كتابكم وسرني دوام صحتكم . أدام الله على الجميـع نعمه .. ومطلوبكم :

الافادة عن سنة تأسيس مدارس الفلاح وصورة مؤسسها الشيـخ محمد علي زينل علي رضا وصورتي فهاكم البيان :

الصورتان . وان الحاج زينل علي رضا أو زين العابدين بن علي رضا وفـــد من الخليـج العربي ،من أهل السنة .

وأهل فارس يختصرون زينل من زين العابدين . وأهلهم من العرب والخليـج العربي كلهم من العرب.وان كان يتكلمون الفارسية فارسيتهم ركيكة.ويتكلمون العربية أجود من الفارسية . وأصلهم من أولاد الصحابة ومن الانصار .

الشيـخ محمد علي بن زينل بن علي رضا

مؤسس مدارس الفلاح بجدة ومكة .

الشيـخ محمد علي بن زينل علي رضا أسسها في عـام ١٣٢٣ هجرية يوافق في زمن الحكومة العثمانية .

أول تأسيسها كانت مدارس صغيرة في جدة لتحفيظ القرآن وعلوم الدين والخط والحساب وأول ابتدائها ٢٠ تلميذاً ثم كثروا فصـار عدد طلبتها في مكة نحو الف طالب وفي جدة نحو الف وأدخل غير اللغة العربية اللغة العثمانية لغـة الدولة تدرس في مدارس الفلاح .

محمد بن عبد الله بن علي رضا وزير التجارة سابقاً في الحكم السعودى هو ابن عم الشيخ محمد علي زينل علي رضا ..

عبد الله بن علي رضا كان قائمقام جدة في الدولة الهاشميـة زمن الشريف الملك الحسين بن علي ملك الحجاز الذي كان أمير مكة زمن كان الحجاز تابعاً للاستانة ثم صار الشيخ عبد الله قائمقام جده زمن الحكم السعودي الى أن مات .

مؤسس بيت زينل التجاري بجده هو الحاج زينل بن علي رضا وكان شريكـه أخوه الشيـخ عبد الله فصارت العائلة تعرف بآ ل زينل أو بيت زينـــل .. وكان للحاج زينل ولد أكبر من محمد علي يدعى قاسم بن زينل عضوا في البرلمان العثماني في استانبول في أول سن الدستور أو المشروطيه ..

لما توسعت مدارس الفلاح وكثر فيها الطلاب صار يدرس فيها فقـه المذاهب الأربعة السنية..وكان غالب الطلبة شافعية واثنان حنفية واثنان مالكيـة واثنان حنابلة .. وكان مدرس الحنفية الشيخ احمد بن طه رضوان مأمور الويركو ومن علماء جدة وكان يدرس ــ لولديه . وكان مـدرس الفقه المالكي والحنبلي الشيـخ محمد بن حسين ابراهيم وكان الطلبة اثنين مالكية واثنين حنابله وكان مدرس اللغة العثمانية الاستاذ شكري الجندي من أهل حمص بسوريا والآن محامي في بـــلده . وكان من موظفي الحكومـــة العثمانية معلمان سياران لهما حصة في المدرسة لتعليم

الطلبة ثم سافروا إلى استانبول فاحضر بدلاً عنها السيد شكري الجندي معلماً دائماً من أول النهار الى آخره يعلم اللغة وغيرها ..

وكتبه : محمد نصيف ..

واليك الرسالة الثانية :

حضرة الأخ الكريم الشيخ فهد المارك حفظه الله

تحياتي الطيبة وتمنياتي أن تكونوا بأتم الصحة والعافية وبعد :

تلقيت كتابكم المؤرخ في ١٠ ـ ٩ ١٩٦٣ بشأن استفساركم عـــن بعض النقاط الخاصة بمدارس الفلاح ويسرني أن أجيبكم عليها فيا يلي :

١ ـ تاريخ الافتتاح : تأسست مدرسة الفلاح بجدة سنة ١٣٢٣ هـ .

٢ ـ تأسست مدرسة الفلاح بمكة سنة ١٣٣٠ هـ .

٣ ـ صرف الحاج محمد علي زينل على هذه المدارس من جيبه الخاص بجميع ما يلزمها الى نهاية عام ١٣٥٤ هـ أي مدة تزيد عن ربع القرن .ولما حالت الازمة المالية العالمية دون مواصلة الصرف الكامل على المدارس ترك لهـــا ريع عقاره في مكة وجدة لتكمل به مصروفاتها وذلك مستمراً الى الوقت الحاضر ..

٤ في سنة ١٣٤٨ هـ بعث الحاج محمد علي زينل بعثة من الطلاب الى الهند على حسابه الخاص عددها عشرون طالباً نصفهم من مكة ونصفهم من جدة ..

راجياً أن تكون هذه الأجابة طبقاً لما استفسرتم عنه .

وتفضلو بقبول وافر تحياتي .

الأمضى

احمد يوسف زينل علي ريضا

هاتان الرسالتان أوردتها بنصها الحرفي دون أن أغـــير أو أبدل بها شيئاً قطعياً ..

والذي تجدر الاشارة اليه هو أن محمد علي زينل لم يكن عمــله محدوداً على ما أشار اليه صاحبا الرسالتين نصيف واحمد ، بل أنه افتتح مدرسة في الهندعلىنفقته الخاصة لابناء العوب الموجودين هناك .. وهذه الحقيقة لم اكن أعرف عنهـا شيئاً لولا انني اجتمعت بمحض الصدفة بالشيخ قاسم مخدوم الذي التقيت بـــه في انقرة وأفادني بأنه كان في الهند يعمل مدرساً للغة العربية للطلاب العرب الذين يدرسون في مدرسة الشيـخ محمد علي زينل على نفقته الخاصة ..

... وبعد : فإنني اعتقد جازماً أن العمل الذي قام به زينل وأن كانت فائدته محصورة على ذلك الجيل المعاصر من أبناء المنطقة الغربية ولكنه فيما بعد أفاد شبه الجزيرة العوبية بكاملها خاصة بعد أن وحد البلاد المغفور له الملك عبد العزيز وذلك أننا نجد الاكثرية الساحقة من الذين تولوا مهام الأعمال في الدولة من الشؤونالمالية الى ادارة التعليم الى ادارة الجمارك الى الذين برزوا بالأدب والصحافة كل من هؤلاء واولئك كانوا متخرجين من تلك الدوحة التي تعهد تأسيسها والعناية بها محمد علي زينل .. ولم يتخل عنها حتى أتت اكلها لذيذاً شهياً .. ومما لا شك فيــه انه لولا وجود هذه النخبة المتخرجة من مدارس الفلاح التي افلح محمد زينل بإنشائها لولاها

لما وجد في المملكة من يقوم بمهام امور الدولة المتحدة البكر خاصة عندما تم اتحاد المنطقة الغربية بالمناطق الاخرى في المملكة كالشرقية والشمالية والجنوبية ، فكل من هذه الجهات كان ساكنوها شبه أميين لعدم وجود مدارس على الطرز الحديث أو بالأحرى لعدم وجود رجال لديهم من الوعي الحديث والامكانيـــة الفكريه والمادية ما هو موجود عند محمد علي زينل الذي قام بهذا العمل الجليل الذي-يبقى خالد الذكر وتعترف له بالفضل الاجيال القادمة مدى الدهر .. لقـد كان هـذا المجاهد الجليل قدوة حسنة لا في عمله هذا الذي أنشأ به جيلًا وافاد به وطنه بشكل عام فحسب بل كان قدوة صالحة حتى بأقواله الحكيمة وآرائه السديدة .. ولقـد احسن اليّ بتوجيهاته الرشيدة وحكمته المأثورة بدون أن يعلم ، وذلك انـه كان لي الشرف بقيام بمشروع انساني ، وكم عانيت من العقبات والمشاكل التي كدت بسببها أن اتخلى عن القيام بذلك العمل الذي لا اذكر بحياتي انني وفقت لعمل ما كتوفيقي لذلك العمل المتواضع [1] ولكن كلما وهنت عزيمتي وفترة همتي واوشكت أن ادع ذلك العمل الطيب بسبب ما عانيته ولاقيتـه من مشقة ونصب ومصائب لا يعلمها الا الله أقول كلما تأهبت للهزيمة وشئت ان افر هارباً ، قبل ان أتم عملي عند ذلك اذكر كلمة لمحمد علي زينل رويتها عن المرحوم الشيخ عبد العزيز بن زيد، وحينما اذكر هذه الكلمة استرد شجاعتي من جديد واشعر بحافز يشحـذ همتي ودافع يلهب عزيمتي وايمان يقوى ارادتي ، ومن ثم استمر بعملي شوطاً بعيد المدى وهكذا دواليك .. كلما شئت ان استسلم للهزيمة واليأس ذكرت كلمة زينل تلك الكلمة التي هي صالحة لأن تكون نبراساً حياً يقتدى بانواره كل من أراد ان يعد نفسه للاعمال الشاملة النفع في كل زمان ومكان ..

والكلمة من حيث لفظها وجيزة للغاية ولكنها من حيث المغزى لها الف معنى

---

١ – هو انشأ مؤسسة لجميع الأيتام المغتربين السوديين في دمشق .

ومعنى ..ولا يعرف قيمتها الا من جرب مفعول علاجها الشافي لعلته ..

واليك ما رويته عن ابن زيد رحمه الله : يقول الراوي نقلاً عن صاحب الترجمة او عن أخيه ان محمد علي زينل جمع رجالاً من وجهاء واثرياء مدينة جدة واقنعهم برأيه وأثر عليهم بشخصيته بشأن القيام بمشروع وطني انساني لا علم لي به حتى الآن ولكن الذى أعلمه من أبن زيد هو أن المشروع ذو أهمية ويحتاج الى اشتراك عدد من اثرياء البلاد بحكم تكاليفه المادية الامر الـذى جعل محمد علي زينـل يجمع وجهاء البلاد ويذهب واياهم سويا الى الشيخ بناجي ليستعين بجاه هؤلاء الوجهاء عند بناجي من ناحية وليستعين بمعونة بناجي المادية وتأييده المعنوى لمشروعه بصفتـه من أعيان البـلاد البارزين . ولكن بناجي عندما جاءه القوم لم يكن موقفه سلبياً من المشروع فحسب بل تكلم بجملة قال ما معناه : (أن ابواب الخير مفتوحـــة لكل من أراد أن يعمل خيراً وعلى فاعل الخير أن يعمل بـــدون أن ينتظر من يسوقه أو يقوده الى سبيل الخير الذي لم تكن أبوابه موصدة في وجـه أي انسان يقصد دخولها بنية صالحة وقلب مخلص) ..

كانت هذه الجملة من بناجي صدمة عنيفة لزينل بصورة خاصة ولرفاقه بشكل عام مما جعلهم يخرجون خائري القوى الأمر الذي جعل أحد أعيان جـــدة وهو المزاز على حد قول الراوي يسخر من محمد علي زينل ويضع عليه اللائمـــة قائلًا : (اجئت بنا عند هذا الرجل من أجل أن يجرح شعورنا وينال من كرامتنا) ؟.. فأجابه زينل مبتسماً بكل هدوء ورزانة ورباطة جأش وثقة بالنفس قائـــلًا : إذا كنت تريد أن تعمـــل لخير أمتك بنية صادقة فما عليك الا أن تتحمل كل أذية واهانة وسخرية تأتيك في هذا السبيل ..

يا الله ما أعظم شأن هذه الجملة وما أعظم مفعولها على كاتب هذه الأحرف لا بما لها

علاقة بمشروعي سالف الذكر بل في كل عمل من الاعمال الحيوية التي يصطدم بها المرء في حياته اليومية في كثير من الاحيان مع أناس يـــلاقي الانسان منهم من السخرية وتثبيط الهمة وتشويه الحقيقة الشيء الذي يرهق الاعصاب وينهك القوى ويوشك ان يخلق وهنا في العزيمة وقنوطاً في النفس لا يجد المرء سلاحاً يحارب به هذه العوامل بعزم وثبات الا تلك الكلمات الخالدة لمحمد علي زينل (اذا كنت تريد الخير لأمتك الخ .) .

وبما لا شك فيه ان الانسان يسمع ويسمع من امثال هذه الجملة ما هو ابلغ منها لفظاً ومعنى ولكنني وطيد الأيمان بأن السر الذي جعل لهذه الجمـلة اثراً فعالاً في مجرى حياتي هو أن هذه الجملة صادرة من قلب صادق حينما قالها ومؤمن بمفهومها ومطبق لمعانيها ..

والحقيقة أن اعجابي بهذا الرجل بلغ درجة جعلتني افكر أن اهـدي مؤلفي هذا بإسمه ولكنني اعرضت عن ذلك لا لسبب ما وانما وجدت أن الاهداء الذي اخترته في الجزء الأول اشمل معنى

والجدير بالذكر ان صاحب الترجمة لا زال على قيد الحياة حتى كتابة هـــذه الاحرف في ١ - ٧ - ١٣٨٤ - ٥ - ١٢ - ١٩٦٤ .

والشيء الذي أحب أن أختم به هذه الكلمة هو أنني على يقين راسخ من العلم والأيمان بأن الرجل مهما جمع من المال ومن الثروة الطائلة ومن المركز الرفيـع فإن ذلك لا يكون له أي اثر في عالم التاريخ بقدر الاثر الذي يقدمه لامته من اعمال انسانية وثقافية واجتماعية كهذا العمل الذي قام به هـذا الرجل المحسن الكريم ،

ولا يسعني حيال ذلك إلا أن أنشد مع الرصافي قوله :

لو كنت اعبد فانياً في ذي الدنى
لعبـــدت من دون الالـــه الحسنا

وجعلت قلبي موضعـــاً لتعبـدي
سراً وفهت له بشكري معلنـــا

قيمة الرجال بأعمالهم

- ٣٤ -

تقدر جميع الاشياء المحسوسة أما بثقل وزنها فيما اذا كانت ذهباً مثلا ، أو مواد غذائية أو بمساحتها ـ إذا كانت أرضاً ، أو ما أشبه ذلك من تلك الاشياء التي تقاس بالسنتيمتر ، أو باتقانها وجودتها اذا كانت صناعة . الخ ..

المقصود .. أن كل شيء في هذه الحياة يمكن أن يباع ويشترى . ويمكن أن يقدر له ثمن محدود . اللهم الا نوع واحد ـ الا وهو ـ « الأنسان » .

هذا المخلوق العظيم الذي كل معجزة في الكون من أرض وسماء ـ و ... و ... و ... الى آخره ... كل ذلك لا يقاس عظمته واعجازه ، بعظمة هذا الانسان ومعجزة وجوده التي كانت ولم تزل لغزاً مبهماً ، طاشت عقول العباقرة في معرفة كنهه وكل منهم ذهب في تفسيره لهذا اللغز المدهش ـ مذهباً معاكساً ـ ولم يعلم ولن يعلم أسرار هذا النبت المزيج المزدوج ، .كيف أنشئت أول بذرة منه ؟... ومتى ينتهي آخر هذه البذرة ؟... لا ... لا يعلم أحد عن ذلك الا من أنشأها من العدم ... الا وهو : « الله » ـ جل شأنه ـ وتعالى عما يصفون ..

هذا المخلوق التافه والعظيم في آن واحد . الذي صارع الحديد وصرعه وجعل

منه طائراً يحلق فوق السحب مسخراً بأمره ولأمره ، وصارع الجبال فجعلها دكا طوع بنانه ، وتحدى الاسود في غاباتها ، وقهرها في عرينها فساقها ذليلة حقيرة لا لحاجة بها . وانما ليشبع غرور نفسه عندما يرى أنه بمكره ودهائه وشجاعته استطاع أن يجعل من الاسد العوبة يسخر بها (في متحف الحيوان) .

هذا المخلوق الذي لا شيء في الدنيا أقدر منه لفعل الخير الشامل النفع اذا كرس مواهبه للاعمال الطيبة والمثل العليا . ولا شيء أضر منه اذا صرف جهوده للاضرار والافساد والشر . والوشاية عند ذي سلطان والنميمة والأذية عند من يملك العقاب ..

هذا هو الانسان الذي لا تقدر قيمته بما يكسبه من مال وافر ، ولا بما يناله من شهادات عالية ، ولا بما يحوزه من جاه رفيع وسلطان باذخ لا ، لا تقدر قيمة الانسان بأية معنى من هذه المعاني ـ اللهم الا تقديراً مجازياً ، أما التقدير الحقيقي الذي يجعل ذكره عاطراً ، أبدياً ـ فإنه لا يأتي قطعاً الا عن طريق العمل الذي يسديه لأمته . وبقدر ما يكون عمله شاملاً لعدد ما من مواطنيه أو لبني الانسان بصورة اعم واشمل بقدر ما ترتفع قيمة أسهمه في عالم الخلود ، ومدار بحثنا هنا ، يدور حول مواطن عربي من ساكني ليبيا ، تلك البلاد التي احببتها ، بل أحببت أهلها ، وفقاً لقول الشاعر العربي :

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديار

والحديث عن ساكني ليبيا وعن شيم أهلها العربية بالنسبة المؤلف يحتاج الى كتابة خاصة او الى سفر مستقل .

ولا بد لي أن اشير الى ذلك باختصار في آخر بحثنا هذا ، أما الآن فأود أن أشير الى مواطن من أبنائها البررة ـ ذلك الرجل الذي لو كانت قيمة الرجال تقاس

بوفرة بالمال لما كان له أية قيمة ، ولو أن قيمة المرء تقاس بالعلم ، لما كان له أدنى غنى ولو ان نباهة الذكر وذيوع الصيت يستدل عليهما بسمو الجاه لما استدللت على ذلك الرجل العادي بمظهره والمتواضع بمهنته - ولكن عمله وحده هو الذي حفزني الى معرفته بل والى تقديري له واعجابي به .

وكأنني أرى حروف الاستفهام من القاريء تترامى عليّ حرصاً منه على معرفة صاحب الترجمة . وعلى العلم بكنه العمل الذي قادني الى معرفته واحترامه ..

كنت في مدينة طرابلس الغرب، في مطلع عامي ١٣٧٩هـ ١٩٥٩ م كممثل في سفارة حكومة وطني هناك، وعلى الاسلوب الروتيني وجهت الي بطاقة تحمل دعوتي لحضور افتتاح مدرسة تسمى (مدرسة جميلة بوحيرد) كما وجهت لزملائي دعوة مماثلة ،وقد جاءت ظروف حالت دون حضوري الدعوة التي فهمت من زملائي انه حضرها ولي العهد الليبي كما حضرها عدد جم من اعضاء السلك السياسي، ومن وجهاء البلاد، وكبار موظفي الدولة ، وقد أسفت فيما بعد لعدم تلبيتي للدعوة ، وكان أسفي في بداية الأمر شكلياً ليس الا ... ولكنني بعدما عرفت ان صاحب الدعوة وان كان مجرداً من الصبغة الرسمية كتجرده من نباهة الذكر ومن أي شيء يمت الى الثقافة بصلة ، ولكنه رجل اوقف نفسه وكرس جهوده ، وبذل ماله للقيام بمشروع مقدس يفرض عليّ لا ان ألبي الدعوة فحسب ، بل ولأزوره في مكانه لأهنئه على ما وفق له من قيامه بعمل خالد يستحق الاحترام من أجله ، حقاً .. بعدما عرفت عنه ذلك هرعت في صبيحة الغد ذاهباً أسأل وأسأل. وعمن أسأل .. يا ترى أسأل عن ذلك المواطن الليبي العادي المتواضع . المدعو « يوسف مادي » بفتح الميم ..

- ومن هو مادي ؟.. وما عمله ؟..

رجل عادي أمي أو شبه أمي... بائع احذية..

ولمـــاذا أذهب اليه - لاعتذر منه . أولاً - ولأقدم له تقديري واعترافي له بالجميل الذي أسداه لمستحقيه من بني وطنه العربي ؟..

وما هو العمل الذي تصدى يوسف مادي للقيام بـه والذي رفع اسهمه وزاد قيمتـــه ، من رجل بائع أحذية - الى رجل فرض عليّ احترامه وتقديره حتى أوجبني الأمر أن أضيف اسمه الى حقل « شيم العرب » هذا السفر المتواضع الذي آليت على نفسي بأن لا أضع بين صفحاته الا الرجال ذوي المروءة ، والشهامـة والانسانية ، أنى كانوا ، كباراً كانوا أو صغاراً ، سادة أم مسودين، نابهي الصيت أم خاملي الذكر ، لا عبرة عندي بذلك ، وانما العبرة الحقيقية ليس الا بالأعمال المجيدة التي يقوم بها أصحابها فللأعمال أكتب ، ومن اجلها احترم واقدر ، وهاأنذا أجيب السائل عن العمل الذي قام به يوسف مادي - كما يلي :

عندما كانت حرب الجزائر الضروس في أوجهـــا وكان الفرنسيون متمادين بتقتيل المواطنين الجزائريين . وكان مجاهدو الجزائر الابطال يكافحون دولة الظلم والطغيان وكان واجب الجهاد الذي اضطرهم أن يقدموا نفوسهم الطاهرة ودماءهم الزكية قرباناً لاستقلالهم،كان من شأنه ان يكونوا في شغل شاغل عن العناية بايتامهم الذين قتل الفرنسيون الظالمون آباءهم وشتتوا شمل امهاتهم فظلوا هائمين بالصحارى قوتهم من النبات وفراشهم الارض وغطاءهم السماء .

كان من شيمة يوسف مادى ان اهتم بهؤلاء الايتام كما اهتم بابنائـه فذهب الى ارض الجزائر فوجد الايتام فتياناً وفتيات أكثر من ان تتحمـــل طاقته اعالتهم جميعاً .. ولما كان الفتيات أقل احتمالاً من الفتيان للمشاق فقد رأى مادى ان يأخذ من تلك الفتيات ما يخوله وضعه الاقتصادى ان يعولهن أو بالحرى ما تتحمل شيمته ومروءته اعالتهن لأن القضية بالنسبة اليه بصورة خاصة وفي حالة كهذه بصورة عامة قضية تعود الى توفر الشيمة والمروءة اكثر من وفرة المال.

كان بود يوسف مادي ان لا يترك فتاة يتيمة في الجزائر الا جاء بها وأعالها كما

يعول ويعنى بأطفاله ولكنه رأى ان يبتدىء المرحلة الاولى بأعالة خمسين من الفتيات على نفقته من غذاء و كساء وعناية ورعاية اللهم إلا ان الحكومة الليبية آزرته بتعهدها بالسكن والمعلمين .

ومن أجل هذه الاعمال المجيدة ذهبت الى يوسف مادى اسأل عنه في آخر شارع عمر المختار في مدينة طرابلس فوجدت رجلاً في مستهل الكهولة تحيط به الاحذية من كل جانب تشعر من اول حديث معه بسلامة طويته وبساطته وقد أثار انتباهي تمثال (جزمه) مصنوعة من النحاس الاصفر معلقة في ذراعه بجانب سوار ساعته مما أثار فضولي وجعلني أسأله عنها فأجابني فوراً بافتخار بأنه دخل مسابقة في روما مع المختصين بمعرفة فن الاحذية وانه نال الاسبقية بدرجة الرابع ولذلك منح هذه الاشارة كدليل على (نبوغه) من لدن الجهة المختصة في نقابة الاحذية في روما ..

هذا وقد كان ممثل الجزائر في ليبيا السيد احمد بودا حاضراً ساعتذاك فقال : لا يكون عدد منافسيك في ميدان السباق ثلاثة فقط وانت الرابع فأجاب باندفاع : لا بل كنا سبعة ، فضحك السيد بودا وانا على سرعة اجابته .

هذا هو السيد يوسف مادى لم يكن فيه من حيث مهنته ولا شخصه ما يثير الانتباه ولكن الانتباه بل الاعجاب والتقدير جاء اليه من حيث عمله الجليل : ولما كان الشعب الليبي من خيرة الشعوب العربية التي أبدت اندفاعاً وحماساً في قضية الجزائر فقد قدروا هذا العمل من السيد مادى حيث ذهب اليه عدد كثير منهم وطلبوا منه ان يرشح نفسه نائباً في مجلس الأمة الليبي الذي تم انتخاب اعضائه في عام ١٩٦٠ ولكن مادى رفض قبول هذا الطلب ويخيل إلي ان رفضه هذا مبني على علمه بنفسه بأنه ليس لديه ما يؤهله من الثقافة للقيام بهذه المهمة .. هذا من ناحية والناحية الأهم والأرجح عندي هي انه على يقين من العلم بأن مواطنيه لم يطلبوا منه ان يرشح نفسه كنائب عنهم إلا من أجل عمله ليس إلا ولذلك ما أراد ان لا يشرك

في عمله الوطني والانساني عملاً سياسياً ولكن اخواننا الليبيين عندما رأوا عدم قبوله لطلبهم هـذا أصروا عليه بأن يرشح من يشاء من المواطنين ليمنحوه اصواتهم فاضطر تحت الضغط ان يرشح شخصاً لم يسبق ان دخل مجلس الأمة كنائب ، ومع ذلـك فاز مرشح يوسف مادى على الرغم من ان منافسه الشيخ عبدالرحمن القلهود وهو من الرجال الثقيلي الوزن بالعلم وبالمكانة الاجتماعية وقد تقلب بعدة وزارات قبل هذا الترشيح وبعده .. كما كان نائباً لرئيس مجلس الوزراء في عدة مناسبات ولم يسبق له ان خسر مقعده النيابي في مجلس الأمـة الليبي الا هذه المرة التي نافسه فيها مرشح يوسف مادى ..

ولئن دل ذلك على شيء فإنما يدلنا على تقدير شعب ليبيا للأعمـــال أنى كان مصدرها .. ولما كنت وطيد الثقـــة بأن ما قام به اخواننا الليبيون من تكريم ليوسف مادى فإنما كان قصدهم تشجيعه ليتخذ المواطنون القادرون منه قدوة صالحة بالقيام بعمل مماثل لعمله ،فقد رأيت من واجبي ان اقتفي أثر اولئك المواطنين في اكرام الرجل ولو في بعض الاشياء المجازية ولذلك وجدتني عندمـــا اقيم دعوة في مناسبة فإنني غالباً ما اضع اسم مادى في مقدمة المدعوين .. وكان كثيراً ما يعتذر . وفي مناسبة دعوة اقمتها لأحد المواطنين السعوديين ففي هذه المرة ألزمت يوسف مادى بالحضور دون ان اقبل منه أي عذر فحضر بعد الحـاحي الكثير الذي لم أفعله إلا لحاجة في نفسي وهي انني اردت ان اعرف المدعو على مادى أو بالأصح أردت ان اعرفه على العمل الجليل الذي قام به بائع الحذاء مؤملاً ان يقوم صاحبي المدعو بعمل مماثل لأن لديه من القدرة المالية ما يمكنه من ذلك..وقد حضر مادى ضمن المدعوين وعند ذلك قدمته الى الضيف شريف وقلت همساً في اذنه أي في أذن السعودي ان بعضاً ممن دعوت لم أدعه الا لأجل مركزه الحكومي أو لوجاهته الا هذا الرجل فقط فإنني لم أدعه لهذه ولا لتلك وإنما دعوته لعمله ومن أجل عمله الذي هو كذا وكذا الخ..

ومما يزيدني تقديراً واعجاباً بمادى هو ان هذا الرجل لم تقف به مروءته عند حد العدد الذي أشرت اليه آنفاً أي اعالة خمسين فتاة فقط بل ذهب يهيء مكانـاً يضم مائتي فتاة علاوة على العدد السابق . وقد منحته الحكومـــة سكناً لهذا العدد

الاخير كما تعهدت له بأن تكون مرتبات المعلمين والمعلمات على نفقتها وكان يشاركه هذه المرة في مشروعه الاخير مواطن من مشاهير أثرياء مدينة طرابلس الغرب يدعى محمد الساسي ، وقد ذهبت والدكتور مدحت فتفت سفير الجمهورية اللبنانية في ليبيا ، ذهبنا الى المدرسة الجديدة فوجدناها مجهزة بكل شيء من التخوت الى الفراش الى عدة الطبخ الى الالبسة فكل ما يكفي لمئتي فتاة من جميع اللوازم قد أعد وهيء من قبل مادي والساسي ، ولكن فرج الله جاء للجزائريين بأخذهم استقلالهم وطردهم للغاصب المستعمر وعند ذلك ظلت اليتيمات اللائي قرر مادي والساسي جلبهن ظللن في بلادهن كما ان الفتيات القديمات اللائي في عهدة مادي عاد بهن الى بلادهن الجزائر ..

هذا وان كتابتي هذه عن يوسف مادي إن هي إلا امتداد لمقال سابق كنت كتبته عنه ونشرته جريدة الندوة السعودية في عام ١٩٦٠ بعنوان (ألا تشاركني الاعجاب بهذا الرجل) .

واني لأذكر جيداً معنى أشرت اليه في ذلك المقال ولشدة ايماني بصواب ذلك المعنى أراني مضطراً الى تكراره الآن وهو قولي : (ان الحياة اذا تجردت من أمرين لا قيمة لها : الامر الاول : هو مصارعة الطغاة الظالمين والثاني الاخذ بيد المظلومين .. وهذا هو مذهبي الذي أدين لله به .. وقد قدمت مصارعة الطغاة الظالمين على الاخذ بيد المظلومين بالرغم من ان منظر البائسين المظلومين قد يستفز الشعور الانساني من حيث العاطفة اكثر من استفزازه لرؤية الظالمين .. وذلك عندما ننظر لقضية المظلومين من حيث اطارها العاطفي ولكن عندما ننظر للأمر من جذوره نظرة موضوعية عند ذلك تتضح لنا الحقيقة الواضحة القائلة : لولا وجود الطغاة الجبابرة الظالمين لما وجدنا في الامة مظلومين ولولا ان فرنسا جاءت غازية باغية للجزائر حتى قتلت الرجال ويتمت الاطفال ورملت العجائز والنساء.. لولا ذلك لما وجد يوسف مادي يتيمات هائمات في الصحارى لا أهل لهن ولا مأوى ولولا ظلم الغزاة البغاة الصهاينة لما وجد مشردون من اخواننا الفلسطينيين ..

فمصارعة الظالمين وإذلال الجبابرة الطاغين ومحاربة الاستغلاليين الذين لا تتم سعادة الفرد منهم إلا على حساب تعاسة وشقاء الالوف المؤلفة من بني الانسان وفقاً لما قاله الشاعر الرصافي :

ورب سعيد واحد تم سعده

بألف شقي بالمعيشة راغم

ولئن كان الاخذ بيد المظلومين فرض كفاية فان محاربة الظالمين وسحقهم من عالم الوجود فرض عين ولولا بطولة الجزائريين وقهرهم للظالمين لولا ذلك لظل سيل الايتام واليتيمات يتدفق من الجزائر بدون انقطاع حتى الابادة .. وهذا دليل قاطع يزيدنا ايماناً بأن مصارعة الظالمين والقضاء على دابرهم هي في الوقت نفسه نجدة للمظلومين بل في حالة أبادة الظالمين لن تجد مظلومين في حاجة الى الاخذ بيدهم لأن الداء السارى حسم من مصدره وجذوره .. ولكن هذا لا يمنعنا من تقديرنا لذوى المروءة الأخذين بيد المظلومين كيوسف مادى وأمثاله من المواطنين البررة.. وعندما اذكر يوسف مادى من اخواننا الليبيين اذكر ايضاً مواطناً آخر من مدينة طرابلس وهذا الآخر تعهد باعالة عدد من الايتام الذكور الجزائريين على نفقته هو السيد ابو بكر ..

والحقيقة ان المدة التي قضيتها في ليبيا منها ثلاث سنوات في طرابلس وثلاثة اشهر في بنغازي كانت تلك المدة التي أقمتها هناك فيها الكفاية التي اعطتني الفكرة عن الشعب الليبي . لا من حيث موقفهم في جانب الجزائريين فحسب بل ومن حيث ما يتصف به سواد الشعب من خلق عربي أصيل..

وعلى سبيل المثال والاختصار يلذ لي ان اذكر ما رأيته كشاهد عيان من حوادث وقعت من اناس من عامة الشعب وهي حوادث قد لا تكون ذات أهمية من حيث

ذاتها ولكنها تعبر تعبيراً قاطعاً عن عراقة الشيم العربية التي يتمتع بها الشعب الليبي ..

وبما أن الخلق القومي الاساسي لأي شعب كان لا يمكن معرفة كنهه إلا عن طريق الفئة التي يعبر عنها بعصرنا الحديث بـ (البروليتاريا) أي الطبقة الشعبية الدنيا ، لذلك بذلت ما أستطعت من الجهد للوصول إلى معرفة خلق عامة الشعب الليبي ، وقد أدركت أنني لا أستطيع الوصول إلى ذلك إلا عن طريق الامتزاج بعامة الشعب الأمر الذي جعلني أترك ركوب السيارة واسير على قدمي في كثير من المناسبات وهذه الطريقة وحدها هي التي مكنتني من الوصول الى غايتي المنشودة ..

والذي أثار انتباهي في سماحة خلق هذا الشعب هو انني لا أذكر انني سألت أحداً من عابري السبيل عن مكان ما ومن ثم أدرك هذا المسؤول أنني غريب الا وذهب يرافقني حتى يوقفني على المكان الذي أريد : فمثلا في اليوم الثاني الذي وصلت فيه الى البلاد جئت سائراً على قدمي من فندق المهاري الى السفارة ولم أكن أعرف وقتها موقع السفارة وطبيعة الحال تضطرني أن اسأل من يدلني فألتقيت بشخص راكباً (دراجة) فسألته عن دار السفارة وكان سائراً نحو الغرب فسرعان ما أنحرف الى جهة الشرق ونزل عن دراجته وذهب بجانبي حتى قطعنا مسافة ليست بالقريبة فقلت في نفسي لابد أن هذا الرجل يعمل في السفارة فذهبت اسأله عن عمله فقال انه بائع حليب فقلت الك معاملة مع السفارة ؟ فقال كلا : فطلبت منه أن يرجع الى السبيل الذي عاد منه وان يكتفي بالاشارة الى موقع السفارة فرفض بحجة ان مكانها بعيد وانني لا أستطيع الاهتداء عليه بالأشارة ولم يتركني الرجل حتى اوقفني على باب السفارة ثم قفل راجعاً وقد تكرر معي مثل هذا العمل مرات متتالية وفي عدة مناسبات .. ولا يسعني أن اسرد كل ما شاهدته من امثال هذه الحادثة وانما اكتفي بذكر حادثتين : ذهبت ذات يوم الى صاحب آلة كاتبة ليبيض مسودة مقال اعددته للنشر فوضعت الأوراق عنده على اساس أن اعود عليه في الغد ولكن عندما عدت أريد مكانه ضعت عنه وكنت قد حفظت

اسمه فذهبت اسأل أحد اصحاب الحوانيت عن مكان الرجل هذا وعلى الفور خرج المسؤول من حانوته وقال : هيا اتبعني ، ثم اشار لجـاره فقال : (انتبه لبضاعتي حتى اعود .. فذهب يهديني الى صاحب الآلة الكاتبة تاركاً عمله وقـــد قطعت مسافة بعيدة عن دكانه ولم يتركني حتى اوقفني على صاحبي ...

هذه الأولى وأما الثانية فقد كنت خارجاً من السفارة وذاهباً الى منزلي سيراً على الأقدام ويرافقني مواطن سعودي هو الاخير فضل المشي على ركوب السيارة وقد التقينا بصاحب (عربية) يحمل فواكه متنوعة فقرر صاحبي ان يشتري منه عنباً .. ولكن بعدما وزنه الرجل أدرك رفيقي انه لم يكن لدى البائع ماعون يحمل فيه عنبه كما أن البائع لا يستطيـع ان يترك بضاعته في الشارع ليحمل مـع المشتري حاجته فلذلك قرر رفيقي ترك العنب .. وكان عند صاحب العربة رجل من عامة الشعب يحمل ماعوناً فيه مؤونة لاهله فسرعان ما أفرغ هذا الرجل مافي ماعونه وراح – يطلب من رفيقي أن يحمل له العنب فوافق صاحبي ظاناً ان هذا الشعبي لم يفعل ذلك الا طمعاً بالأجرة ولكن سرعان ما أدرك رفيقي انه مخطيء في ظنه وذلك بعدما وصل منزله وأراد ان يدفع نقوداً للرجل الليبي ولكنه أي الليبي رفض قبولها بعنف قائلًا : ألست عربياً .. قال صاحبي بلى .. قال ألم تكن عراقياً ؟ قال ماذا تعني فيما اذا كنت عراقياً ؟ قال اعني انك لست من اهل هـذه البلاد .. قال رفيقي وهو كذلك .. قال الليبي اذن اصبحت ضيفاً لنا فكيف بي اخذ منك اجرة .. ومن هنا ادخلت نفسي بالحديث بينهما فقلت لليبي ما هو عملك فقال عامل في المستشفى ثم اشار بيده مودعاً ..

فهذه الأعمال وأن كانت بحد ذاتها بسيطة ولكنها من هذا العامل وامثاله تعبر ابلغ التعبير عن عراقـة الخلق الليبي لأن هؤلاء العمال وأمثالهم هم ولا شك المرآة المنعكسة والمعبرة عن الخلق الكامن المورث في كيان الشعب ..

والواقع انني تجولت كثيراً في البلاد العربية وقد وجدت ان العادات العربية

كلها متشابهة في كل بلد يشبه الى حد كبير البلد الثاني ولكنني لم أسر ولم اجـــد الاصدقاء الكثيرين الذين ركنت اليهم واطمأنت نفسي لمعاشرتهم في بعض الاقطار كما وجدتها في الشعب الليبي .

ولئن كان النفط المتدفق في بلادهم اليوم كالسيف ذى حدين له ماله من حسنات وسيئات .. فإنني ارجو الله تعالى ان يوفق الليبيين للأخذ بما فيه من حسنات تتجاوب واخلاقهم الكريمة وان يقيهم شر سيئاته .

عندما تطغى المروءة على الجشع

-٣٥-

أتى الى شبه الجزيرة العربية في السنين الغابرة مجاعة لا يمكن أن يتصورها العقل ، ولم تكن تلك الأيام المجدبة بعيدة العهد ، الى الحد الذي يمكن ان تنسى أو تغيب عن الاذهان ذكراها المريرة : بل كانت قريبة العهد : وقد ظلت آثارها باقية حتى مطلع القرن العشرين : وكانت البلاد ايامها محرومة من الانتاج الزراعي ومن جميع المعدات الزراعية كما يكن فيها انهار ولا سدود وكل ما في الأمر ان سكان البلاد يسعدون اذا أنهمرت السماء عليه بماء مدرار ويشقون بعدم نزول الغيث . ومن المعلوم ان الامطار في الجزيرة لم يكن نزولها دائماً متوفراً بصورة مستمرة كما هو الامر في البلاد الاخرى الباردة الكثيرة الاشجار ؟! وكان القوت الاساسي لاهل البلاد هو القمح والتمر وهذان الصنفان هما الانتاج الزراعي المحلي وربما كان الاخير قوت الطبقة الوسطى من الشعب بل قوت السواد الاعظم من المواطنين جميعاً ، اذ انه لم يكن وقتها ثمة تباين بين طبقات الشعب من حيث الثراء الفاحش بل يكاد أن يكون الشعب كله طبقة واحدة فإن يكن هناك فرق بين المواطنين بالغنى فإن هذا الفرق نسبي لا أهمية له ..

وكما أن اثرياء الحرب يدخرون المواد الغذائية بمجرد ما يشعرون ان هناك خطراً يهدد العالم بوقوع حرب عالمية أو محلية كذلك كان الاثرياء على قلتهم في

شبه الجزيرة كل فرد منهم يسعى جاهداً ان يشتري بكل ما يملكـــه من نقود قمحاً أو تمراً استعداداً لمواجهة القحط فإن اجدبت البلاد باع ما أدخره من تمر او بر او كلتاهما باضعاف مضاعفة ما اشتراه به وان ساق الله مطراً واخصبت الارض فانه سيبيع ما عنده برأسماله فـــلا يخسر شيئاً وان خسر فان خسارته ليست بذات بال .

وقد كان هذا الادخار شيئاً مألوفاً ولا يعاب فاعـله بالرغم من ان من يقوم بعمل كهذا فإنه بمقوت شرعاً وعقلاً : وحسب فاعله من العار والخزى انه في قرارة نفسه وفي عقله الباطن يحزن عندما تخصب البلاد وترخص المواد الغذائية وبالعكس يطرب ويتهلل وجهه سروراً ويرقص طربـــاً حينما يمتنع الغيث وتقحل الارض وتزداد قيمة مواد الغذاء لانــه لا يعيش ولا يثرى بـل لا يبلغ الى ذروة الجشع والتخمة الا على حساب جوع الالاف المؤلفة او الملايين من مواطنيه .

وبالرغم من جسامة عار من يقوم بأعمال كهذه فاننا لن نجد أمامنا دليلاً مادياً يوحي بأن المواطنين يعيبون من يقوم بمثل هذا العمل الشنيـع كما هو شأنهم مقت واحتقار أي مواطن يقوم بأعمال تتنافى والخلق العربي . مع العلم ان من يتولى القيام بأعمال حقيرة كهذه يجب ان يكون أول من يحتقر وآخر من يحترم، أجل وأي خزى أسوأ من خزى وعار مواطن لا تتم سعادته إلا بشقاء السواد الاعظم من مواطنيه .. ولكن الذي يبدو لي ان هذه العادة القبيحة اصبحت كما ذكرت آنفاً مألوفة عند المواطنين ومتى أصبح الشيء عـــادة مألوفة عنـد ذلك يتساهل المواطنون بحقها وتضعف حاسة الغيرة في نفوسهم شيئاً فشيئاً حتى تتلاشى نهائيـاً وتذوب مرة واحدة ..

هـذه ناحية رئيسية في هذا الموضوع بل تـكاد ان تكون قاعدة مضطردة في جميـع الامور بصورة عامة ، والناحية الثانية التي هي الاخرى ذات اهمية هي ان كل فرد من أهل البلاد يملك ولو قليـــلاً من النقود فانـــه بدلاً من أن يضعها مجمدة ومعطلة عن الفائـــدة فانـه يذهب ويشتري فيهـــا مـواد غذائية ويخزنهـــا لا من أجل أن يربح من ورائها بل من اجـــل أن

يدخرها كمؤونة يقتات منها في حالة وقوع قحط مفاجيء بل قحط منتظر الوقوع لأن أغلب السنين التي تمر بأهل البلاد يكون قحطها وقتذاك اكثر من خصوبتها، المقصود هو أن من يدخر شيئاً من المؤونة خاصة الذي ينوي التجارة بهـــا فانه لم يدخر ذلك على حساب الفقير فحسب بل وعلى حساب المسكين إذ أن الفرق بين الفقير والمسكين في اللغة العربية هو ان الاول الذى لا يملك قوت السنة والاخير الذى لا يملك قوت يومه وليلته ، ومن هنا يعرف مقدار جريمـة محتكرى المواد الغذائية عليهم من الله ما يستحقونه .

كان من بين هؤلاء المحتكرين شخص يدعى محمد بن شريدة [1] الذى احتكر نوعاً من الاغذية الرئيسية إلا وهو التمر ، وهذا النوع ربما كان هو الغذاء الاساسي بل هو الغذاء الرئيسي بالنسبة للفقراء ذوى الفقر المدقع ، جاءت سنة قاحلة لم ينزل فيها نقطة من الغيث وارتفعت قيمة مواد الغذاء فيها ارتفاعاً مدهشاً وبلغت المجاعة فيها حداً فوق ما يتصوره العقل واصبح عدد المتضورين جوعاً والبائتين على الطوى أكثر بكثير ممن يجد لقمة من العيش بل ممن يجد له حبيبات من التمر يسد بهـا رمقه .. وازدادت نسبة المتسولين وخاصة اذا ادلهم الليل هناك يتضاعف عـــدد المتسولين لأنه اذا جاءت سنة كهذه هلك فيها الضرع والزرع فانـه حتى الشاب مفتول الساعد ينـاله من المجاعة كما ينال الطفل والعجائز والشيوخ لأنه لا يجد له عملاً يقتات من ورائه ..

وعلى كل فقد كانت تلك السنة من أسوأ السنين المجدبة وأشدها وطـأة وهولاً على المواطنين، وبقدر ما كان هذا العام عام بؤس وشقاء على المواطنين الفقراء بصورة عامة وعلى المساكين بشكل خاص بقدر ما هو عام هناء وسعادة للتجار محتكري الطعام ، فلهم أن يتلاعبوا بأسعار الطعام كيف يشاؤون وكما يريدون فلا سلطة

---

١ - انظر صفحة ٢٢٧ من هذا الكتاب.

هناك وقتها قوية تحدد الاسعار إذ أن البلاد وقتذاك لم يتم للمرحوم الملك عبدالعزيز توحيدها بعد ، فــما على المحتكرين ميتي الضمائر ومعدومي الوجدان ومبلدي الاحساس ومقتولي العواطف ومفقودى المروءة : إلا أن يرقصوا طرباً على عويل المتضورين جوعاً ، فنفر من هذه الفئة لا يصح ان يطلق عليهم اسم البشر بل هم الى الحيوان اقرب كثيراً منهم الى الانسان بل هم الى نوع معين من الحيوان اقرب بخلقهم من أى نوع آخر من انواع الحيوانات جميعاً واعني بها الكلاب وفقاً للمثل الشعبي الدارج بين المواطنين حيث اذا شاء احد منهمان يصف شخصاً من هذه الفئة التي لا يهنأ لها العيش إلا في الحين الذى يصاب بـــه المواطنون بجائحة من جوائح الزمان ، عند ذلك يقال فلان (كالكلب الذى يفرح بمصيبة اصحابه)،أى أن الكلب عندما تصيب أهله كارثة ما يسر لوقوع هذه الكارثة ، والسبب انه في الحين الذي يكون به أهل الكلب في ذهول من هول الكارثـة يجعل نفوسهم لا تقبل الطعام فعندئذ تكمل سعادة الكلب بحيث يتسنى له التهام طعام اصحابه منفرداً.. وهذا خلق التجار المحتكرين لا يطيب لهم العيش إلا على حساب جوع مواطنيهم ، اللهم إلا من يكن بين جنبيه قلب ألمعي وعاطفة دافقة ووجدان عـامر مستيقظ ومروءة جمة كمحمد ابن شريدة رحمه الله ،ذلك الرجل الذي احتكر التمر فعلًا كما يعمل غيره من المحتكرين، وكانت تلك السنة المجدبة من أمنيته فيما لو لم تطغ مروءته على جشعه ولكنه عندما خرج ذات ليلة من منزله فوجد الكثير من بادية بلاده ومن قراها بل ومن نفس اهل مدينته البائسين يتضورون جوعــاً ، عندئذ لم يسعه إلا أن لبى نداء ضميره وأصغى لحافز وجدانه وأصم أذنيه عن صوت الجشع واستجاب بكل جوارحه لصوت المروءة الذي تجاوب مع خلقه الكريم .. لبيك يا صوت المروءة لبيك .. أجل لقد وقف محمد بن شريدة بتلك الليلة المدلهمة منادياً بصوته الجهوري قائلًا : أيهـا الاخوان كل من هو بحاجة الى التمر فليـأت إليّ واهباً إياه بلا ثمن ..

يا الله ما أكثر الملبين من المواطنين لهذا النــــداء .. لقد تزاحم المحتاجون أو الجائعون عند باب ابن شريدة وظل يقسم عليهم ما احتكره من التمر ، ولا زال

يقسمه حتى لم يترك في منزله حبة مما كان ينوي احتكاره سابقاً ثم بات تلك الليلة قرير العين مرتاح الضمير ، وفي صبيحة الغد ذهب لوالده ليخبره بما فعل :

الأبن – ابشرك يا والدي انني ابعت التمر بثمن فوق ما يتصوره العقل ..
الوالد – هل ابتعته نقداً أم مديناً ..
الأبن – بل ديناً .

الوالد – وكيف تبيعه ديناً يا بني ونحن بأمس الحاجة الى ثمنه نقداً ؟..

الأبن – كان الذي اشتراه مني قوم هم بأمس الضرورة اليه كغذاء يسد رمقهم عن الموت اكثر الف مرة من حاجتي الى ثمنه .
الوالد – فهل حددت اجلاً مسمى لدفع الثمن ..
الأبن – كلا .
الوالد – وهل لديك كفالة حلي أو عقار من المشترين تضمن لك استرجاع الثمن ؟..

الأبن – طبعاً لدي من الضمانة ما يكفل اعادة ثمن تمري اضعافاً مضاعفة عن ثمنه الحالي فيما لو ابتعته في الأسواق .

الوالد – انني اشك كثيراً بأن هناك من يستطيع أن يضع عندك كفالة تعادل ثمن تمرك بصورة مضاعفة على النهج الذي اشرت اليه كما انني اشك ايضاً أن هناك من يستطيع أن يسددك ثمن تمرك من المواطنين مهما كان المشتري اميناً ووفياً خاصة بهذه السنة المجدبة القاحلة التي لم اذكر بحياتي هذه الطويلة انه مر عام «قحط» كعامنا هذا الاسود التعيس .

الابن – يا والدي الكريم انني على يقين من العلم بأن ثمن تمري سوف يعود مضاعفاً بلا شك عندي ولا ريب ..

الوالد – فهل لك يا بني أن تصف الطريقة التي تمت فيها عملية المبايعة ..
الابن – مالك يا والدي ومال معرفة طريقة المبايعة ما دام انني قد اكدت

لك أن صفقة البيع كانت رابحة بصورة اكثر بكثير ما باع به تمرهم جميع التجار التجار في بلادنا كما أنني أزيدك تأكيداً انـــه ما من تاجر باع تمره وهو مرتاح الضمير وواثق من ربحه كراحة ضمير ابنك بربحه المضمون ..

الوالد ـ وأنا ايضاً واثق من عقلك وحكمتك بأنك لم تقـدم على أمر الا وانت عارف مسبقاً بنتائج كل امر تقوم به وان لا تضع قدمـــك حتى تعرف ما هو المكان الذى وضعت قدمك فيه وانني إذ الح عليك في طلبي بمعرفة السبيل الذى تمت المبايعة فيه بينك وبين المشترين فإن ذلك من سبيل الاحتياط او بعبارة اصح لكي يطمئن قلبي ليس الا ..

الابن أحب ان اصارحك اكثر وهو انني ابتعت تمري على قوم لا أريـــد منهم ثمناً من ورائه ولم أطلب منهم ولن اطلب مقابله جزءاً ولا شكوراً ..

الوالد ـ لعلك انفقته يا بني في سبيل الله وابتغاء مرضاته ..

الابن ـ اجل يا والدي لقد وهبته لمواطني الفقراء والمساكين لأنني كنت اشعر بوخز الضمير وقلق الوجدان واضطراب الحواس ولم اطمئن من هذا العذاب المؤلم حتى انني اتخذت القرار النهائي الذي على أثره قمت بتوزيع جميع ما دفعني الجشع الى احتكاره من التمر ولم اترك منه حبة واحدة وانني اؤكد لك يا والدي تأكيداً قاطعاً بأنني منذ ان انفقت ذلك التمر لأولئك البـائسين الذين شاهدتهم يتضورون جوعاً ويضطربون هلعاً من تلك اللحظة وأنا أشعر براحة واطمئنان ونشوة سرور وبلذة من السعادة التي غمرت كياني بصورة لا اذكر بحياتي انني شعرت بسعادة تعادل تلك السعادة ومن أوضح الأدلة على ذلك هو انني نمت تلك الليلة نوماً هادئاً لذيذاً مطمئن النفس بشكل لم يسبق ان استسلمت فيه للسبات بسعادةوحبور هنيئاً على فؤادي كتلك الليلة ..

الوالد ـ سامحك الله وزادك توفيقاً من ابن بار كريم ..

الابن – ماذا تقصد يا والدي بهذا الدعا .

الوالد – اقول سامحك الله ثانية وثالثة بعدم اخبارك لي بهذا النبأ السر فقد كان الاولى بك ان تدخل على قلبي السرور من حين ان سألتك عن مصير بضاعتك أما وقد وفقك الله لهذا العمل المبارك الذي لا يقوم به إلا من يوفقه الله ويختاره للقيام بأعمال البر والاحسان بعد هذا التوفيق فإنني أرى انه من الواجب عليّ شخصياً وقبل كل شيء أن أحمد الله تعالى واسجد له شكراً الذي وهبني ابناً نجيباً ذا مروءة كمروءتك التي جعلتك تشارك اخوانك المواطنين بؤسهم وتشاطرهم آلامهم وتقاسمهم عمومهم . ثانياً : أحب ان اؤكد لك تأكيداً يغني عن القسم بأنك ادخلت على قلب والدك بعملك هـــذا النبيل سروراً لا يعادله أي سرور وأزحت عن نفسي كابوساً من عذاب الضمير الذي طالما عانيت من وخزه العبء الذي لا يطيق احتماله صاحب الوجدان الحيّ .

ثالثاً – ابشرك ان الله سوف يخلف عليك من عنده اضعافاً مضاعفة على مـــا انفقته في سبيله لأنه جل شأنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً..

الابن – بورك فيك من والد ورع حكيم لقد كنت راضياً عن نفسي عندمـا قمت بهذا العمل كما انني واثق بأنني قد أرضيت الله وأرضيت ضميري ولكنني كنت في حيرة من أمري فيما له علاقة برضاك فلا أعلم ماذا ألاقي منك وهـــذا هو السر الذي اضطرني الى عدم مبادرتي باشعارك فوراً بعملي هذا أما وقد بدا لي منك أدلة الرضا فإنني شعرت الآن بأن سعادتي قد بلغت الذروة وسيان عندي الآن أيذهب مالي أم لا يذهب ؟. المهم عندى بهذه الحياة هو الرضا والسعادة وهـا أنذا أشعر برضى لا يعادله رضا وسعادة لا تضارعها سعادة .

الوالد – بل أعيد وأكرر لك ما قلته آنفاً بأن الله سوف يرزقك من عنـده برزق لم يخطر لك ببال لأن ذلك سنة الله بعباده الكرام المحسنين ..

هذا وقد أكد الرواة الثقاة ان الله يسر لأبنشريدة رزقاً من عنده كان اضعافاً مضاعفة لما أنفقه على اولئك البائسين وذلك بأقرب فرصة مناسبة بفضل صفقــة تجارية ربح بها ذلك المحسن التقي ذو المروءة الدافقة والشعور الانساني اليقظ[1] .
القصة مشهورة

---

١ - محمد بن شريدة من اعيان اهالي بريده ذوي الحل والعقد، قتل رحمه الله فياحدى المعارك الطاحنة ابان الحروب الاهلية في المعركة المسماة بـ جراب سنة١٣٣٣ هـ ١٩١٥م.

من ثمرة الأحسان

- ٣٦ -

أذكر أبياناً لشاعر المجتمع المرحوم معروف الرصافي نوه بها عن فضل الاحسان والمحسنين بقوله :

لو كنت أعبد فانياً في ذي الدنا
لعبدت من دون الاله المحسنا

ولجعلت قلبي موضعاً لتعبدي
سرا وفهت له بشكري معلنا

وخير مال ينفقه المرء في هذه الحياة هو ما يبذله في الاحسان ومن اجل الاحسان، وعندما يوفق المرء لذلك يجد اطمئناناً في نفسه وراحة في ضميره وسعادة في فؤاده بل وغذاء روحياً في الظروف الحرجة كما حصل ذلك فعلاً مع صاحب هذه القصة المرحوم (عليان الجبرى[1]) ومع شخص آخر يدعى (حداد بن مجلوب) من

---

١ – عليان من قبيلة حرب ومن البطن المسمى (عوق) ومن بادية المدينة المنورة .

قبيلة شمر . والاخير لا يزال على قيد الحياة .. ولنبدأ الآن بقصة الجبرى :

يقول الجبرى : انه كان في تركيا ابان الحرب العالمية الاولى ومن ضمن الجنود الاتراك المناضلين بجانب مصطفى كمال .. وفي أحدى الليالي ذهب بمهمة حربية هو ونفر من الجنود الاتراك المجاهدين ، وفي الطريق نزل عن جواده لقضاء حاجته ثم لحق برفاقه ولكنه ما أستطاع ان يهتدى اليهم في ظلام الليل الدامس . وعندما ادرك انه ضل السبيل وقف في مكانه بدون ان يسير خطوة واحدة حتى انبلج الفجر ، ولكنه مع ذلك ظل يجهل الطريق ولم يكن بوسعه ان يفرق بين الطريق الذي يؤدي الى قومه او الذى يرمي به في معسكر العدو .. وكان الفصل شتاء والثلوج تنزل بكثرة والبرد قارساً ، وخير وسيلة اختارها لنفسه هي انه ذهب نحو جبل عال وعندما وصله وجد في رأسه كهفاً فسيحاً وفي جوفه حطب وافر ، وكان من حسن حظه انه محتفظ ببندقيته و (كبريت) فذهب واشعل ناراً ليزيح عنه البرد الذى كان على وشك ان يفتك به . وبعدما اخذ حقه من الراحة والتدفئة سمع حركة في أقصى كهفه الفسيح فاستدنى بندقيته وراح نحو هذه الحركة فوجدها من النوع الذى يسمى مفردها باللغة الشعبية (واوى) ومن المعلوم ان هذا النوع لا يحل لحمه ولكن الرجل وصل درجه من الجوع تباح له معها المحرمات الامر الذى جعله يقتل هذه الحيوانات ويذهب يشوى منها ويستطعم مدة من الوقت من لحومها وبالتالي لم يجد شيئاً يقوم بأوده ما عدا الماء فقد وجده بصورة متيسرة ولكن المشكلة الآن قضية الطعام فقد اصبح يعاني الالم الكثير من الجوع الشديد وقد كان يود ان يذهب الى رفاقه المناضلين ولكنه لا يعرف الطريق ، ولا يفرق بين الارض التي يقيم بها العدو من المكان الذى فيه رفاقه بصفته غريباً عن البلاد ، وعندما يتعذر عليه السبيل يذهب ويستعين بالنوم.

هي الى الخيال اقرب منها الى الحقيقة !!

ويؤكد بطل الحادثة وراويها بأنه في الحين الذى يضطجع مستسلماً للنوم في

تلك اللحظة التي يكون بها بين النوم واليقظة يرى رجلاً يذهب الى نخلة ويقطف منها رطباً جنياً ثم يناوله إياه فيحاول ان يعرف من هذا الرجل فيعتذر عليه معرفته . أما النخلة التي يقطف منها الرجل التمر فإنه لا ينكر انها نخلة من احدى نخلاته التي في العوالي[1] وقصة هذه النخلة على حد قول الراوى فيها شيء من الغيبيات فيقول :

ان هناك ايتاماً توفي والدهم ولم يترك لهم شيئاً من متاع الدنيا ووالدتهم فقيرة وغريبة وانه عطف عليهم ومنحهم نخلة من نخلاته ، وان الرطب الذى يأتيه فيه ذلك الرجل يشعر وهو في سباته القريب من اليقظة بأنه رطب نخلته تلك التي منحها للايتام .

ولما كانت معرفتي بالرجل كانت محدودة جداً فإنه من بديهيات الأمور أن أكون بين الشك واليقين في روايته هذه بالرغم من توفر الأدلة التي من شأنها ان تعضد هذه الرواية . ومن هذه الأدلة ان الرجل عاش فترة في تركيا أيام الحرب العالمية ومنها انني علمت انه كان يقطن العوالي ولأسرته ملك فيها . ومنها قصيدة له شعبية أسمعني اياها ويصور بها ما عاناه من الجوع والخوف في رحلته الآنفة الذكر[2] كل هذه الأدلة من شأنها ان تسند رواية الجبرى ولكن رغم ذلك لم تبلغ عندى من اليقين درجة تجعلني أنقلها الى القراء كقصة من شيم العرب اللهم الا انني بعد ذلك بمدة سنحت لي فرصة برحلة يطول شرحها ذهبت بها الى بادية شمال الجزيرة.

---

١ - العوالي موضع فيه مزارع مجاور لمدينة الرسول عليه الصلاة والسلام.

١ - لم احفظ من قصيدته مع الاسكف الا بيتاً واحداً فقط وهو قوله :

تسعين ليلة عيشتي لحم واوي

ما حولي الا الثلج كالقطن مندوف

وعند ذلك أسمعني شخص من قبيلة شمر قصة من نوع قصة الجبرى عيناً بعين . ولما كان صاحب القصة الاخيرة لا يزال على قيد الحياة وكل رجال عشيرته يشهدون له بالامانة والصدق، ولما كنت أعددت فصلاً خاصاً في أعمال البر والاحسان ليمضي فاعل البر في سبيله قدماً لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، لذلك فقد طاب لي ان أسجل هذه القصة في هذا الفصل .

من صنع خيراً جنى ثمرته !!!

- ٣٧ -

لما كنت ذكرت في قصة الجبرى بأنني . لست ناوياً بأن أضمها في وجود هذا الكتاب أى قصة الجبرى لولا وجود هذه القصة فإنني أزيد تأكيداً مرة ثانية بأن هذه القصة والشهود الثقاة الكثيرى العدد بصدق وعدالة راوى قصتنا هذه هو الذى شجعني على كتابة تلك .

كان ذلك في عام ١٣٦٣هـ ١٩٤٢ م عندما حكمت عليّ ظروف قاسية الجأتني بأن انزل ضيفاً عند المرحوم الشيخ هباس[1] بن هباس بن هرشان ولا تسألني عن كنه الاسباب الداعية لتلك الرحلة لان شرحها يبعد بنا كثيراً عن بحثنا هـــذا ، وأرجو ان تتاح لي الفرصة التي تمكنني من اخراج كتاب كهدية مني لابنائي بعنوان « من الطفـولة الى الكهولة ».. لا أراني بحاجة على ان اؤكد بأن خير سجية يمتاز بها البدو على اصحاب البناء المدن هي تقدير الاولين لاصحاب الفضيلة .

وبصفتي انسان عاش بين ظهراني البدو فترات متباينة وفي مناسبات عديدة، كما انني كثير الاختلاط بهم بصورة دائمة . لذلك استطيع أن أوكد بأنه ليس لدي

---

١ جاء ذكر هباس في هذا السفر اكثر من مرة .

البدو شيئاً يغبطون عليه ما عدا تقديرهم لصاحب الفضيلة وسخريتهم بمن يتجرد منها مهما بلغ من المــال وتلك سجية تأصلت جذورها في نفوس العرب منذ فجر التاريخ[1] . وقد اشاد بذكرها شاعر الاسلام والجاهلية حسان ابن ثابت عندما كان جاهلياً :

نسود ذا المال القليل إذا بدت

مروءته فينا وان كان معدما

رجل نكرة ولكنه موضع احترام

في احدى الايام التي قضيتها بين ظهراني اولئك القوم قدم رجـــل الى نادي مضيفي المرحوم هباس لم يسبق ان رأيته قبل ذلك اليوم ولا بعـده والأمر الذي أثار انتباهي هو ما ابداه الحاضرون من مظاهر الاجلال والتقدير لهذا الرجـــل ، فمددت بصري خلسة نحو القادم محاولاً ان اتعرف عليه فوجدت انه رجل غريب عليّ ، ولكن طابع الوقار وسيما الرجولة بارزان على محيـــاه ، وبعدما افسح له الحاضرون المكان الذي احتله في صدر النادي وادبرت كؤوس القهوة ، بعد ذلك ساد الصمت قليلاً : كما هي العادة المألوفة عند البدو وهي عدم سؤالهم للقـادم حتى يحتسي القهوة ، ويأخذ بعد ذلك فترة تطول وتقصر بقدر بعد القادم وقربه منهم.

١ ـ نظريتي هذه التي اتحدث عنها محصورة على معرفتي السابقة منذ سبعة عشر سنة ونيف، ولما كانت الجماعات والافراد عرضة للتطور فانني لا استطيع ان اطلق حكمي السابق عليهم اليوم .. وليس معنى استدراكي هذا انني انفي ما قلته اعلاه . وانما اتحدث عما اعرفه سابقاً . واقف عند هذا الحد .

أما هذا الرجل وان كان موضع احترام عندهم جميعاً ولكن الأدلة تشير الى أنه ليس بالغريب عنهم . ولذلك لم تطل كثيراً فترة الصمت أكثر من دقائق محدودة وبعد ذلك وجه له الشيخ هباس السؤال التالي :

– أين نزلت ؟..

– في موضع طيب تشبع فيه الابل ولله الحمد والشكر .

وما ان انتهى الرجل من كلمته هذه التي جاءت رداً على سؤال الشيخ هباس حتى أجابه الحاضرون في المجلس بصوت واحد قائلين :

– عسى ان يكون منزلك مباركاً لأنك سخي بحليب نياقك والرجل الذي يكون من أمثالك نود له كل خير . فقال بهدوء ورزانة :

– ان ما ذكرتموه من سخائي بحليب نياقي فهذا واجب لا فضل لي به . ولا سيا بعد ان احياني الله بعدما اماتني وقطفت ثمرة سخائي .

عندما انتهى القادم من حديثه هذا وجم الجالسون جميعاً بينما وجدتني بحيرة من جواب هذا الرجل الذي احياه الله بعد مماته وفهمت من سكوت القوم انهم يعرفون الاشارة التي حيرتني وان الرجل لم يحدثهم بشيء غريب عليهم معرفته..ولما كان الذي كان جالساً عن يميني هو نايف ابن الشيخ هباس الذي لا زال حياً يرزق فقد همست بأذنه قائلا :

– من هو هذا الرجل ؟..

– من الويبار[1]

---

١ – الويبار فخذ هباس مضيفي .

ـ ما اسمه ؟..

ـ حداد بن مجلوب ..

ـ ماذا يقصد بقوله بعدما أحياني الله الخ ..

ـ يشير الى حادثة وقعت معه وهي معروفة لدينا جميعاً وفيهـــا شيء من الروعة .

ـ ما هذه الحادثة ؟..

ـ سله ينبئك عنها ..

ـ انني لم أر الرجل قبل هذه المرة ولذلك يكون سؤالي تطفلاً وانما الانسب ان يكون السؤال منك .

ـ وهو كذلك ..

وعند ذلك اتجه نايف الى الرجل وقال :

ـ هذا أخونا فلان مشيراً إليّ أراد مني أن اسألك عن الحادثة التي أشرت اليها الآن ..

ـ انت تعرف القضية من أولها الى آخرها ..

ـ أنا لست بحاجة الى المزيد من معرفتها وانما أخونا فهـــد لا يعلم شيئاً عن كنهها وعندئذ اتجه نحوي الرجل الوقور الذي يبدو انه في بداية العقد الخامس من العمر وقال :

- أيها الاخ ان قضيتي لا تخفى على أي فرد من هؤلاء الحاضرين جميعاً . .

ثم صمت ، ففهمت من صمته ان القضية فيها شيء من الغرابة وان لسان حاله يقول : اياك ان تظنها من نسج الخيال فقلت :

- لا شك عندي ان قومك هؤلاء يعرفون القضية ولكنني لا اعرف شيئاً عنها وأحب ان اسمعها من فيك ، فقال :

- ربما سمعت بمعركة الشعيبة[1]

- أجل .

- كنت من النفر الذين اصيبوا في تلك المعركة اصابات قاتلة عديدة . ولكن أحياني الله بالرغم من ان الأعداء لم يتركوني إلا وهم يعتقدون انني في حساب القتلى . والواقع انني بقيت أياماً [2] في وسط القتلى كواحد منهم بلا شعور ولا احساس اللهم إلا شعور نسبي لا استطيع ان اعبر عنه إلا ان أقول انه شعور اكمل من شعور النائم وأقل من شعور الانسان عندما يكون في يقظته الكاملة وعندما أبلغ هذه الدرجة التي بين النوم واليقظة ، أشعر كأن انساناً يحلب ناقتي التي لا أنكرها فإذا انتهى منها ناولني حليبها الذي لا أذكر بالدنيا طعماً ألذ منه ، وبقيت تلك المدة أنعم بهذا الغذاء الى ان أعاد إليّ احساسي وشعوري وكامل صحتي فوجدت نفسي أشبه ما يكون بالمرء الذي استيقظ بعد رقاد طويل ، وعند ذلك ذهبت افكر في سر

---

١ - وقعة الشعيبة في عام ١٣٣٧ هـ وهي بين الاخوان جنود الملك عبدالعزيز بن سعود وبين قبيلة شمر .

٢ - كنت احتفظ بعدد الايام التي ذكرها الرجل ولكنني نسيتها بعد طول المدة .

حليب هذه الناقة التي كنت أسقى حليبها عندما كنت في تلك الحالة الخطرة .
وإذا بي اذكر انها ناقتي التي وهبتها لايتام توفي والدهم وهو لا يملك من حطام الدنيا درهماً فذهبت ووهبتهم هذه الناقة فظلوا يشربون حليبها ، وهكذا زاد ايماني بالله بأنه لا يضيع أجر المحسنين ومن تلك الحادثة إلى يومنا هذا آليت على نفسي ان لا ادخر وسعاً من فعل الخير ما استطعت اليه سبيلاً .

بيتان متشابهان

الأول : بيت الأمة الأسلامية والثاني : بيت الفتيان العرب

-٣٨-

لما كانت هاتان القصتان متشابهتين من حيث الأصل والمعنى .. فقد رأيت أن ادمج بعضها ببعض دون أن افصلها عن بعضها ..

ولنبدأ بالأولى ، لا لأن صاحبها لا زال على قيد الحياة فحسب ، بل لأن بيته كما اشرت اعلاه بالعنوان بيت للأمة الأسلامية فهذا يعني أنه اشمل معنى من الثاني الذي هو بيت للفتيان العرب ..

مما لاشك فيه أن كل من زار مدينة جدة من حجاج بيت الله الحرام وهو من الرجال ذوى الالمام بالعلوم الأسلامية ، فلا بد له الا أن يزور بيت الشيخ محمد نصيف الرجل الكريم المضياف ، وأننا اذ ننظر لهذا الرجل بعين ملؤها التقدير والأعجاب فلإعاهو للأسباب الآتية :

اولاً - أن بيته كان بمثابة دار ضيافة للوافدين في الحين الذي لم يكن في جدة

أي فندق كان لا حكومي ولا أهلي ..

ثانياً ـ أن الذي يدخل بيت نصيف لا يقف به الأمر عند الحد الذي يجد فيه مالذ وطاب من شتى أنواع الأطعمة الغذائية فحسب ، بل علاوة على ذلك يجد فيه مكتبة عامرة مليئة من شتى اصناف المؤلفات العلمية وقل أن يطبع كتاب بالعالم العربي الا وللشيخ نصيف القسط الأوفر منه خاصة من الكتب الدينية السلفية بالدرجة الأولى ، وكذلك كتب الأدب والتاريخ العربي ..

فالزائر لمنزل الشيخ نصيف يجد الغذائين : غذاء الجسد الصحي وغذاء الروح والعقل معا .

وأكثر ما يكون بيت الامة الأسلامية مزدحماً في أيام موسم الحج ،ففي تلك الفترة يكون بيت نصيف اشبه ما يعبر بالمعنى الذي اشار اليه حسان ابن ثابت في ملوك الغساسنة في ذلك البيت الذي قالت العرب عنه انه ابلغ تعبير وصف به الكرام بمعنى كهذا :

يغشون حتى ما تهر كلابهم

لا يسألون عن السواد المقبل

واعتقد جازماً بأن نصيفاً افضل من الغساسنة ممدوحي حسان ، لان الاولين لهم في كرمهم مطامع سياسية كحكام لا يستقيم لهم الامر الا بما يبذلونه من مطامع سياسية ..

أما الشيخ نصيف فهو رجل أوسع الله في رزقه وليس له من وراء عمله هذا الا أنه يفعل المعروف من اجل المعروف لا يريد من وراء عمله جزاء ولا شكورا ..

كان المرحوم الشيخ حامد [١] فقي يحج سنوياً ، وعندما يأتي الى جـدة قادماً من القاهرة ينزل ضيفـاً في منزل الشيخ نصيف هو وعدد من اتباعه شأنه شأن العدد الكثير من ضيوف نصيف خاصة ، قبل وجود الفنادق في مدينة جدة ، وقد كان الشيـخ نصيف واضعاً عند الشيخ الفقي كتاباً من أجل أن يطبعه من ضمن الكتب التي يطبعها الشيخ نصيف دائماً على نفقته ويوزعها مجاناً ،واعتقد ان المدة التي تم تعيينها بانتهاء الكتاب تجاوزت الحد باكثر من اللازم الامر الذي جعل الشيـخ نصيف يغضب من الشيـح الفقي على الرغم من أن نصيفاً حليماً لا يعرف الغضب ، ولكن الذي يبدو أن الكتاب الذي تأخر طبعه نفيس،ولولا ذلك لما غضب نصيف، وقد فهمت أن الفقي لم يتحمل غضب نصيف ولم ينه موضوع الكتاب ايضاً ممـا جعل نصيفاً يتضاعف غضبه ، ومضت الايام بدون أن ينهي الفقي طبـع الكتاب ، وجاء موسم الحج ، والتنافس بين الشيخين قد بلغ اوجه ، ولكن الحامر الفقي فيما اذا وصل جدة هو واتباعه من انصار السنة المحمدية الذين يرأسهم فأين يـذهب ؟.. الفنادق لا وجود لها وقتذاك وحتى لو كانت موجودة فان الغذاء الصحي والفكري والعناية الكاملة التي يجدها الفقي في منزل الشيخ نصيف سوف لايجدها بأي فندق كان مهما بلغ من الرقي في مظهره ، ولكن الشيـخ حامـد الرجل الذكي لم يجعـل للغضب سبيلاً يحول بينه وبين تلك الراحة والعناية اللتين يجدهما في منزل المضياف نصيف ، ولذلك وجد خير وسيلة يتبعها أن جاء الى بيت الشيـح نصيف هوورفاقه، ووضعوا امتعتهم في المكان المعد للضيافة كالمعتاد ، وذلك قبل أن يسلم على صاحب المنزل ، وبعد ذلك جاء الى المجلس العام الذى يجلس فيه الشيـخ نصيف وضيوفه ، وأدى التحية التقليدية للجميـع ، ثم اتجه نحو الشيخ نصيف وقال :

ـ دع ما في نفسك عليّ من غضب يبقى على ما كان عليـه ، فغضبك لا يهمني

---

١ ـ الشيخ حامد من رجال العلوم الدينية في القاهرة توفي رحمه الله عام ١٣٧٥ ـ ١٩٥٦ .

سواء رضيت أم غضبت ،ثم مضى وقال عليك ان تعلم بأنني لم آت هنا الى شخصك بالذات وانما جئت الى هذا البيت الذي يعتبر بيتاً للأمة الاسلامية ، وبصفتي رجلاً مسلماً فإنه من حقي ان احل فيه ضيفاً رضيت ام غضبت؟

* * *

هذه قصة بيت الامة الاسلامية واليك الآن القصة الثانية ..

بيت الفتيان العرب

- ٣٩ -

يوجد في مدينة حائل شخص يدعى ناصر السعد ، كان هذا الرجـــل وضعه الاقتصادي محدود ولكنه كلما وقع بيده صرفه لرفاقه الفتيان من أهل بلدته ..

وكانت الصفات المتوفرة في شخص ناصر ، من شأنها ان تكون كالمغناطيس للفتيان .

أولاً ـ انه يحفظ القصص العربية بصورة يكاد ان يعبر عنه بالعصر الحديث بدائرة معارف ، حتى انه حينما توفي رحمه الله في عام ١٣٤٠ هـ قال من يعرفـــه من المواطنين ان الشيء الكثير من القصص الشعبية ذات الصلة بشيم العرب ماتت واندثرت معالمها بموته ..

ثانياً ـ انه كان محدثاً لبقاً يحسن الالقاء بصورة جذابة ، هذا بالنسبة للقصص التي يرويها أما بالنسبة للقصائد الشعبية ، فإنه يلحنها تلحيناً شعبياً شيقـاً ، حتى ان تلحينه الى الآن معروف ومعمول به عند بعض الشعبيين ، وخاصة القدامى ..

ثالثاً ـ ان الرجل كان لديه هواية في صنع القهوة فيتفنن فيهـا بصورة مغرية

لذوي الذوق ، والكيف في شرب القهوة ومعلوم أن الكثير من أهل شبه الجزيرة مغرمون بشرب القهوة ..

رابعاً – كان الرجل كريماً ومضيافاً لا يدخر رزق اليوم للغد .

كل هذه المعاني الحيوية من شأنها ان تجعل بيت الفتى ناصر السعد أشبه ما يكون بالنادي الثقافي في عصرنا الحديث ، او بسوق عكاظ بصورة مصغرة محدودة، فكان اكثر رواده من الفتيان ومن الاحياء الموالية له ، فيجتمعون فيه بعد الظهيرة وبعد العشاء ..

وعندما شاء القدر ان يشتت شملهم أو شمل بعضاً منهم حدث شقاق بين فتيين من الفتيان الذين يرودون هذا النادي ، أحدهما يدعى عتيق الضعيفي ويدعى الثاني مبارك بن كديس[1] . فالأول فارس والثاني شجاع شاعر ، وكان السبب لشقاقهما قصيدة غرامية قالها شخص على لسان فتاة بريئة امتدح بها عتيقاً وفي الوقت ذاته نال بها من شخصية مبارك ، ولا أرى داعياً يجعلني آتي بالقصيدة وانما نكتفي بالشاهد من القصة ، وهو ان الشاعر مبارك هجا عتيقاً ومعشوقته هجاء لاذعاً ، وخاصة بحق المعشوقة البريئة، فوصل الشقاق بينهما درجة أوشك معها ان يفتك احدهما بالآخر لو لم يكن خوفهما من القصاص الشرعي القائل : (النفس بالنفس) ..

والمشكل هنا هو ان هذا الشقاق لم يعد محدوداً بين شخص وشخص فحسب ، بل تطور حتى تأججت نيرانه وطارت عدواه الى درجة تعصب بها للمتنازعين كل فرد يمت لاحدهما بأدنى صلة من صلات النسب أو الرحم أو المصاهرة بل وحتى الصداقة .. فثارت ثائرة النعرات القبلية التي لا تستغرب في ذلك الوقت واصبح لكل منهما حزب يؤيده ويناصره ، بعدما كانوا كلهم كالأسرة الواحدة وبينهم الفة وطيدة الاساس وثيقة العرى ، يضمهم نادي ذلك الرجل الكريم الاديب يتسامرون احياناً

---

١ – قتل الاول في بعض الحروب عام ١٣١٦ والثاني قتل عام ١٣٢٧ .

حتى الفجر في ذلك البيت الذي أشبه ما يكون بالمدرسة الحافلة بالأدب الشعبي على مختلف أنواعه ..وكانت مصيبة الضعيفي وحزبه اكبر من مصيبة ابن كديس وذلك ان صاحب النادي بينه وبين ابن كديس صلة رحم الأمر الذي يجعل ابن كديس ورفاقه يتمتعون بهذا النادي ، بينما يكون الضعيفي وحزبه محرومين منـــه وهم كارهون،وفي ذات ليلة مر أحد انصار الضعيفي البارزين وهو المدعو صالح الغلث[1] مر وسط الشارع الذي يقع فيه منزل صاحب النادي، وعندما دنا الغلث من النادي شم رائحة القهوة التي انقطع عن التمتع بها منذ ان وقع الشقاق اللعين بين المتخاصمين، فوقف يتنشق الرائحة التي اسكرته ، وبينما كان واقفاً نشوان من رائحة القهوة ، واذا به يسمع ناصراً يلحن قصيدة شعبية بصوته الجهوري الذي استولى على كيانه بكل معنى الكلمة ، فما استطاع ان يملك شعوره بل ولا عقله ، فكأن الصوت ينقر بقلبه ، فجاء بحركة لا شعورية ودفع الباب بعنف وصاح بأعلى صوتـــه قائلًا :

– يا ابا نادر . (كنية صاحب النادي) .

فقطع الرجل صوته ليصغي الى صاحب هذا الصوت الذي لم يكن غريباً عنه ، وبينما ناصر صامت واذا بالغلث يدخل قائلًا: امض في تلحينك وقل معي ألا قبـح الله كلا من الكديسي والضعيفي اللذين حرمانا لذة الاجتماع والأنس بهذا النادي.. ثم استطرد وقال : وليعلم ابو نادر بأن هذا النادي ملك لجميـع الفتيـان ولم يكن وقفاً لأقاربك من دوننـا بل وحتى انت لا تملك التصرف به ، وثق انني في الغد سوف آتي بجميـع أقاربي السخفاء الذين هجروا نادي الشباب بما فيهم الضعيفي عليه

---

١ – صالح الغلث قتل في معركة الطرفية الكائنة فيعام ١٣١٥ ھ بين ابن صباح وابن رشيد.

من الله ما يستحقه هو وابن كديس معاً.. /

* * *

وكانت النهاية ان جاء بالضعيفي واقاربه جميعاً الذين قاطعوا النادي منذ ان بدأ الشقاق بين الفتيين وانتهى الموضوع بصلح وتسامح على الطريقة نفسها التي انتهى بها موضوع الشيخين نصيف والفقي رحمة الله عليهم جميعاً ..

جابر عثرات الكرام

- ٤٠ -

يقال أن ابلغ دعوة قالتها العرب تلك التي دعت بها احدى النساء العربيات لابنها المتضمن لفظها ومعناها كما يلي :

(أغناك الله عن منة اللئام ووفقك الى جبر عثرة الكرام) ..

ومما لا شك فيه أن حب المال والحرص على كسبه غريزة متأصلة في طباع بني الانسان ، ولا يستطيع أي عاقل ان يتجرد منها ، ولكن الاختلاف يأتي من حيث الوسائل المبذولة في كسبه من ناحية وفي سبيل انفاقه من ناحية اخرى ، واذا لم يكن الغاية من كسبه وانفاقه بصورة مختصرة ان يستغني به المرء عن الحاجة الى اللئام ، وان يجبر به عثرة الكرام ، اذا لم يكن الامر كذلك ، في مذهبي ، فان المال سيكون حجة على صاحبه ومدعاة لعداوة مواطنيه وحقدهم ، وتربص الدوائر به حتى اذا سنحت به الفرصة لم يدخروا وسعاً في مقاومته بشتى الوسائل ومختلف الاسباب ، وكثير من كرماء العرب القدامى وفرسانهم لم يعبأ بالمال

ولم يسع له ، إلا من اجل تلك الغاية .. وهذا عنترة العبسي يقول :

دعيني أنهب الأموال حتـــى
أكف الأكرمين عن اللئام

والعربي الكريم الشهم من شيمته ان يأخذ بيد الكريم ، اذا جفاه الزمان ، ويجبر عثرته من حيث انه كريم حتى ولو كان من اعدى أعدائه ..

ومن المعروف ان العداوة بين قبيـــلة قحطان وقبيلة عتيبة كانت من اعنف واشد ما توصف به العداوات ،وذلك منذ عهـد قديم ،الى ان انتهت تلك النعرات القبلية والغزوات الجاهلية وولت الى غير رجعة ، ولكن رغم ذلك كله نجـد ان احد فرسان قحطان وكرمائهم عندما عضه الدهر بنابه وقسى عليه الزمان بـــلا رحمة ، نجده ذهب الى فارس من فرسان قبيلة عتيبة وحل بداره ضيفاً بدون ان يشكو أمره له وانما بمجرد ما قصده في ساعة محنته عرف العتيبي انـه لم يأت اليه عدوه اللدود بهذه الفترة بالذات إلا وهو مستنجد بمروءته .

وهذا ما وقع فعلاً من سلطان [1] بن هندي ابن حميد رئيس عشيرة برقاء المتفرعه من قبيلة عتيبة ، وبين محمد بن فتنان القحطاني .[2]

ولنأتي اولاً بذكر المحنة التي من نتائجها واسبابها اضطر ابن فتنان بأن يذهب الى ابن حميد ..

كان ذلك في عام ١٣٠٥ عندما هجم أحد الغزاة على أبـل ابن فتيان وظفرو

---

١ – ابن حميد هو اكبر رئيس في قبيلة عتيبه .
٢ – محمد بن فتنان كان يرأس بطنا من بطون قبيلة قحطان يقال له آل روق ..

بنهبها كاملة..وعندما بلغه ذلك الخبر امتطى فرسه وذهب متبعا اثر المعتدين قاصداً أن يسترد أبله ، ولما لحق بهم وحمي الوطيس بينه وبين الغزاة اطلق الغازون سهما أصاب مقتلاً من فرسه فسقطت ميتة فوراً .. فعاد الى أهله فاقـداً أبله وفرسه .. وكانت المصيبة الكبرى انه حينما وصل أهله وجد غزاة آخرين صبوا غارتهم على أهله بغيابه ونهبوا الرواحل التي تقل بيته في حالة رحيله وبالاضافة الى ذلك إنه وجد زوجته ميتة من اثر رصاصة طائشة من اسهم الغزاة أصابت مقتلاً منها ..

فأصبح صفر اليدين من جميـع ما يملكه.. فلم يرد بداً أن يذهب الى سلطان بن حميد الذي كما ذكرت آنفاً هو من ألد اعدائه واكبر خصومه ،وما ان نزل بساحته حتى استقبله بأقصى ما يمكن أن يستقبل به كريم كريماً من أمثاله. وكان اول عمل قام به ابن حميد هو ان نحر عدداً من نياقه السمان كضيافة له من ناحية ،ومن ناحية اخرى قام بتنفيذ ما ينوي القيام به من جبر عثرة مستنجده وضيفه ودعـا على شرف ضيافته عدداً وافراً من رجال عشيرته .. وعندما انتهى قومه من الضيافة ، وزع على كل فرد منهم عقالاً وقد جرت العادة بحالة كهذه ان من يعطيه رئيس القبيلة عقالاً فإن هذا يعني ان هناك حاجة تشير الى عمل تكتلي اجتماعي يقتضي من كل فرد بأن يأتي بناقة من خيرة ابله ليقدمها لرئيس قبيلته والرئيس بدوره يجمع هذه النياق ويتصرف بها بما يعود نفعه المادي او المعنوي لرجال قبيلته ،وبعد لحظات سريعة عاد رجال القبيلة وكل واحد منهم يسوق ناقة (للقحة) [1] فكان المجموع أربعمائة ناقة ومعنى ذلك انها بعد عامين سوف تكون ثمانمائة ناقة بصفة أن النياق كل واحدة منها كما ذكرت حبلى .. وكل هذه الابل سلمها ابن حميد لضيفه ، ولم يقف اكرام ابن حميد لضيفه عند هذا الحد ، بل ذهب وسعى له بالنـكاح من فتاة من اجمل فتيات اسرته وهيأ

---

١ يقال للناقة الحبلى التي على وشك ان تضع (للقحة) ..

له جميع تكاليف الزواج من فراش وبيت بناه له من جديد وزوده بالمؤونــــة الكافية من قمح وتمر وسمن وقهوة الخ ... ممـا يلزم مصاريف البيت ونفقاته لمدة طويلة المدى ..

وقد عاش ابن فتنان وابن حميد كالاخوين الشقيقين الى أن فرقهما الدهر بموت أحدهما ، والقصة مشهورة ..

الشيء الذي بخل به الكريم حرمه الأبي ! !

- ٤١ -

اذا كان التباين بين بني الانسان بالخلقة ملحوظاً حتى انك لن تجد اثنين صفتهما واحدة حتى الاخوين الاشقاء ، وحتى الابن وأبيه ، اذا كان الأمر كذلك في صفة الانسان المـــادية فانه من مسلمات الأمور أن يكون البون شاسعاً أكثر بالصفات المعنوية ، بل قد نجــد ولو عن طريق النادر أخوين متشابهين بالخلقة ، ولكننا لن نجد قطعياً أخوين متشابهين بالأخلاق ، بل والأعجب من ذلك هو اننا نجد الشبه بين صفات بني البشر من حيث الخلقة يوشك أن يكون متقارباً الى حد مـــا ولا سيما عند بعض الاجناس من بني البشر في بعض القارات كالصينيين مثلاً والجاويين ، بينما نجد هذا الشبه من ناحية الاخلاق مفقوداً في عالم الانسان

والناحية الأهم هي تباين المواهب والاخلاق والاحساس والذوق ، كل هـذه الصفات المعنوية نجد البشر يتباينون فيها تبايناً اكثر بكثير من تباينهم بالخلق المادي . .

وأعظم شيء يسترعي الانتباه في عالم الاخلاق والمواهب هو اننا قل أن نجد انساناً إلا وله خلق طـــاغ على جميع صفاته ومواهبه حتى يكاد أن يكون هذا

الخلق هو الصفة البارزة التي ينعت بهـــا سواء أكان هذا الخلق حسناً أو قبيحاً ، فمثلاً نجد شخصاً حالمـا يُذكر الوفاء والصدق يكون اسمه ملاصقاً لهاتين الخلتين ، وآخر حالما يُذكر المكر والدس والنميمة يأتي اسمه بجانب هـذه الاشياء الخ ..

ورجل قصتنا هذه شخص من المستحيل أن يذكر اسمه عند من يعرفه أو يسمع عنه إلا ويذكر بجانب اسمه الكرم العربي الاصيل والسخاء المطبوع بخلقه الذى نوه عنه أبو الطيب المتنبي :

وللنفس أخلاق تدل على الفتى

أكان سخاء ما أتى أم تساخيا

كان سخـــاء المرحوم (دهام المذلول[1]) متجاوباً ونبله ومنسجماً وسماحة نفسه ، ومتفاعلاً وأخلاقه الكريمة ، ومطابقاً كل المطابقة لمثله العليا ، وواقفاً جنباً لجنب مع مروءته وشيمته ، كان دهام يشرب الدخان في الحين الذى كان شارب الدخان في شبه الجزيرة أو في نجد بصورة خاصة يعتبر مرتكباً جرماً كبيراً ، فهو لا تقبل له شهادة ولا يؤم الجماعة للصلاة حتى ولو كان أعلم بالكتاب والسنّة من غيره ، ولا ينظر اليه بعين التزكية والوقار في مجتمعه .. كان من شأن هذه النظرة الجدية لشارب الدخان في المجتمع الذى يعيش دهام بين ظهراني أهله أن تجعل منـه انساناً منبوذاً محتقراً في محيطه ، ولكن كرم الرجل الذى لا حدود له وسماحـة نفسه عكس الآية بصورة جعلت الدخان محبباً الى نفوس كثير من رجال طبقته ،

---

١ – دهام من ساكني مدينة حائل .

وذلك للأسباب الآتية :

وهي أن بيت الرجل أشبه مـــا يكون بناد يضم الكثير من اعيان البلاد والقادمين اليها حيث يجدون بصورة مستمرة مائدة دسمة يختلف شكل هذه المائدة باختلاف أوضاع صاحب النادى من الناحية الاقتصادية، كما تختلف باختلاف فصول السنة .. وكان في كلتا الحالتين يضيف الى مائدته السخية الدخـان المسمى بالشاور الوارد من العراق ، ولكن هذا الدخان الذى يقدمه دهـــام لضيوفه ، لم يكن دخاناً الا من حيث اسمه فقط ، أمـا من حيث رائحته فانه مزيج من الروائح الشذية ، وذلك انه يأمر رجاله قبل أن يحضروا الدخان ، بأن يقدموا أولاً مسكاً وعنبراً فيمزجونها مع الدخان، ثم يضاف اليها ماء الورد ، فعندئذ يكون الدخان جزءاً رابعاً ، فاذا كان تحريم الدخان على رأى محرميه مبنياً على اساس انـــه ذو رائحة كريهة تنفر منه ملائكة الرحمن على حد قولهم ، اذا كان الأمر كذلك فقد زالت العلة واصبحت رائحة الدخان لا وجود لها بين عبيق المسك والعنبر والورد ، وعلىهذا الاعتبار زال المحذور واصبحت نسبة الشاربين للدخان الذى يستعمله دهام تنمو بازدياد مطرد وخاصة من رواد ناديه الذي دائماً مـــا يكون حاشداً من الشخصيات البارزة ..

وفي احدى السنوات فرغت يد دهام ووصل من العجز الاقتصادي درجـة جعلته لا يستطيع أن يستمر على مـا كان عليه من كرمه الحاتمي ، فالمهات التي ينتدب لها من قبل امارة بلاده والتي غالباً ما يبني وارداته عليها تضاءلت ، والذي يملكه من ابل وغنم تلاشى عدده تدريجياً ، حتى انه لم يبق منـه شيء قطعياً ، فلم يسعه والحالة هذه الا أن يتراجع تدريجياً عن نفقاته الهائلة ويمد رجله كما يقال على قدر فراشه ..

وأول عملية قام بها لـكي يخفف عنه رواد ناديه هي أنه أعلن تركه للدخان ، وباعلانه هـذا بـــدأ عـــدد الزائرين يتقلص رويداً رويداً ، لأن الزوار

أكثرهم تعودوا أن يشربوا في ناديه الدخان أو (العبيق) وما دام أن صاحب النادي الذي دربهم على الشرب أعلن تركه له فهم وان لم يتركوا الدخان فانهم ليس من اللياقة ان يشربوه في منزله ..

كان جميع رواد النادي وأصدقاء صاحبه على يقين من العلم ان اعلان ترك دهام للدخان لم يكن حيلة وانما هو حقيقة ، وذلك لما يعرف عن الرجل من الصدق والصراحة . ولم يعلم رفاقه أن ظروفه القاسية هي وحدها التي اضطرته أن يخلف ظنهم به إلا في مناسبة طارئة اكتشفها أحد اصدقائه البارزين وهو المرحوم (فهد أبا الخيل[1].)

والطريقة التي جعلت فهداً يكتشف هذه الحقيقة جاءت على الوجه الآتي :

كان كل من فهد ودهام مسافرين في الصحراء ضمن عدد كثير من الغزاة في عام ١٣٣٥ هـ وبينما كان القوم مخيمين في الصحراء شم فهد رائحة العبيق الذى لم يسبق له أن شمه منذ أن اعلن دهام تركه له ، وكان فهد وقتها يشرب الدخان ، وكلما حاول أن يتركه لم تساعده نفسه على تركه ، وعندما شم رائحة العبيق في وقت القيلولة خرج من خيمته ، وظل يسير وراء رائحته التي بدأت تقوده بلا شعور منه كما تقود رائحة الماء الابل التي بلغت من الظمأ حداً من الهلاك ، وهكذا ظل فهد يسير وراء هذه الرائحة حتى تسلق جبلاً عالياً ..

وفي هذا الجبل غار فسيح فأدرك بواسطة قوة حاسة الشم ان مصدر هذه الرائحة يأتي من وسط هذا الغار فقصده حتى اذا دنا منه وجد دهاماً متواريا في قعر ذلك الكهف يمتص سبيله خلسة ،ولم يشعر حتى وقف على رأسه فهد فقام بحركة لا شعورية اخفى بها السبيل ، ولم يعلم ان فهداً شم رائحة دخانه وعرفه قبل ان يراه صاحبه ..

---

١ ـ فهد أبو الخيل من مدينة بريدة ولأسرته امارة بلاده سابقاً ..

لم يكن من أمر فهد إلا ان تجاهل الموضوع من اساسه وجعل نفسه انـه جاء لهذا المكان بقصد الرياضة، وفي الوقت ذاته عاهد الله سراً بأن لا يشرب الدخان..

مضت تلك السنة على دهام بقساوتها وضيقها ، وبعد ذلك عاد رزقه الى اتساع وانقشعت عنه موجة الفاقة ، فعاد على ما كان عليه من سخائه المعتاد واعلن انه عاد الى الدخان ، فجاءه رواد ناديه ،وقد استغرب دهام اعراض فهد عن شرب الدخان وكان يظن ان فهداً آخر رجل يعرض عن شرب الدخان، فراح يوجه اليه السؤال التـالي :

– ما كنت اظنك يا فهد تتخلى عن شرب الدخان حتى ولو تخلى عنه جميـع شاربيه في الدنيا ..

فرد عليه فهد قائلا :

– وانا كذلك ما كنت اظن انني استطيـع ان اتخلى عنه لولا انني رأيت كريماً كأبي نواف[1] الذي اعتقد جازماً بأنه لو بلغت به الفاقة درجة جعلت منـه انساناً لا يملك إلا قوت ليلته ثم بعد ذلك ابتلي بانتهاج احدى الطريقتين : اما ان يبيت الطوى أو ان يتوارى عن اعين رفاقه ويلتهم قوت ليلته خلسة لـكي لا يراه احد يشاركه به،لفضل ان يبيت الطوى على من ان يتوارى عن أعين الناس ويتناول قوته بمفرده،ثم استطرد وقال ومن تلك الساعة التي رأيتك متواريا بالغار حاكماً على نفسك بالبخل الذي يتنافى وخلقك ومروءتك ، عزفت نفسي عن الدخـــان الذي يصير الكريم بخيلا واقسمت بأن لا أضعه في جوفي مدى الحياة ..

وهكذا كان بخل الكريم سبباً لعزوف نفس الأبي .. فلو ان فهـداً أبا الخيل

---

١ – ابو نواف كنية لدهام الهذلول بطل القصة .

شاهد شخصاً متواريا يشرب الدخان على الطريقة التي رأى فيها دهاماً لما أثر ذلك على نفسيته ، ولكن مصدر التأثير جاء من ان المتواري دهام ، ولو ان الذى شاهد دهاماً بغاره شخص من مفقودي الاحساس والأنفة والاباء غير فهد لما أثرت تلك الرؤية شيئاً على نفسه [1] ..

* * *

---

١ - وبعد ، فانه من المؤسف حقاً ان يذهب دهام ذلك الرجل النبيل الكريم ضحية الاهواء والوشاية وان يقتل غدراً بدون ذنب اقترفه او جريمة ارتكبها ..

وكل ما في الأمر انه عندما كان والياً على الجوف من قبل امير حائل في عام ١٣٣٩ ﻫ بلغه الخبر ان امارة حائل استسلمت للمرحوم الملك عبدالعزيز، ولما لم يتأكد من صحة الخبر فقد بعث من عنده رسولين يحملان رسالتين متباينتين واحدة باسم امير حائل والاخرى باسم الملك عبدالعزيز وأكد على رسوليه بأنه في حالة عدم ثبوت الخبر القائل بسقوط حائل فانهما يذهبان الى اميرها محمد بن طلال ابن رشيد ويسلمانه الرسالة، اما اذا ثبتت الاخبارية فانهما يسلمان الرسالة للفاتح الجديد عبد العزيز ابن سعود، والذي نقل إلى هذه الرواية هو المرحوم شاهان الذرفي الشمري الذي يؤكد انه احد الرسولين اللذين بعثهما دهام ، وعندما دنا الرسولان من حائل وبلغهما الخبر ان البلاد وان كانت محاصرة ولكنها لم تستسلم عند ذلك اتجه الرسولان الى حائل ، وهما في طريقهما الى اميرها صادفهما رجال للامير ، فوجدوا لدى احد الرسولين المدعو الضميري الرسالتين فجيء به الى الامير محمد ابن طلال وضرب عنقه . وفي الوقت ذاته بعث الامير ثلاثة من جلاديه ليقتلوا دهامـــا ، ولما لم يستطيعوا قتله بصورة علنية بحكم انه محبوب عند اهل الجوف ، فقد ادعى هؤلاء القتلة أنهم جاءوا ليحملوا رسالة موجهة اليه من الامير ، وبقدر ما كان القتلة الثلاثة مضمرين لهذا الكريم السوء والغدر ، بقدر ما كان مبالغاً باكرامهم حيث نحر لهم جزوراً .. وفي الحين الذي خرج به من المسجد مؤدياً صلاة العصر وقاصداً ان يأمر رجاله ليهيئوا المائدة لضيوف الشرف، في تلك اللحظة اطلق عليه الغادرون رصاصاتهم من خلفه فسقط على الارض ويقول الرواة انه حاول ان يستدني مسدسه الذي كان على جنبه الأيمن ولكنه ما استطاع بحكم ان الغادرين تمكنوا برصاصاتهم من ضحيتهم البريء .. فكان آخر حركة منه حسبما نقلتها من شهود عيان هي ان اشار بكلتا يديه فاتحاً =

= ابهاميها وسبابتيها بصورة شعر المشاهدون ان تلك الاشارة علامـة استفهام،أي كأنهيقول علام هذا الغدر؟..

ويؤكد الرواة انه ما من واحد من الغادرين الثلاثة الا وسبق له ان برك على مائدة دهـــام مراراً عديدة والجدير بالذكر هو انكلا من الآمر بالقتل ومنفذو الغدر لقوا ربهم فمنهم منقتل بعده بشهرين ، ومنهم من قتل صبراً بحالة اسوأ من الموت الذي لقيه دهام .. وخلاصة القول ان القتلة لم يبق منهم الآن الا واحد على ابواب الموت او هو كالميت ..

ولقد كان السبب لهذا التعليق هو الدفاع عنعرض ذلك الرجلالكريم النبيل الذي أراد بعض الناس ان يصمهبالخيانة وهو منها بريء ، والفضل كله يعود لشامان الذرفيالذيهو احدالرسولين والذي نجا منقتل محمد بنطلالباعجوبة،فهذا وحده الذي نقل ليالخبر الأكيد الذيجاء بالسياق . ولولا ان البحث فيهذا الشيء يطولويطول بصورة تبعد بنا عن صميم الموضوع..لولا ذلكلشرحت الحقيقة التي كان من شأنها ان ذهبت نفس ذلك الرجل الطيب ضحية بريئة .. رحمه الله وعفا عن ظالميه وقاتليه .

هذا امتحان من الله

- ٤٢ -

يمتحن الله جل شأنه عباده بالمـال كما يمتحنهم بالفقر ، فالفقير مطالب بالصبر ، والغني مطالب بالشكر ، والحديث الشريف يقول : الغني الشا كر افضل عند الله من الفقير الصابر ، والطغرائي يقول :

وقـدر شـكر الفتى لله نعمتـه
كقدر صبر الفتى للحادث الجلل

والصبر الجميل الذي يطالب به الفقير هو الاحتمال وعدم الشكوى ، والشكر الذي ينبغي من الغني هو عدم التبذير والأخذ بيد الفقير ومواســـاة الضعيف ، والشاهد هنا حادثة فقير وقعت مع رجل أوسع الله في رزقه ، رواها لنــــا الاخ سليمان القاضي نقلاً عن احد رجال دمشق الثقاة وملخصها كما يلي :

عندما كان الشيخ زاهد [1] الاشي يتولى القيام بمهمة القضاء في بلدة دوما المجاورة لمدينة دمشق جاء له شخص قروي فقال :

- ان لدي دعوى .. فقال القاضي :

- على من تدعي ؟ فقال المدعي :

- على الذي ابتلاني بكثرة الاولاد كما ابتلاني بقلة الرزق وشهودي على ذلك الجيران وبيت المؤونة [2] .

فقال له الشيخ :

- اذهب الآن وعد عليّ غداً ظهراً لكي أنظر في دعواك ..

ذهب الرجل من عنده وفي صباح الغد ذهب يعمل في حقله ، وعندما قرب الموعد المعين جاء الى منزله ليبدل ثياب الحقل بثياب انظف منها الى حد ما . وعندما دخل منزله قابلته زوجته قائلة له :

- من هو الذى أقمت عليه الدعوى ؟..

فقال :

- من الذى اخبرك بذلك ؟.. فقالت :

- جاءني عمال يحملون عدداً من اكياس الطحين والارز والسكر والسمن وأدخلوه غرفة المؤونة وقالوا :

---

١ - زاهد من سكان دمشق وهو والد جميل الذي تولى الوزارة في سورية في عهد حكومة الشيخ تاج الدين الحسني..

٢ - هذه العبارة نقلتها عن القاضي بنصها حرفياً كما وردت اعلاه.

- اذا جاء زوجك فقولي له هذا أرسله لك الذى اقمت دعواك عليه ..

فذهب القروى للقاضي وعندما سلم عليه وبادله الشيخ السلام وقال :

- انني اطلب ابطال الدعوى التي اقمتها بالأمس لأن المدعى عليه انصفني ، ولا أرى ما يدعو الى شكواه الآن .. فقال القاضي [1] :

- بل سوف لا يكون لك سبيل الى الشكوى عليه لا اليوم ولا غداً ..

ويؤكد لي الراوى الاخ سليمان القاضي بأن الشيخ الالشي لم يقف بـه الامر الى الحد الذى بعث للقروى بتلك المؤونة بل ناوله وقتها عدداً من الجنيهات الذهبية ليشتري فيها كسوة له ولأبنائه ، والاعظم من ذلك انه رتب له مقرراً يتقاضاه لا مدة حياة الشيخ الالشي فحسب ، بل كتب في وصيته بأن يدفع للقروى عشرة جنيهات ذهباً كل سنة ..

والجدير بالذكر انـه حتى هذا التاريخ بالذات ١٣٨٣/١٠/٤ - ١٩٦٤/٢/١ والمقرر الذى اوصى بـه الشيخ يدفع لابناء القروي وذلك بواسطة ابن الشيخ الاستاذ جميل الالسي الذى نفذ وصية والده بكل أمانة ، وعلينا ان نعتبر عشرة جنيهات في ذلك الوقت بعشرة اضعافها الآن ..

وبعد فقد فاتني بأن اشير في أول الحديث الى ان القروي عندما جاء الى الشيخ الالشي بدعواه وجه اليه الشيخ السؤال التالي :

- ألم يسبق ان رفعت دعواك هذه الى القضاة الذين تولوا هذا المنصب من قبلي؟ فقال القروى :

- بلى كنت رفعتها الى اكثر من قاض من القضاة السابقين ولكن كانت دعواي

---

١ - ارجو ان لا يكون التباس عند القارىء بين اسم القاضي الشرعي الشيخ زاهد الالشي وبين سليمان القاضي راوي هذه القصة .

تعود عليّ بدون جدوى وبدون حل من أي واحد منهم[1]..

* * *

---

١ – ربما كان القضاة السابقين الذين رفع القروي شكواه اليهم ربما كان وضعهم الاقتصادي لا يشفع لهم بالعمل الذي قام به الشيخ الالشي وهذا مما يجعل ايماننا يتضاعف بحكمة الشرع الاسلامي تلك الحكمة التي تشير بأنه من اللازم بأن يكون القاضي الشرعي غنياً .. ومما لا شك فيه ان الشيخ الالشي لو لم يكن غنياً بماله كفنائه بنفسه لما استطاع ان يحل المشكلة على النهج الذي اورناده بالسياق ، والشيء الذي اعتقده ان ايمان الالشي بربه وقناعته برزقه واعتماده على الله اكثر بكثير من اعتماده على ماله ..

حينما كنت غازياً طردناك

وبعدما اصبحت عاجزاً ضيفناك

-٤٣-

هذه الحادثة يقع تاريخها بين ١٣١٥ - ١٣٢٠ ه وبطلها رجل يدعى (مكازى[١] ابن سعيد) وهو مشهور بالكرم وانما ازدادت شهرته بمناسبة عملية قام فيها ربما كانت فريدة من نوعها من حيث اسلوبها التقليدى .

من العادة المعروفة ان الذئب عندما يشعر بالجوع يتخذ عدة وسائل :

اولاً انه يحاول ان يهجم على غنم أية قبيلة قريبة اليه ويكون هجومه غالباً خلسة فإن تعذر عليه ذلك بواسطة كلاب القبيلة فلا يدخر وسعاً من ان يلتجيء الى وسيلة ثانية وهي انه يذهب ويعوي بصوت جهورى يسمع من مسافة بعيدة. والحكمة من عويله هي ان صوته هذا اشبه ما يكون بعلامة الاشارة الى بقيـة الذئاب ليستنجد

---

١ - مكازي من قبيلة شمر نجد ومن عشيرة عبدة وهو رئيس فخذه .

بهم فكل ذئب يسمع هذا الصوت فما عليه إلا ان يهرع مسرعاً لتلبيته وإذا وصله ضم صوته الى صوت الاول وهكذا دواليك حتى تتجمع كل الذئاب التي في تلك البقعة من الارض ومن ثم يكرون جميعاً على الغنم التي طرد منها رفيقهم الاسبق حتى يستحصلوا على فريستهم منها بالقوة .. هذا إذا لم تكن كلاب القبيلة كثيرة ولديها من القدرة ما يمكنها من طرد الذئاب مهما كثرت ..

وحديثنا هنا حول احد الذئاب الذي هجم على غنم كازي بن سعيد سالف الذكر ولكنه عاد مفلساً من فريسته بالرغم من هجومه العنيف حيث تصدت له كلاب القبيلة وطردته ، ولم يسعه إلا ان ذهب والتمس الوسيلة الثانية أي انه راح يعوى ليستنجد برفاقه الذئاب فلبى نجدته جميع الذئاب التي في تلك المنطقة، فهجمت على القبيلة كلها هجوماً موحداً بصورة عنيفة ومرعبة ، ولكن كلاب الحي كانت لهذه الذئاب بالمرصاد فكرت بالهجوم ثانية وثالثة ورابعة ولكن محاولة الذئاب كانت محاولة يائسة بحكم وجود كلاب القبيلة التي تصدت لرد هجومها وطردتها .. وعندما يئست الذئاب قفلت راجعة ولم يبق إلا الذئب الاول الذى كان السبب الأساسي بمجيء الذئاب ولم يكن الآن بوسعه ان يعوى كعوائه الاول الداوي . وإنما ظل يعوى عواء العاجز المهزوم المستكين الذي يبدو انه جائع جوعاً شديداً وكأنه يعبر بعوائه هذا بأنه يستجدى لاعواءه الأسبق الذي يحمل طابع التحدى والتهديد . ولذلك تبدل الموقف بالنسبة لهذا الوحش من عواء ذئب يريد ان يأخذ فريسته بالقوة الى عوائه الحالي الذى يريد ان يمن عليه احد رجال هذه القبيلة بأية لقمة تقدم له لتقوم بأوده ..

وعندما تبدل موقف الذئب من عويل التهديد والوعيد الى عويل الاستجداء

والاسترحام ساعتذاك تبدل موقف رئيس الفخذ من تركه للكلاب تقاوم الذئب وتطرده الى أن اعتبر الذئب ضيفاً جائعاً يطلب القرى فيجب عليه أن لا يبيت الطوى بعدما اعلن استسلامه واستجداءه ولذلك راح واستنجد بفتيان من شباب قبيلته ليتولوا طرد الكلاب عن مقاومة الذئب قائلاً لهم : عندما كان الذئب يحاول أن ينهب فريسته بالقوة تركنا كلابنا تتولى مقاومته حتى ذهب واستنجد بجميع ذئاب الفلاة التي سمعت نداءه واستجابت لندبته ثم كرر راجعاً هو واعوانه فتصدت لهم كلاب الحي بكاملها حتى هزمتهم وعـادوا مدحورين ، والآن ها هو صوت الذئب قد تبدل من عويله المدوى الصارخ الذي كان يرسله في أول الليل معبراً عن ضراوته واستعداده لنهب فريسته بقوته وقوة رفاقه إلى صوته المزيل الفاجع الذي ينم عن ضعفه وعجزه . ثم استطرد ابن سعيد فقال : لقد اصبح الذئب الان ضيفاً لنا بحكم استجدائه الحالي ، وليس من الشيمة أن نتركه بعد ذلك يبيت الطوى ، فقال له أحد رفاقه المعبر عن رأيهم جميعاً :

ـ وماذا تريد أن تفعل الآن ؟..

فقال : أريدكم أن تطردوا الكلاب عنه بينما اذهب بنفسي واختـار شاة من اطيب غنمي واذكيها بيدي واقدمهـا له ضيافة معتبراً إياه كأى انسان ضافني وقدمت له ضيافة مماثلة كهذه الضيافة ..

فوافقه رفاقه على رأيه فذهب ونفذ العملية بينما رفاقه تولوا حراسة الذئب من الكلاب حتى انتهى من قراه ..

وقد اطلق على صاحب هـذه العملية اسم (معشي الذئب) أى أن سخاءه لم يقف به الى حد أكرامه للضيوف من بني الانسان أينما كانوا وانمـا ذهب به الى أكرام الوحوش الجائعـــة ، التي استنجدت بكرمه واستعطفت مروءته فلبى نجدتها ..

حينما يكون العمل خالصاً لله !!

- ٤٤ -

ورد في الحديث الشريف عن النبي محمد عليه الصلاة والسلام قوله : « انما الأعمال بالنيات وانما لكل امريء ما نوى » ..

يقول علماء الحديث ان هذا الحديث من أبلغ الاحاديث النبوية الصحيحة من حيث أهمية معناه المنطقي . وذلك لأنه أثبت بصورة جلية بأن الأعمال لا ينظر اليها من حيث إطارها الخارجي مهما بلغت من السمو والعظمة ، وانما ينظر اليها من زاوية واحدة ألا وهي حسن النية وسلامة القصد ، ولكن المشكلة العويصة بهذا الشأن هي أن سلامة النية والاخلاص بالعمل، هذان الأمران هما سر خفي كامن في خفايا النفس . ومن المستحيل جداً ان يعلم بهما أحد الا الله تبارك وتعالى ..

واذا كان العاملون قليلين . فان المخلصين أقل . وذلك أن العاملين المخلصين هم الذين لا يريدون من وراء اعمالهم جزاء ولا شكوراً ، ولذلك نجد الذي يقوم بعمل خالص محض نجده يخفي اعماله كما نخفي عيوبنا عن الناس . ومما لا شك فيه هو أن أي انسان يقوم بعمل ما ويجاهر بأعماله بصورة علنية أو يحب ان يعلن

عنه فانه سيكون هدفاً لأسهم المتهمين له بعدم اخلاصه بأعماله حتى ولو كان مخلصاً في سريرته . والسبب هو ان بعض العاملين أشبه ما يكونون بالتاجر المحترف الذي قل أن ينفق شيئاً ولو كان ضئيلاً إلا ولديه من العلم اليقين الراسخ بأنه سوف يربح اضعافاً مضاعفة عما انفقه ، أما أن ينفق التاجر درهماً أو اقل من الدرهم دون أن يعرف ان ربحه المادي المحسوس مضمون مائة بالمائة فهذا في ما اعتقد أشبه ما يكون بالمستحيل ، بل قل هو المستحيل بعينه . وما يقال عن التاجر في حالة كهذه يقال ايضاً عن السياسي الذي لا يمكن ان ينفق درهماً إلا وهو عارف لماذا أنفقه؟ ولأي غاية أنفقه من غاياته السياسية بل ربما لا ينفق شيئاً من ماله حتى يمهد له من مقدمات الدعاية الرنانة قبل انفاقه وبعد انفاقه حتى لا يبقى مخلوق في الارض إلا سمع ذلك الضجيج بل وسئمت اذناه سماع تلك الجعجعة الطويلة العريضة . .

أما أن يقوم السياسي بعمل من اعمال المروءة للمروءة فقط وينفق الاموال الطائلة ثم بعد ذلك يفعل المستحيل حتى لا يعلم أحد بها بذله بل ويطلب تعهداً ممن ينفذ عمله بأن يخفي الأمر ويكتمه فهذا ولا شك مما يدعو للاستغراب ، بل والى الاعجاب بسياسي يكون من هذا النمط اعجاباً لا يقل عن اعجابنا بهذا التاجر الذي يطيب لي ان أوافي القاريء باسمه وعمله كما آتي بعده بذكر اسم السياسي . .

أما التاجر فهو المرحوم عبد الله الحليسي [١] من مدينة بريده وهو من قبيلة بني تميم ، وقد قضى زهرة شبابه وكهولته في دمشق حتى توفاه الله فيها ، كان يعمل تاجراً بالابل ولم يكن وارثاً للمال الذي يعمل به كتاجر بل كان عصامياً جمع ثروته من عرق جبينه وكسب يمينه .

---

١ - عبد الله الحليسي هو عم عبد الرحمن الحليسي سفير المملكة العربية السعودية حالياً في روما . .

حدثني الشيخ سليم اللبني الدمشقي الأصل والذي لا يزال على قيد الحياة ، يقول الشيخ سليم :

« لما كنت اماماً لجامع بلوزه الكائن في دمشق في حي الميدان في الحقلة منذ سنين طويلة فقد حضر في اوقات الصلاة الشيخ عبد الله الحلبيي وعندما انتهينا من الصلاة دنا مني الرجل فقال : ما لي أرى مسجدكم هذا خرباً وعلى وشك ان يتداعى سقفه » .. فأجابه الشيخ سليم قائلاً :

- كان بودنا ان نرممه أو نعمره من جديد ولكن لم نستطع لا هذه ولا تلك ..

فقال الحلبيي : من الآن عليك أن تباشر هدمه وبنيانه من جديد ونحن علينا تكاليف كل ما يلزم لعمرانه بشرط أن يكون ذلك سراً مكتوماً بيننا لا يعلم به إلا الله ..

هذا وقد نفذ الشيخ سليم ما أمره به الحلبيي كما نفذ الاخير ما وعده به من دفع جميع تكاليف المسجد الذي هدم وبني من جديد على نفقة ذلك التاجر المحسن ، وأهم ما في الأمر هو اشتراطه أن لا يعلم أحد عن قيامه بهذا العمل الروحي ، وقد ظل السر مكتوماً بين الحلبيي وبين الشيخ سليم الى ان توفي الاول ، وعندئذ رأى الشيخ سليم أن من الافضل اعلان هذا الجميل لصاحبه لكي يقتدي فيه الأخيار الصالحون ..

هذا وقد أفادني الشيخ سليم ان الحلبيي رحمه الله زاره بعد ان عمر المسجد بمدة وقال له : أتدري انني بعد أن وفقت لقيامي بعمران بيت الله ان الله قد أعاضني عن كل درهم انفقته في سبيل ذلك العمل رزقاً طيباً يزيد اضعافاً مضاعفة عما انفقته في سبيل ذلك العمل الروحي ..

هذا هو التاجر الذي يلذ لي الاشادة بعمله الذي يعبر لا عن طيب نفسه وسلامة

طويته فحسب بل وعن اخلاصه بعمله الذي حرص على كتمانه لكي يكون عملاً خالصاً لله والى الله ..

* * *

أما السياسي فهو المرحوم فؤاد حمزة [١] اللبناني الاصل والذي كان وزير دولة ومستشاراً للمرحوم الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله ولم يخطر ببال أي أحد أن سياسياً كفؤاد حمزه يتبنى عمران مسجد على نفقته ثم مع ذلك يحرص ان لا يعلم أحد عنه بعمله هذا ..

لقد كنت من ألصق الناس به وكنت اعرف عنه الشهامة والرجولة وسعة الأفق، ولكنني لم أفكر قط في انه يقوم بعمارات مسجد من جديد على نفقته وبصورة سرية مكتومة .. اللهم الا في اليوم الذى توفي غفر الله له وذلك انه عندما حمل جثمانه وجيء به الى المسجد القريب من منزله في رأس بيروت ليصلى عليه وعندما وقف الامام الشيخ سعدى ياسين قاصداً ان يكبر على جثمانه التكبيرة الاولى .. في تلك اللحظة تنهد الامام ثم انحرف على المأمومين فقال : ترحموا معي على هذا الميت لأن هذا المسجد العامر كنت أجمع من المحسنين الليرة والليرتين لعمرانه وعندما جئت اليه عارضاً ورقة تشمل اسماء المتبرعين قاصداً أن يساهم بما تجود به مروءته فما كان منه إلا أن مزق الورقة وقال : عمّر هذا المسجد على نفقتي شريطة أن لا يعلم أحد انني المتكفل ببنيانه ..

والحقيقة انه ما ان قال الشيخ سعدى ياسين الذي لا زال حياً يرزق هذه

---

١ – توفي فؤاد حمزه رحمه الله في ٢٢–١١–١٩٥١ م في مدينة بيروت إثر نوبة قلبية .

الكلمة ثم انصرف وكبر حتى شعرت عند كل من حضر الصلاة بحافز يدعوهم للدعاء والترحم لصاحب الجثمان الراحل الذى كان لديه من السريرة بينه وبين ربه أكثر مما هو ظاهر لنا ..

وهكذا نجد كلًا من الحليسي وفؤاد حمزة يتفقان بالأعمال الطيبة الصالحة بالرغم من اختلافهما بالمهنة والنشأة ..

وقد فهمت فيما بعد من مصدر موثوق ان المرحوم فؤاد عمّر مدرسة بقرية الاشرفية الكائنة خلف معمل القزاز في دمشق لفقراء تلك القرية، كلفته ثلاثين الف ليرة سورية . ولم اقف عند حد رواية الراوي بل ذهبت بنفسي لأتأكد من صحة الرواية . فوجدت الخبر أكيداً والمدرسة قائمة حتى الآن شـاهدة له كشهادة شيم العرب لأى محسن كان من ناطقي الضاد ..

* * *

وفي الحين الذي كان كتابي هذا تحت المطبعة زارني في الفندق في بيروت الاستاذ محمد علي الطاهر صاحب جريدة الشورى المحتجبة التي كان لها صولات وجولات ضد دول الاستعمار ، وفي احدى زياراته المترددة التي يقصد من ورائهـا مساعدتي على تصحيح بعض ملازم هذا الكتاب ، سمعني اتحدث بالهاتف مع حرم المرحوم فؤاد حمزة ، وبعدما وضعت سماعة الهاتف ، جرى الحديث بيني وبين الطـاهر في ذكر فؤاد حمزة ، فقلت له انني كاتب عنه في هذا الكتاب كتابة وجيزة ، فقال :

ـ اتعرف الرجل معرفة راسخة ؟ فقلت :

ـ عرفته في اول حوادث فلسطين عام ١٣٦٧ هـ أي قبل وفاتـه بأربع[١]

١ ـ سوف اذكر في آخر هذه الكتابة المناسبة التي تعرفت بها على فؤاد حمزة .

سنوات تقريباً . فقال :

ـ أما تعرفه قبل ان يأتي الى بلادكم ؟ قلت :

ـ لم يكن لي وقتها من السن ما يخولني معرفة الرجال ، ثم اردفت قائلا هل تعرف فؤاداً قبل أن يأتي الى المملكة السعودية ؟ فكأنني بسؤالي هذا ارتكبت خطأ في نظر الاستاذ الطاهر حيث انحرف الي ونظرني شزراً، ثم قال بصوت مرتفع أتظن انني لم اعرفه قط ، إلا بعدما جاء الى المملكة ونال عندكم ما ناله من الجاه والمال ؟ ولما كنت اعرف الاستاذ الطاهر وأعرف عنه الشدة التي تبلغ من العنف احياناً درجة تتجاوز الحد المعتدل ، ولما كنت اعرف ايضاً انه سجل تاريخي خاصة في معرفة القضايا السياسية العربية منذ نصف قرن ونيف ، ومعرفة الكثير من الرجال الذين قدر لهم ان يساهموا في القضايا العربية منذ ان كانت لا تزال في المهد، فقد سألته عما يعرفه عن فؤاد حمزة فقال : انني أعرف فؤاد حمزة معرفة جيدة ، وقد كان الرجل وطنياً مخلصاً في عروبته الى اقصى حدود الاخلاص ، ثم مضى الطاهر في حديثه الى ان قال : لقد كان المرحوم فؤاد في شبابه يزود جريدة الشورى بالمعلومات السرية عن نوايا الانجليز ضد الوطن السليب فلسطين عندما كان استاذاً في ادارة المعارف الفلسطينية أبان عهد الانتداب البريطاني .

وبما ان الاستاذ محمد علي الطاهر كما أشرت آنفاً يعد تاريخاً حافلاً بمعرفة الرجال العاملين . وغير العاملين في القضايا العربية، وبما انه اشبه ما يكون بالشيخ ابن حزم الظاهري احد رجال الحديث المشهورين . الذي قال عنه رجال الحديث انه شديد للغاية بتزكيته لرواة الحديث الى الحد الذي جعل المحدثين يقبلون تزكيته للرجال بدون ذلك التردد الذي يبدونه بتجريحه لمن يحكم عليه بعدم الصدق والعدالة .

أقول : بما ان الاستاذ الطاهر في رأيي يعد من طراز ابن حزم الظاهري من حيث شدته بشهادته بالتزكية ـ فقد عدت أسأله ثانية واستوضح منه عما يعرفه عن فؤاد حمزة فرد عليّ قائلاً :

ما دمت تتحرى الحقائق وتحرص على تدوين كل ما يمت الى الشيم العربيـة بأدنى صله ، فإنه من الأجمل ان ابعث لك برسالة خطية تحت امضـائي ، على أن اذكر لك فيها بصورة موجزة الشيء القليل من الذي أعرفه عن فؤاد حمزة .

فذهب من عندي ثم عاد في صباح الغد وقدم إلي الكتابة الآتية :

بيروت ٢٨ : رجب ١٣٨٤

أخي الشيخ فهد المارك حفظه الله ورعاه

أراك لا تزال تدون اموراً كريمة في مؤلفاتك الثمينة عن شهامة رجال امتنا، وانك نوهت بشيء من شيم المرحوم السيد فؤاد حمزة اللبناني الأصل ، وكيل وزارة الخارجية السعودية سابقاً والسفير سابقاً ايضاً ..

واني بمناسبة عملك الطيب هذا،ارجوك ان تضيف الى سجل فؤاد حمزة عندك، انه لما جيء به من لبنان لفلسطين استاذاً بادارة المعارف قبل اربعين عاماً ، وقبل ان يلتحق بخدمة الحكومة السعودية ، كان فؤاد يتصل سراً بجريدتي « الشورى » التي كانت تصدر إذ ذاك في مصر،ويوافيها باسم مستعار بكل ما يراه لنفع فلسطين وجيلها الطالع،ثم كان يخاطر بمنصبه ويتتبع رحمه الله خطط ادارة المعارف الاستعمارية ويكشفها ويدبج للجريدة الفصول الطوال عنهـا ، وينبه الأمة اليهـا ، ويحذر الفلسطينيين من خطرها وسوء عواقبها ..

وقد بذل الانجليز في فلسطين وجواسيسهم في تلك الايام كل جهد لمعرفة اسم ذلك الكاتب المطلع تمام الاطلاع لينزلوا به شديد الأذى ، وأقله قطع رزقـه وحبسه ثم طرده من البلاد ..

ومنذ ٤٠ عاماً حتى الآن وأنا أكتم ذلك السر الذي تناسيته ثم نسيته ، إلى ان أيقظته أنت بمدوناتك الصادقة الرشيقة.

فمن هنا يمكن للسعوديين وغيرهم معرفة السبب الذي من أجله كان فؤاد محترماً

في البلاد السعودية ، وفي جميع الاوساط السياسية العربية الاخرى ، من رسمية ووطنية وشعبية ،حتى عند الساسة الاجانب ايضاً،ولم يعرف عنه ولا مرة واحدة انه أتى بعمـــل غير جدي أو بتصرف غير محترم ، ولذلك كان المرحوم الملك عبدالعزيز آل سعود يحب فؤاد حمـزة ويجله ويصغي اليه ويثق به ، ويعهد اليـه بالأمور الهامة ، وحل المشاكل الصعبة ، ولذلك فإنه يستحق التخليد في كتابكم الممتع « شبه العرب » كل الاستحقاق ، رحم الله الجميع ، وأطال في حياتكم .

أخوكم : محمد علي الطاهر

كيف عرفت فؤاد حمزة ؟ ولماذا أحببته ؟

سوف تضطرني الاجابة على حرفي الاستفهام أعلاه ، الى الحديث عن شيء ذي علاقة مباشرة في حوادث فلسطين المؤلمة ، تلك النكبة المحزنة المريرة التي طالما حرصت كل الحرص على عدم الحديث عنها لا جهلًا مني بمعرفة كنهها، وإنما لكونها من أتعس الذكريات التي شاهدتها بحياتي، ولئن كان كل عربي مخلص عندما يذكر تلك الكارثة سوف يشعر بلا شك بمزيد من وطأة الألم القامي والحسرة المرة،حتى ولو لم يشاهدها رؤية العين ، اذا كان الأمر كذلك بالنسبـة للعربي الذي لم ير تلك الكارثة عن كثب ، ولم ير هولها كشاهد عيان، إذن فكيف يكون انعكاس الفعل في نفسية عربي مرهف الحس جم العاطفـــة رأى الكارثة بعيني رأسه . ونظر الى ما حلّ باخوانه الفلسطينيين من المأساة التي داهمتهم فجأة ، وشاهد منظر اولئك اللاجئين الحزين ، ورأى كل فرد منهم هارباً بنفسه منفرداً ،شيوخاًوعجائز أطفالاً ونساء ثيبات وابكاراً ، كل من هؤلاء واولئك شردوا من بلادهم ، فظلوا هائمـين تائهين يغشاهم ذهول أفقدهم رشدهم ، فكأنهم سكارى وما هم بسكارى ولكن ظلم

الصهاينة وأعوانهم أفقدهم وعيهم ، فلا يعلم الشيخ ماذا حل بأبنائه ؟ ولا تعلم المرأة أين مصير بعلها ؟ أهو أسير ؟ أم قتيل ؟ أم جريح ؟ أم مشرد ؟ ولا يعلم الاطفال ولا الفتيات ماذا جرى لوالديهم ؟ أهم في عالم الأموات ؟ أم في غياهب سجون العدو؟[1] أم مشردون طريدون، أجل كيف يكون انعكاس الفعل في شعور العربي الذي رأى هذه المأساة كشاهد عيان ؟ وعاشها بآلامه وعلى اعصابه، بل وفي بعض الأحيان على عبراته ودموعه ؟ أجل كيف يكون احساس العربي ، ولا سيما الجندي المحارب ، الذي يشعر ان عار الهزيمة لصق به لا على يد رجال شجعان أكفا لا يعاب بهزيمتهم له كما يعاب على الهزيمة التي مني بها على يد أنذال جبناء كاليهود اولئك النفر الذين يعتبرهم كافة البشر أنهم أحط بني الانسان خلقاً. وأوضعهم نفساً وأجبنهم قلباً ، أعيد تكرار هذه المعاني مرة ومرات اخرى فأقول : كيف تكون الانفعالات النفسية في كيان من عاش هذه المآسي وشاهد تلك المصيبة المروعة . كجندي هزمه أحط خلق الله لا بفضل شجاعتهم ولكن بفضل تخاذل بني قومنا ليس إلا ان شعوري المرير من أثر تلك البلوى المؤلمة . هو الذي جعلني أرفض طلب الاستاذ (عارف العارف) صاحب كتاب (النكبة) حينما بعث الي عدة رسائل يطلب مني أن اوافيه بما لدي من معلومات عن (حرب فلسطين الفاشلة) ومن بين الرسائل التي جاءتني منه رسالة بواسطة السيد علي الصقير عندما كان قنصلاً للمملكة العربية السعودية في القدس ، فكان جوابي للاستاذ العارف يتضمن عدم رغبتي في الحديث عن هذا الموضوع الذي أرى ان الحديث عنه مزعج لشعوري . ومهيج لأعصابي .

وقد اكتفيت بأن بعثت له بأسماء الشهداء والجرحى من المتطوعين السعوديين، ثم بعد ذلك أعاد الاستاذ العارف مرة ثالثة طلبه بأن ابعث له صورتي الشمسية ،

---

١ – انظر كتاب المؤلف قالها الصهاينة وصدقها مغفلو العرب صفحة ٢٧ .

فأجبته معتذراً :

وبعد لئن اضطررت بأن أسهب في الكتابة في هذا الشأن فما ذلك إلا من أجل ان أصل الى الجواب على حرف الاستفهام الذي جاء في مقدمة العنوان الفرعي – كيف عرفت فؤاد حمزة .

فجوابي على ذلك هو أن معرفتي بفؤاد حمزه بدأت منذ عام ١٣٦٧ هـ وقد كانت المعرفة بسبب رسالة جاءتني من الملك السابق سعود عندما كان ولياً للعهد كجواب على رسالة حررتها له في ٢٨-٨ ١٣٦٧ هـ ولما كنت المؤسس لفوج المتطوعين السعوديين ايام حرب فلسطين الخاسرة، وضابط ارتباطه ومعاوناً لآمره فقد بعثت لولي العهد الامير سعود آنذاك الرسالة المشار الى تاريخها اعلاه ، والمتضمنة طلبي لما يلي :

١ – ان تتعهد الحكومة العربية السعودية بكفالة أطفال الشهداء من جميع المتطوعين السعوديين الذين استشهدوا في ميدان الجهاد المقدس كما تتعهد بكفالة وإعالة جميع السعوديين المجاهدين الذين اصيبوا في ميدان الحرب بأصابة اقعدتهم عن العمل واكتساب الرزق .

٢ – ينبغي على الحكومة السعودية بعدما تضع الحرب أوزارها أن تعتبر كل مواطن سعودي تطوع في حرب فلسطين جندياً نظامياً ضمن الجيش السعودي النظامي وان يمنح كل من نال رتبة مكتسبة في الجهاد رتبة زيادة على رتبته الاولى ..

٣ – رجوت الحكومة السعودية بعد أن تضع الحرب أوزارها أن تتعهد بالحج مجاناً وعلى نفقتها لجميع الضباط والقادة من جميع المجاهدين في جيش الانقاذ الذين أبلوا بلاء حسناً في الجهاد لا من السعوديين فحسب، بل من جميع المجاهدين من أي

بلد من البلدان العربية [1] .

وقد رد عليّ ولي العهد على رسالتي هذه بالجواب الذي يطيب لي أن أوافي القارىء بنصه الحرفي لفظاً ومعنى موضحاً كما يلي :

المملكة العربية السعودية
ديوان سمو ولي العهد

بسم الله الرحمن الرحيم

الرقم ... ٢٩٥٤٥
التاريخ ... ١٣٦٧/٩/٤
المشفوعات

من سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل الى المكرم فهد العارق سلمه الله
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، بعده وصل الينا كتابكم تاريخ ١٣٦٧/٨/٢٨ وعلمنا جميع ما ذكرتم بارك الله فيكم ونحن انشاء الله سنعمل كلما فيه ترغيبا للناس وخاصة رعايانا وحيثان فواد حمزة موجود الآن بطرفكم فانتم انشاء الله تتصلون فيه وتخبرونه بكلما يلزم نحو جمع رؤساء وضباط قوة الانقاذ وما هو عدد الراغبين فى ذلك وعن مسألة كفالة اطفال شهداء رعايانا وعن كيفية جمع الراغبين للانضمام الى قواتنا خاصة من رعايانا حتى يخبرنا فواد بما يلزم فى ذلك ونحن نقدر لكم اجتهادكم واخلاصكم هذا مالزم تعريفه والسلام،،

---

١ - اقولها للتاريخ وهو ان الحكومة العربية السعودية هي الحكومة الوحيدة من جميع الدول العربية التي تكفلت باعالة المصابين بعاهات اقعدتهم عن كسب العيش لا من رعاياها المجاهدين فحسب، بل حتى من المجاهدين اليوغسلافيين المسلمين الذين تطوعوا في حرب فلسطين ، فانها تصرف لهم مرتبات شهرية يستلمونها من السفارة السعودية في دمشق حتى يومنا هذا، كما ان الحكومة السعودية هي الحكومة العربية الوحيدة التي نظرت للمجاهدين من ابناء وطنها بعين الرعاية والعطف والتقدير الذي منحته لجيشها النظامي المحارب في فلسطين ، وذلك انها رفعت كل ذي رتبة من الضباط المجاهدين رتبة اضافية على رتبته الاولى ..





الرقم . . .
التاريخ ..
المشفوعات

من سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل الى جناب المكرم فهد المارق سلمه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد وصل الينا كتابكم تاريخ ١٣٦٨/٢/٤ وعلمنا ما ذكرتم بشأن انحلال جيش الإنقاذ ونحن باذلين الجهد فيما يختص بالجنود المنتسبين لحكومتنا وانشاء الله عن قريب تتم المسألة على ما يرام هذا ما لزم بيانه والسلام؟

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
ديوان سمو ولي العهد

الرقم ..... [illegible]
التاريخ [illegible]
المشفوعات ______

من سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل الى المكرم فهد المارق سلمه الله
السلام وبعد من قبيل ترفيع ضباط الفوج السعودي فنحن انشاء الله عند وصولهم
الى بلادنا سنرفع اصحا با لرتبة رتبة واحده يكون معلوما والسلام ،،

ولنعد الآن الى صميم الموضوع فأقول :

كان الأحرى أن أكتفي بالرسالة الأولى ذات العلاقة بما له صلة بالبحث الخاص باسباب معرفتي بفؤاد حمزة وأن اقف عند هذا الحد وانما هناك امر اضطرني على أن أضيف الى هذه الرسالة ، هاتين الرسالتين اللتين وجدهما القارىء آنفا وانني اذ اضيفها على الرسالة الأولى ذات الختم فإنما هو من أجل الأسباب الآتية : منها أن الرسالة الأولى كانت موقعة بختم الملك سعود السابق عندما كان ولياً للعهد ، ولئن كان الختم واضحاً وبينا في اصل الرسالة الموجودة عندي الآن فإنه لم يكن بارزاً بصورة واضحة في الكليشه المأخوذة عن الرسالة ، ومن المعلوم ان سعوداً عندما كان ولياً للعهد فإنه ظل يستعمل الختم حتى عام ١٣٦٨ هـ وبعد ذلك بدأ يستعمل الامضاء كما هو واضح في هاتين الرسالتين . وهذه أحـــد الأسباب التي الجأتني الى اضافة الرسالتين . وأما السبب الثاني فهو انه جاء في الرسالة رقم ٣٥ ٥٦ تاريخ ١٣ / ١٢ / ١٣٦٨ هـ . جواباً على رسالتي تاريخ ٤ / ٢ / ١٣٦٨ هـ وفي رسالتي هذا المعنى نفسه الذي جاء بالمادة رقم ٢ من رسالتي الاولى المشار اليها اعلاها أي انني طلبت ضمانة من الحكومة بأن تعتني برفاقي المجاهـــدين بالعناية نفسها التي تمنحها لجنودها ، وكان طلبي هذا بعـــد أن حلّ جيش المجاهدين المسمى وقتها « جيش الأنقاذ » ، وأما الرسالة الثانية رقم ٦٣٠٩ تاريخ ٣ / ٥ / ١٣٦٨ فإنهـا جاءت جواباً على رسالة بعثتها اليــه وهي تتضمن المعنى نفسه الذي ورد في الفقرة رقم ٢ من رسالتي الأولى السالفة الذكر الى التي تشير الى ترفيع كل ذي رتبة من اصحاب الرتب الى رتبة اضافية وفي الرسالة الواردة من ولي العهد ما يفيد بإنه أي ولي العهد موافق على طلبي بدليل العبارة التي جاء نصها الحرفي كما يلي « وبعد من قبل ترفيع ضباط الفوج السعودي فنحن أن شاء الله عند وصولهم الى بلادنا سنرفع اصحاب الرتب برتبة واحدة يكون معلوماً والسلام

وهناك ملاحظة اخرى وهي ما سيراه القارىء من تبديـل كنيتي التي وردت في جميع مكاتب ولي العهد بأسم فهـد المارق - بينما سيرى القارىء ان الكاف في

كنيتي حلت محل القاف الى المارك بدلاً من المارق - فالحقيقـــة هي ان كنيتي الأساسية هي المارق - لا المارك وهذا الاسم ليس غريباً بالنسبة للأسماء العربيـة وخاصة ذات الطابع البدوي . لأن المعنى من المارق أي النافذ والماضي وقد ذكر بن عبد ربه صاحب العقد الفريد أن هناك قبيلة يقال لها بنو مارقـه كما جاء من شعر البحتري يمدحه لأحد رجالات العرب كقوله :

نجيح مليح أخو مارق

يـــكاد يخبر بالغائب

أما لماذا غيرت الأسم من مارق الى مارك؟ فالسبب هو انني شعرت بأنه عندما أحضر بعض الاجتماعات ومن ثم يأتي بعض الاخوان ليقدمني باسمي الكامل أجـد هذا المقدم يخجل ويتردد عندما يحاول أن يلفظ الحرف الاخير أي المارق ولـكي لا احرج اخواني اضطررت أن أبدل القاف بالكاف . بحكم ان الحرفين قريبان من بعضها - وذلك في عام ١٣٧١ - ١٥٩١ - وكم كنت أتمنى انني بدلتــــه بالدال لـكي يحمل معنى من المعاني العربية - أما الكاف فإنه لا يحمل أي معنى.

ومن معاني هذه الرسالة التي فيها عبارة تشير الى أن اتصل بفؤاد حمزه من أجل تحقيق مطالبي السالفة الذكر ، من أجل ذلك ، بدأت معرفتي بفؤاد ..

هذا هو جوابي على حرف الاستفهام الاول ، أما جوابي على حرف الاستفهام الاخير والقائل : « ولماذا أحببت فؤاد » فالجواب على ذلك هو انني أحببته فعلاً من أجل الأمور الآتية :

منها انني عندما اتصلت به بشأن ان ابحث معه في الاشياء التي لها علاقة في تعهد

الحكومة لأطفال الشهداء الخ .. فانني قد وجدت الرجل ايجابياً وفعالاً وذلك انني ما أن عرضت عليه مطالبي التي جاء ذكرها في السياق ، فمجرد ما سمعها قام على الفور لا بتأييدي بمطالبي من الناحية النظرية ، بل أيدني عملياً حيث رفع من عنده رسالة للملك الراحل عبد العزيز رحمه الله ، طالباً فيها ارسال سيارات من المملكة لتأتي من أجل حمل الجرحى المجاهدين الى بلادهم ، وقد تم ذلك فعلاً وبوقت أقرب مما اتصوره حيث بعث الملك عبدالعزيز سيارات لحمل الجرحى الى المملكة واعالتهم كما وضع مرتبات شهرية تجري لهم الى يومنا هذا ..

هـذه احدى الأمور التي حببتني بفؤاد ، ومن الأمور الاخرى التي حببتني له هو انه بعد مضي مدة من خسارتنا للحرب في فلسطين ، بعـد ذلك بدأت أفكر طويلاً بالأعمال التي يمكن اذا قام فيها العرب ضد اليهود أن تؤدي الى نتيجة ولو لم يكن من شأنها الا اخلال أمنهم واحداث الاضطراب ، وازعاجهم . وبالتـــالي توقيف سيل المهاجرين اليهود القادمين من الخارج ـ اعتقاداً مني ان اليهودي الذي ينوي الهجرة الى فلسطين ، فانه سوف لا يقدم عليها فيما اذا شعر أن الامن مهدد وأن البلاد في حالة فوضى واضطراب بسبب نشاط المجاهدين العرب ..

وقد خمرت في ذهني هذه الفكرة الرامية الى قيام نخبة من الفتيان المغامرين الفلسطينيين على ان يكون العمل الذي يقوم به هؤلاء المغامرون يتضمن ادخـال الهلع والخوف والرعب في قلوب الصهاينة المعتدين ، من الأعمال الارهابية.

وقد هداني تفكيري هذا بان اتصلت بجماعة من خيرة اخوانـنا الفلسطينيين . وعلى رأسهم السيد سليم الحسيني الذي يقوم الآن بأعمال تجارية في المملكة. والمجاهد المعروف المدعو أبو ابراهيم الصغير ، ونفر آخرون منهم من توفى الى رحمـة الله

ومنهم من لا يزال على قيد الحياة .

وبعد أن تبادلنا الرأي في عدة جلسات مستمرة بعد ذلك خرجنا جميعاً بنتيجة واحدة وهي موافقتهم الرأي على فكرتي هذه من حيث المبدأ، كما أبدى لي الاخوان معرفتهم بكثير من الشباب الفدائيين الفلسطينيين الذين لديهم القدرة الكاملة على قيامهم وتنفيذهم لهذه المهمة خير قيام وإنما قال الرفاق ان هناك مشاكل كثيرة تحتاج إلى تذليل ، ولست هنا بصدد ذكر جميع المشاكل التي فكرنا انها ستكون حجر عثرة في سبيل تحقيق امنيتنا المنشودة وعلى كل فقد بدا لنا أن أهم تلك المشاكل الناحية الاقتصادية وهي قضية المال الذي نستطيع ان نوفره لتمويل الفدائيين ، ولإعالة أُسَر من يستشهد منهم ، وفي إحدى الجلسات الدورية التي داومنا عليها فترة من الوقت ، أبديت رأيي للرفاق على ان نذهب معا المرحوم فؤاد حمزة ، ونأخذ رأيه في الموضوع من ناحية ، ومن ناحية اخرى نستعين بجاهه عند الملك الراحل عبدالعزيز ، ووفقاً لهذا الرأي الذي اتفقنا عليه جميعاً ذهبنا معا لفؤاد حيث وجدناه في مزرعته الكائنة في الاشرفية - التي تبعد عن دمشق مقدار ثمانية كيلو مترات تقريباً. وبعد أن قدمت اليه الرفاق الذين لم يعرف منهم أحداً ما عدا سليم الحسيني الذي قال انه يعرف والده المرحوم السيد حسين الحسيني عندما كان رئيساً للبلدية في القدس ، بعد ذلك شرحنا له الغاية التي جئنا اليه من أجلها فكان الجواب منه على الفور الجملة التي أورد نصها الحرفي كما يلي (اعتقد ان النخوة العربية لم تمت في نفوس العرب الى الحد الذي يجعلهم يستسلمون بدون ان يبدوا أي شيء يقلق راحة اسرائيل) .

ثم أتبع هذه الكلمة بكلمات فهمنا من معانيها أن الرجل موافق على رأينا وانه

سوف يبذل جهده لتحقيق ما نصبو اليه .

وبعد هذه الكلمة التي قالها فؤاد أيقنا جميعاً أن الرجل سوف يبذل جهده عند المرحوم الملك عبدالعزيز ، ولما كان فؤاد موضع ثقة عند الملك الراحل ، وقل أن يذهب رأيه سدى ولا سيا في القضايا العربية . فقد أيقنا جميعاً أن الرجل سوف يتبع القول بالعمل . كما أيقنا بأن اهدافنا وآمالنا سوف تتحقق ولو بصورة محدودة. فذهبنا من عنده ونحن متفائلون خيراً في نجاح مهمتنا. ولكن القضاء والقدر حالا دون ما ينوى القيام به . وذلك ان الرجل عاجلته منيته بعد ذلك بمدة وجيزة رحمه الله وعفا عنه وعن كل مواطن مخلص .

هذه بعض الأمور التي أحببت إلي فؤاد حمزة. وهناك أمور لا أرى ما يدعو الى شرحها الآن وانما اكتفي بالاشارة الى ما عرفته عنه من المقدرة الكامنة على مواجهة الاحداث – وقد شاهدت منه ما أدهشني من ابتكاره للرأي السديد في حله لمعضلة سياسية لا يسعني ذكرها الآن، وأعظم شيء اعجبني منه خاصة بما له علاقة في كفاءته السياسية وبعد نظره . هو ثقته بنفسه بصورة تختلف كثيراً عما عرفته عن بعض من قدر لي ان أعمل معهم في الأمور السياسية ، فبينا أجد فؤاداً مثلاً لا يتوقف من أن يأخذ رأي من هو أقل منه منزلة و كفاءة في الأمور التي لم يكن ملماً بها كإلمام ذاك الذي أصغر منه ، ثم أجده بعدما يأخذ الرأي من هذا الذي كما ذكرت أقل منه كفاءة وعلماً ومنزلة ما عدا انه أعلم منه في الموضوع نفسه الذي أخذ به برأيه – أجده لا يخفي الامر فيما اذا جاءت مناسبة ما من ان يذكر بأنه استشار في رأيه ذلك الرجل – بينا أجد بعض من سنحت لي الظروف بأن اعمل معهم في حقل الاعمال السياسية أجدهم يأخذون

الرأي بمن هو أدنى منهم . ولكنهم عندما ينفذون الرأي الذي جاءهم عن غير مجهودهم ، أبعدهم لا يخجلون فيما اذا جاءت مناسبة ما ان ينكروا ويجحدوا الرأي الذي اقتبسوه ، لا بعدم حضور الرجل الذي هداهم الرأي فحسب ، بل حتى انهم ينكرونه بوجوده ، ولئن دل ذلك على شيء فانما يدل على ثقة المرحوم فؤاد بنفسه ، بقدر ما يدل على عدم ثقة النفر الآخرين بأنفسهم ..



شكر واعتراف بالجميل

أقل عتابي أيها العقل انني

مخلف قلبي عند من فضله عندي

انظر الصفحة التي بعد هذه



بما انني قد وضعت في هذا الجزء بالذات فصلاً خاصاً باصطناع المعروف والمكافأة عليه ، وذكرت بإحدى القصص ذات العلاقة بهذا الفصل الحكمة القائلة : « اذا كان اصطناع المعروف فرض كفاية فإن المكافأة عليه فرض عين » كما انني وضعت عنواناً للقصة رقم ٢٩ وصفحة ٢٢٩ في هذا الجزء وفي الفصل المذكور اعلاه جاء نصه كما يلي : « الفضل يملك الكريم وان قل » وقد ذكرت في صفحة ٢٢٣ العبارة الآتية : « والفضل في نظر الكرام جزء لا يتجزأ ، قليله كثير » وكما ان اعادة الدين المادي واجب شرعاً فإن المكافأة على المعروف واجب خلقاً وأدباً ومروءة وتلك ظاهرة أمر بتنفيذها محمد عليه الصلاة والسلام فقال : « من أسدى اليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا فادعوا له ومن معنى الحديث الشريف يبدو إن المكافأة على المعروف من اوجب الواجبات.

لما كنت اعتقد بصواب هذا المبدأ أو اؤمن به كإيماني بالحق - كما انني اعتقد ايضاً إن أدنى مراحل المكافأة على المعروف هو اعلان الشكر لمسديه ، فإنني أرى لزاماً عليّ بأن اعلن شكري في حقل شيم العرب الخالدة لشخص غمر كياني بمعروفه من دون ان يكون له أقل حاجـــة بمكافأتي له . وأعني به ذلك الرجل الذي لا أريد ان أنعته بما ينعت به من صفات ذات طابـع رسمي ، لأنه هو نفسه يعتبر هذه النعوت دخيلة على عاداتنا وتقاليدنا وقد قال عنها في احدى خطبه : لسنا بالملوك ولا بالأباطرة . كما قال في مناسبة اخرى : « انني حينما اسمع كلمة صاحب

الجلالة أو الجالس على العرش فإنني أتأثر من ذلك أشد التأثير ، ومما لا شك فيه بأن رجلاً كفيصل بن عبد العزيز آل سعود لا يقيم لمثل هـــذه النعوت وزناً .

هذا الرجل الذي لو لم يكن له علي من اليد البيضـاء إلا انه هيأ لي الاسباب ووفر لي الوسائل التي ساعدتني على ابراز « شيم العرب » من طي النسيان الى عالم الخلود .

•

ففيصل هو الوحيد بعد الله الذي وفر لدي عاملين مهمين في الحيـاة وهما البلغة ، والأمـان ، وهذان العاملان هما من أهم الاسباب التي ضمنت لديّ الاستقرار الفكري .

* * *

ومن بدهيات الأمور ان الكاتب مهما توفرت لديه ملكة الكتابة ، ومهما إتسعت مداركه ونمت مواهبـــه فإنه لا يستطيع ان ينتج ما لم يتوفر لديـه من الناحيـــة الاقتصادية الشيء الذي يقوم بأوده . كمـا يتوفر لديه من الناحية المعنوية الاطمئنان النفسي والاستقرار الفكري .

ولئن كان فيصل وفر لديّ هذه المعاني فإن ما اسداه إلي من معروف لم يكن محصوراً في هاتين الناحيتين فحسب – بل هناك أمور ليست بأقل أهمية مما ذكرت– فمنها ما لا يسعني شرحه . ومنها ما اكتفى بالاشارة اليها بما يلي :

أولاً أن محترفي الوشاية في فترة من الفترات لم يدخروا وسعـــاً في نيلهم من عرضي بشتى الاتهامات ومختلف الأباطيل التي كانت مصدراً لجاههم الزائف .

وكانت تلك الافتراءات تشبه الى حد بعيد ما قاله معروف الرصافي

« وأبشع الكذب عندي ما يمازجه » * شيء من الصدق تمويهاً على الفكر

ولكن تلك الأكاذيب المموهة التي خدع بها الواشون « المغفلين » — كانت تتفتت على عقل فيصل الكبير الذي يميز الخبيث من الطيب .

ثانياً — هو انني لا استطيع أن أنكر بأنني امرؤ صريح صراحة من شأنها ان تجعل أي واش لاذمة له أن يتخذ من صراحتي هـذه سلاحاً يصيب به مقتلا مني بكل سهولة ، وكنت على يقين من العلم بأن الوشاة لم يدخروا وسعاً عند المسئولين من تحريف الكلم وقلب الحقائق ما أمكنهم الى ذلك سبيلا ، ولكن جميع ما يحوكه الدساسون . وما يفتريه الواشون . كل من هذا وذاك يتجمع وينمو حتى اذا ظن أهله انهم قادرون على نفث سمومهم القاتلة ، ومن ثم وصلت تلك الدسائس الى الفيصل عند ذلك اجدها تتلاشى وتذوب كما يذوب الملح في الماء .

ثالثاً — هو انني مبتلي باعتناق المذهب القائل بأن المؤمن بحقيقة مـا ، لا يكمل إيمانه حتى يكون لديه من الشجاعة ما يجعله يعلن ما يؤمن به ، وكان ايماني بهذا المذهب يضطرني بأن اعلن رأيي احياناً شفهياً وتارة كتابياً لا في مؤلفاتي ولا في المقالات التي انشرها في صحف بلادنا فحسب ، لا لم اكتف في هذه الناحية بل اعلن ذلك لفيصل بالذات . بل واعظم من ذلك هو أن المقال الذي تتوقف الصحف عن نشره ، أذهب به وأسلمه لفيصل من بدي ليده .

وكم كنت في كثير من الأحيان اناجي نفسي بالنـدم على ما يبدو مني سواء من صراحتي الشفهية أمام فيصل وعلى مسمع منه أو الكتابية ، بل كم كنت اتوقع رد الفعل المباشر من فيصل ولا سيما عندمـا أنظر

الى منزلي كموظف بسيط ، يعلن رأيه بكل صراحة أمام أكبر مسؤول في الدولة بدون أن اعلم مـاذا الاقيه منه ومن ثم تتضاعف مخاوفي حينما اذكر ما ينسبه عني لا محترفو الوشاية فقط ، ولا اعدائي الحاقدون فحسب، بل حتى ضعفاء النفوس من ذوى القربى الحاسدين ، فكل من هـؤلاء واولئك تتجمع سيوفهم الماضية وقنابلهم المدمرة وسهامهم القاتـلة ومن ثم تتخذني هدفاً لها . وكان الأحرى انـه لو اخطأني الواشون بسيوفهم لم يخطئني الأعداء الحـاقدون بقنابلهم . ولو أخطأني هؤلاء وأولئـك . لم يخطئني الحاسدون بسهامهم . ولكن هذه الاسلحة الفتاكة التي التقت على صعيد واحد وليس لها أي هدف اللهم إلا سحقي وتمزيقي إربا - كلها تندحر وتتحطم وتحترق من نفسها على نفسها أمام حلم وعقل ذلك الحصن المنيع ألا وهو فيصل بن عبد العزيز - الذي وهبه الله عقلاً ارجح من أن يخدعه الواشون وقلباً امنع من أن يغرر به الحاقدون ، وحلماً أفسح من أن يستفزه الحاسدون .

* * *

وبعد ، فإنني انتهز هذه المناسبة لأشير الى الحوار الذي دار بيني وبين شخص ما - وكان معنى الحديث الذي وجهه الي هذا الشخص يفهم منه ان ما اعلنته من الشكر السالف الذكر . إنما هو على رأي صاحبي ليس الا استهلاكا محلياً فقط ، الأمر الذي جعله يوجه اليّ السؤال التالي :

« الست مواطناً سعودياً جنسية وولادة .

قلت :

- بلى .

فقال :

ـ أليس لديك من القدرة والكفاءة مـــا يجعل حكومة وطنك تسند اليك عملاً يتناسب وكفاءتك العلمية ومواهبك الفطرية ؟

قلت :

ـ اما من حيث كفاءتي العلمية فانني لم احمل شهـادة عالية بل وحتى الشهادة التوجيهية لم أنلها . والسبب هو انني قطعت دراستي الثانوية وذهبت متطوعاً ايام حوادث فلسطين ، وبعـد أن وضعت تلك الحرب الخاسرة أوزارها شئت أن أعود لأكمل دراستي . ولكن الذي حصل هو أن حكومة وطني كلفتني القيام بمهمة ما يطول شرحها .

فظننت انه بالإمكان أن انهي مهمتي بوقت قصير ثم اعود لمواصـــلة دراستي . ولكن ظني كان خاطئاً . فكانت النتيجة ان باشرت الحياة العملية . وانقطعت عن مواصلة دراستي الرسميـــة ، دون أن اقطـع استمراري بدراستي الخاصة الى يومنا هذا ، وعلى هذا الاساس لا استطيـع ان اقول لك لدي شهادة علمية بمفهومها العام فيما اذا كانت الكفاءآت محصورة على الشهادة المدرسية .

فقال صاحبي .

ـ اليس لديك مواهب فطرية وتجارب عملية .

قلت :

ـ لا استطيـع ان اجيبك على ذالك .

قال :

ـ ولماذا ؟

قلت :

– لو وجهت مثل هذا السؤال الى أبله الناس لما إعترف على نفسه بأنه مجرد من الموهبة والتجارب .

قال :

– ولكن الذي أعتقده بل والذي دلتني عليه تجاربي الطويلة هو أن الحاكم العادل قد يرحم مواطنيه ويعطف عليهم . ويضع للعجزة والأيتام والارامل معونة تكفل لهم عيشة هنيئة كمواطنين . ولكنه لا يسند الى أي مواطن ادنى عمل من اعمال الدولة ما لم يكن لديه من الامكانيات والكفاءة الرصيد الذي يخوله ان يقوم بالاعمال التي تسند اليه خير قيام

قلت :

– هذه ظاهرة محسوسة .

فقال :

– معناه أن حكومتك عندما اسندت اليك العمل الذي تتقاضى بموجبه راتبا يعينك على نوائب الدهر ويضمن لك الاستقرار الفكري والاطمئنان النفسي ، معنى هذا انه لديك من الموهبة والخبرة ما يتناسب مع عملك الذي اسند اليك .

فقلت :

– هذا شيء ينبغي ان تسأل عنه اصحاب الشأن من المسؤولين .

فقال :

هذا شيء مفروغ منه ولا يحتاج الى سؤال وذلك ان المواطن في

كنف الحكومة العادلة إما ان يكون عاجزاً فتضمن له الحكومة العناية والرعاية التي تقوم بأوده - واما أن يكون قادراً على ان يعمل فتهيء له حكومة وطنه عملا يتناسب وكفاءته .
قلت :

- كلامك مقنع وحجتك بالغة ومنطقك وجيه .

وما أن سمع مني صاحبي هذه العبارات حتى قام بحركات تعبر عما يختلج في نفس صاحبها بأنه بلغ القمة من انتصاره الجدلي وانه استطاع ان يقيم عليّ الحجة عندما قال :

- ما دام الامر كذلك فإنني لا أرى ما يدعو الى اعلان شكرك لحاكم عادل كفيصل لانه عندما آزرك نظر لمصلحة الدولة قبل ان ينظر بعين الاعتبار لمصلحتك كفرد . وهذا ما يجعلني اعتقد جازما بأنه لو لم يعلم عنك الكفاءة لما اسند اليك ادنى عمل .

وما ان انتهى صاحبي من عبارته هذه حتى اجبته على الفور فقلت :

- عليك ان تدرك بأنني لم أعلن شكري لفيصل من أجل ما أشرت اليه ، لا ليس من أجل ذلك فهذا شيء لا أجهل مفهومه وكنه بأنني كمواطن من حقي أن أخدم وطني وحكومته بكل أمانة واخلاص.ومن عدل حكومتي أن لا تحرمني من هذا الحق .

إذن فيكون اعترافي بجميل فيصل ومجاهرتي بشكره شفاهياً وكتابياً، مبنيين على ما يلي :

أولاً - ان هناك « أولاد حلال » بذلوا كل ما لديهم من المكيدة والدس الرخيص . بل والتزوير حتى وصلوا مرحلة جمدوا فيها مرتبتي ، ومرتبي الشهري مدة بلغت اربع سنوات متوالية بأساليب أربأ بنفسي

عن ذكرها وذكر أسمائهم ،وكان لدي فيصل وقتها من القيام بالاسفار الى الخارج ومسئوليته بأعباء المهام الكبار مـــا يحول بيني وبين الاتصـال به ورفع أمري اليه، اللهم إلا بفترات متقطعة ، ولكنه مـا ان استقر في البلاد وتولى رئاسة الوزارة وولاية العهد حتى كان من عدله وانصافه ان مزق ستار البـاطل المموه ببصيرته النافذة وأعاد إليّ اعتبـاري لا باعادة رتبتي فحسب بل انه أمر بصرف مرتبـــاتي جميعها الموقوفـة في خلال السنوات الاربـع .

وكان بإمكانه ان يقول : ما دام ان هناك أمراً يزعم اولاد الحلال « المفترون » انه صادر من والده الملك الراحـل برقم وتاريخ يشير على حد زعم المزورين بإلغاء أمر والده الاول الخاص بتعييني براتب ورتبة وينص هذا الأمر الاخير « وان لم يكن فيه لا ختم الملك رحمه الله ولا امضاؤه » ينص على إلغاء راتبي وقطع مرتبي الشهري .

أجل .. كان بإمكان فيصل ان يفعل ذلك ولكن عقله الكبير جعـــله يكشف الحقيقة ويزيح الستار عن تزوير المزورين ويعيـــد الحق الى نصابـه . .

ثانياً - جاءت فترة بعد وفاة الملك الراحل يتحدد تاريخها منذ عام ١٣٧٤ هـ ١٩٥٤ الى آخر٣٧٧-واول١٩٥٨م ففي هذه الفترة بالذات راجت بضاعة الوشاة عندنارواجاً مخيفاً فأصابتني سهامهم عند«ملك البلاد في تلك الفترة» فكان من نتيجة ذلك أن أمر بتوقيف راتبي وقطع المخصص الذي كان يجري لي بأمر من والده ، الملك عبد العزيز رحمه الله ، ولئن كان ذلك المخصص ضئيلاً . ولكنه كان أكبر شيء استعنت به على فاقتي وذلك عندما حسم راتبي في الفترة الاولى السالفة الذكر – أما وقد حسم هذا المخصص والراتب معاً فانني قد بلغت من الفاقة ما الله اعلم به ، وقد ظللت فترة من الوقت لا مورد لي . وذلك في عامي ١٣٧٦ هـ و ١٣٧٧ . وكان فيصل وقتها يتعالج في امريكا – وبعد أن بلغت بي الحاجة الذروة تشفع لي عند الملك وزير المالية حينذاك

الشيخ محمد سرور الصبان الذي كان لشفاعته ، جزاه الله عني خيراً ، اثرها المحسوس بشكل جعل الملك يبدل رأيه الى حد ما ، حيث أمر بصرف مرتبي . وفي الوقت ذاته أمر بأن ينقل عملي من السفارة العربية السعودية في دمشق الى المركز العام في وزارة الخارجية بجده .

وبعد فترة قصيرة أمر أن أنقل الى المفوضية السعودية في صنعاء كما أمر أن يكون حسم مخصصي ساري المفعول .

وكنت أتمنى فيما لو خيرت بين أن يبقى مخصصي على ما كان عليه يجري صرفه لي على أن أظل عند أبنائي وبين استمرار راتب الوظيفة على أن أذهب الى اليمن . أقول لو خيرت بين هذا وذاك لأخترت بقاء مخصصي على ضآلته ولم أذهب الى صنعاء حتى ولو كان راتب الوظيفة يزيد اربعة أضعاف عن المخصص ، ولكن القضية لم يؤخذ بها رأيي كما لم يقصد فيها رضائي واطمئناني .

وهكذا ذهبت الى اليمن السعيد ، وقبـــل أن أقضي فترة تستحق الذكر قبل ذلك أصابتني نوبة قلبية كادت تقضي على حياتي .

وكان من حسن الحظ أن الفيصل العادل قد استلم السلطة وذلك في آخر عام ١٣٧٧ هـ ١٩٥٨ م وعلى الفور أبرق الرجل الطيب الشيخ محمد ابن عبيكان الذي كان وزيراً مفوضاً هناك برقية الى وزارة الخارجية في جدة يطلب مأذونية لي بالعودة موضحاً فيها شدة النوبة التي ألمت بي .

ولما كان المرض الذي فوجئت به خطراً للغـــاية فقد عدت الى البلاد بدون أن انتظر رد الجواب من وزارة الخارجية .

وما أن وصلت جده حتى أبرقت لفيصل برقية شرحت فيها له مـــا أصابني من المرض الخطير ، كما طلبت منه أن يسمح لي بالسفر الى اوروبا لكي أبادر الى معالجة ذلك المرض قبل أن يستفحل امره . والى القاريء صورة البرقية التي جاءت جواباً من الفيصل على برقيتي :

برقية الإ[illegible]

نمرة ذو التاريخ

ادارة برقيات المملكة العربية السعودية

رقم التسلسل

دقيقة	ساعة	تاريخ افرنجي	تاريخ عربي	الكلمات	النمرة	المورد	المخرج
							الى

دقيقة	ساعة	المأمور المرسل	المأمور الآخذ	تاريخ عربي	الطريق	الاشارة

جلالة الملك [illegible]

[illegible] لا [illegible] بأس [illegible]

[illegible] لكم بالشفاء [illegible] بأس [illegible]

الى أوروبا [illegible] فيصل

وقد كان لهذه البرقية الرقيقة في نفسي أعمق الأثر لا لما تعبر عنه من تواضع وخلق أصيل في نفسية مرسلها فحسب - بل لأنني عندما أبرقت برقيتي لفيصل كنت لا أعلم ماذا يأتيني من الجواب فتارة أتوقع أن الجواب سوف يأتيني بعبارة تحمل التأنيب على مجيئي من صنعاء بدون اذنه وطوراً يخيل اليَّ أن الجواب سوف يأتي بعبارة تشير بأن أذهب اولاً لصنعاء ثم بعد ذلك استأذن من هناك . وكنت متخذاً قراراً في خبايا نفسي بأنه إذا جاء الرد على النحو الاخير بأن استقيل من الوظيفة لا أن أعود الى صنعاء لأنني اعتقدت بأن عودتي اليها وأنا اعاني ذلك المرض الشديد . يعني اقدامي على الانتحار.

ولكن كان الجواب من الفيصل علاجاً تاماً لذلك المرض الذي اعتقد جازماً ان سببه ومسبباته حصلت من تأثير الانزعاج النفسي الذي اصابني بسبب ما ابتليت به من كيد الواشين ودسائس الدساسين .

وقد ذهبت الى المانيا متعالجاً على حساب الدولة حسب الأنظمة المرعية. وبفضل برقية الفيصل التي استندت اليها لدى الجهات المختصة ، وبعد أن قضيت في اوروبا ما يقارب الشهرين - قضيتها بين الاطباء والمستشفيات واكثر هذه المدة في المانيا ، بعد ذلك عدت حاملاً معي تقريراً طبياً من الطبيب « تشاد » وقد شخص ذلك الطبيب مرضي . وأكد عدم وجود المقاومة الصحية لدي في أي جو مرتفع كصنعاء وما ان رفعت وزارة الخارجية رأي الطبيب للفيصل حتى جاءت برقية منه تنص على ان انقل الى الجهة التي تلائم وضعي الصحي ، والبرقية تحمل هذه المعاني الرقيقة لا استطيع ان ابرز كليشه عنها كالأولى لأنها موجهة لوزارة الخارجية .

وحسب أمر الفيصل عرض عليَّ وكيل وزارة الخارجية الدائم والحالي السيد عمر السقاف عرض علي عدة ممثليات عربية ومن جملتها « ليبيا » فاخترت

ليبيا حيث ظللت فيها حتى أصابني مرض الربو الذي يتنافى والجو الرطب كتلك البلاد .

والملاحظة التي أجدني ملزماً بالاشارة اليها هي انني قبل أن أذهب الى ليبيا أشار عليّ صديقي الوفي الأخ عبدالله السعد بأن أراجع الفيصل بشأن صرف (مخصصي) مؤكداً بأن الفيصل كبر منه لوالده أمر بكل شيء يجري لأصحابه بأمر والده ـ ووفقاً لنصيحة الأخ السعد راجعت الفيصل بذلك فطلب مني أن اقدم له دليلا ملحوظاً يثبت أمر والده فذهبت وعدت اليه مستصحباً وثيقة تحمل رقم وتاريخ أمر والده بذلك ، فما كان من عدله من ناحية وبره بوالده من ناحية اخرى إلا أن نفذ أمر والده فأمر بصرف معظم مخصصاتي المقطوعة منذ تلك الفترة التي سعى الواشون بحسمها .كما أمر باستمرارها

بعدما أسمعت صاحبي هذه الحقائق قلت له :

ـ أليس بإمكان فيصل ان يقول ما دام ان الأمر بنقلي من اليمن صادر من اخيه أي الملك السابق فإنه ليس مسؤلاً عما اصابني من المرض الخطير الذي أهم ما يهم الوشاة ان يقضي هذا المرض على حياتي .

ـ نعم كان بإمكان فيصل ان يتركني وشأني اواجه احد الامرين : امـا ان اهرب من اليمن واهرب ايضاً من الوظيفة بـل وقد اهجر البلاد واهلها لا جفاء مني لوطني ولكن كما قال الشاعر :

لا تحسبوا بغضي الاوطان من ملل
لا بـــد للود والبغضاء من سبب

قل وذل وخذلان وضيم عـــدى
مقام مثلي على هذا من العجب

او ان ابقى في اليمن ليفتك بي المرض حتى الاقي حتفي – ولكن وجدان فيصل العامر بالعدل والمليء بالإنصاف أبى إلا ان يأخـذ بيدي وينقذني من مواجهة المشكلتين السالفتي الذكر اللتين كنت على وشك ان لا انجو من الاصطدام بواحدة منهما

وإذا اعـدت النظر كرة اخرى في اعادة مخصصي طاب لي ايضاً ان اقول :

أليس بإمكان فيصل ان ينأى بجانبه عن اعادة مخصصي ولديه من العذر ما يجعله يقول ما دام ان الامر بقطعـه صادر ممن هو اكبر مني فإنني والحالة هذه لست مسؤلا عنه .

طبعاً كان بإمكان فيصل ان يقول ذلك . ولكن انصافاً منه للحق وعلماً منه بأباطيـل الوشاة ، وبراً منه بوالده ، كل ذلك جعله ينقض كلما ابرمـه الواشون .

ثالثاً مرت البلاد في محنة شديدة ابتدأت منذ عام ١٩٦١ حتى عام ١٩٦٣ أي منذ حين انفصال سورية عن الجمهورية العربية المتحدة الى مؤتمر القمة العربي الاول ففي خلال تلك الفترة العصيبة التي خير اسم ارى انه ينطبق عليها هو اسم ازمة الضمير ، في تلك الايام السيئة كثر الهرج والمرج . واختلط الحابل بالنابل وانقلبت المقاييس واصبح مقياس الاخلاص والوطنية في نظر نفر مـا هو القدرة على ما تبديه العواطف من تملق وتزييف ، واصبح المرء الذي لا يساير هذه الموجة العارمة عرضة لاتهام المتهمين وهدفاً لسهام الواشين .

إذن ما هو يا ترى مصير من يخالف ذلك الخلق المنحرف بكتاباته وبأقواله وبافعاله وبسلوكه وبجميع تصرفاته بصورة صريحة وعلانية .

وإذا شئت ان اعبر للقارىء بصورة اوضح واصرح ، قلت : ما هو يا ترى مصير بل عقاب المرء الذي يعارض ذلك التيار بل ويقاومه بكل ما أوتي من القوة . وهو في الوقت ذاته مبتلى بأعداء جهلة حقودين ووشاة مرتزقين يرون ان لا يقوم بجدهم إلا في الوقت الذي يستطيعون به ان يشككوا المسؤولين باخلاص كل مواطن أبيّ مخلص لوطنه ولحكومته حتى ولو كان هذا التشكيك لا يتم إلا على حساب اضرام نار العداوة والحقد بين المسؤولين المخلصين للوطن وللمواطنين « الذين هم جزء منهم » وبين المواطنين الأباة الاوفياء لوطنهم ولحكامهم اقول حتى ولو كان الامر لا يتم إلا على هذه الطريقة فإنه لا يهم الوشاة ذلك بقدر ما يهمهم الكسب المعنوي والمادي الذي ينالونه من وراء مساعيهم الوخيمة العاقبة على الوطن وأهله .

اجل يا اخي كيف ينجو ويسلم مواطن ككاتب هذه الاسطر الذي يتربص به هؤلاء الواشون الدوائر ويحصون عليه زلاته ، ويحسبون عليه عثراته فإن نجا من اتهاماتهم القبلية والعنصرية . فإنه لا ينجو من اتهاماتهم الفكرية والسياسية .

وهكذا كان المفروض ان اذهب ضحية رخيصة لدس الدساسين ولافتراءآت المفترين . لولا عناية الله ثم وجود الفيصل الذي كان عقله خير شافع لحمايتي . وادراكه اعظم حصانة لوقايتي ، وفهمه اكبر عون لاطمئناني .

وبعد فقد تحديت صاحبي الذي عارض رأيي في بداية الأمر قائلا له :

« هب نفسك بمنزلتي وافترض انك ابتليت بجميع الظروف التي ابتليت بها انا واعتبر أن الوشاة والأعداء والحاسدين تكالبوا عليك وكل من هؤلاء وأولئك ارادوا سحقك من عالم الوجود بالأسلوب نفسه الذي اتخذوه نحوي وفي الحين الذي شعرت انك على جرف هاوٍ في تلك اللحظة الحاسمة يسر

لك الله رجلاً كفيصل يتصدى لكبح كيد أولئك الدسانسين ويعد نفسه لحمايتك ويذود عن كيانك بل ويضمن لك الطمأنينة ويوفر لك السعادة ، وهو في الحين ذاته ليس بحاجة الى وفدك كما انه لا يخشى ضررك - فقل لي بربك الا ترى انه من الوفاء بل الواجب الخلقي مكافأة من يقف معك مواقف كهذه . ولو لم يكن من هذه المكافأة الا اعلان الشكر الذي هو كما اسلفت بإنه ادنى مراحل المكافأة وأقل مـا يمكن للمكافىء ان يقوم به ، عندما وجهت لصاحبي المعارض هذه الجمل قلت له :

- اجبني على ذلك .

فأجابني بقوله :

- بلغني عنك انك عصبي المزاج ، وهذا مما يجعلني أتردد في اجابتك على ذلك بجملة قد تثير اعصابك فيما لو اسمعتك إياها .

قلت : قد يكون فيما بلغك عني شيء من الحقيقة ولكن التجـارب جعلت مني انساناً احتمل الشيء الذي لم يكن من خلقي احتماله خاصـة اذا كان هذا الشيء صادرا من النوع الذي لا يعتبر احتمالي له جبناً وضعفاً بقدر ما يعتبر تسامحاً وعفواً .

فقال صاحبي : اذن اسمح لي ان أقول : ما دمت معترفا لفيصل بهذا الجميل الذي تدعمه بالأدلة والوثائق . ما دام الأمر كذلك لماذا لم يأت اعلان شكرك له الا بهذا الظرف بالذات .

قلت : ان اعتراضك هذا وان يكن فيه شيء من اتهامي بالتزلف ما يثير الاعصاب حقا ، ولكن لا استطيع الا أن اقول انه اعتراض وجيـه ، ولذلك لا يسعني الا أن أجيبك على ذلك بادلة منها ما هو من صميم تاريخنا

العربي والاسلامي ، ومنها ما هو من وحي تاريخ عصرنا القريب الحديث وعليّ ان اجيبك أولاً بما استند اليه بالأدلة الناصعة من تاريخنا العربي العريق فأقول : لقد اعطانا نبينا محمد عليه الصلاة والسلام درساً كافياً في اسلوب دعوته الإنسانية . وارشدنا الى الطريق السوي وجعلنا نتخذ منه قدوة في مراحل كفاحه ونضاله فنجده مثلا لم يأمره ربه باعلان ثلاثة اركان من اركان الدين الاسلامي الهامة كالزكاة والصوم والحج ، هذه القواعد التي لا يعتبر المسلم مسلماً حتى يؤمن بها نجد الرسول محمداً لم يصدع بها الا بعد مضي عشر سنوات ونيف من تاريخ رسالته ، وذلك عندما اصبح للاسلام من المناعة القدر الذي يحميه من كيد الكائدين ، فإذا كان محمد عليه السلام وهو يسير بوحي من ربه لم يعلن ثلاثة اركان الاسلام الا بعد ما اتيحت له الفرصة التي أمر باعلانها ، فإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للنبي الذي ينزل عليه الوحي من ربه ، فإنه من بدهيات الامور والحالة هذه ان لا تلومني فيما اذا وجدتني لم اعلن شكري لفيصل الا في هذه الفترة . إذ لو فعلت ذلك في الفترة التي كانت قوى الشر كلها متجهة نحوي فمعنى هذا انني اعطيت الوشاة سلاحاً يقتلونني به بكل سهولة وعندها أكون خالفت تعاليم وهدى شريعتنا الاسلامية القائمة على القاعدة القائلة « دفع المفاسد مقدم على جلب المصالح » – وبعد فإن هذا جوابي الذي استمده من تاريخنا العربي والاسلامي – اما جوابي الذي استشهد به من منطق عصرنا الحديث كدليل واضح المعالم ، وهو ما استدل بـه خروتشوف كجواب منـــه على سؤال احد الشباب الروسي ، وذلـــك في المناسبة الآتي شرحها .

عندما عقد المؤتمر الشيوعي احدى جلساته في عهد ما وأظنه اذا لم تخني الـــذاكرة في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي ، ففي ذالك المؤتمر بدأ خروتشوف يهاجم ستالين وينال منه بعنف . فقام احد الجالسين وقدم ورقة وكتب عليها الجمل الاتية – لماذا لم تهاجم ستالين في حياتـه وايام

قوته – وكانت الورقة بدون توقيع صاحبها – او قد تكون بامضاء مستعار ، فقرأ الورقة خروتشوف علانية حسب الاصول المرعية في تقديم سؤال كهذا – وبعد ان أسمعها جميع من حضر في المؤتمر – عند ذلك سأل عن الذي قدم الورقة وطلب منه باسلوب التحدي بان يعلن اسمه بصورة صريحة ، ولما لم يستطع مقدم الورقة ان يتجاهر باعلان اسمه خوفاً من العقاب عند ذلك انحرف خروتشوف الى من في المؤتمر وقال:

ان السبب الذي منعني من ان أنقد ستالين في حياته هو السبب نفسه الذي منع صاحب الورقة المقدمة اليّ بهذا السؤال بأن يعلن اسمه امامي .

* * *

هذا وانني عندما أدليت بهذه الأدلة لصاحبي كجواب مني على سؤاله بعد ذلك قلت له :

– هل بقي لديك سؤال آخر توجهه اليّ أو معارضة تنقدني بها ؟ فقال : كلا – فقلت : أقنعت الآن ؟ فقال : ان حججك كلها معقولة ومنطقية وقد يقنع الانسان بمنطق ما عندما يجده واقعياً كمنطقك هذا ثم مضى صاحبي مسترسلاً بحديثه الى ان قال : ولكن لا يفوتك الانتباه الى ان الاقناع شيء والإيمان شيء آخر .

قلت : يهمني ان اقيم عليك الحجة بالإقناع وان أفند معارضتك بالمنطق ، فإن آمنت فبها وان لم تؤمن فإنك لم تكن أول من أقيمت عليه الحجة والبرهان

فآمن بعقله ولم يؤمن بقلبه .

فابتسم صاحبي وأومأ برأسه كعلامة الاقتناع بما قلت دون ان أعلم عنه هل اضاف الى قناعته بعقله إيماناً بقلبه أم لا ؟ ثم قام صاحبي بعد ذلك من عندي مودعاً وقبل ان يفوه بكلمة الوداع قال :

يجب ان تدرك وتثق بأن ما تكتبه اليوم سيظل سجلًا تاريخياً الى الأبد ، وان ما يبدو لك ولنا اليوم من الأدلة التي اوردتها الآن وهي أدلة لا شك بأنها منطقية ومقنعة بالنسبة لمفهومنا الحالي . أو الأحرى بالنسبة للظروف الراهنة التي نعيشها سوياً . ولكنها قد لا تكون منطقية ومقنعة في مفهوم الاجيال القادمة ، وما تعتقده ونعتقده نحن معك بأن ما قد نراه اليوم بأنه حجة لك بصورة لا تقبل الجدل .. فإنه قد يكون حجة عليك في الغد ..

قال صاحبي هذه الكلمة ومد يده قائلًا كلمة الوداع ، ولكنني قبل ان ارد عليه تحيته الوداعية اجبته على كلمته الاخيرة قائلًا :

– يهمني الآن ان اسجل شيم العرب التي كان لي الشرف ان قدمت منها لناطقي الضاد حتى الآن اربعة اجزاء تضم مائة وسبعاً وخمسين قصة مختلفة باختلاف فصولها البالغة ستة عشر فصلًا من بينها الوفاء والامانة واصطناع المعروف والمكافأة عليه الخ... وليس لي غاية من وراء ذلك سوى ان يستمر الوفي في وفائه وان يمضي الامين بأمانته وان يسير صانع المعروف بمعروفه ، لكي يكون ثمة تنافس على القيام بمثل هذه القيم .

ثم مضيت بأجابتي لصاحبي فقلت :

- اما اذا جاء عهد تنقلب فيـــه المقاييس الى الحد الذي ينظر فيه الى المرء الذي يؤمن بهذه القيم نظرة ازدراء . فانني افضل ان يتهمني رجاله بما يشاءون وأن يحكموا علي بما يريدون أفضل ذلك وانا مؤمن بقيمنا العربية على أن أعيش في عهد يتنكر أهله لمثل هذه الاخـلاق العربية العريقة

قلت هذه الجمل ثم مددت يدي مصافحاً لصاحبي ومودعاً له ..

إنتهى الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث

الفهرس

استدراك

على الرغم من الجهود التي بذلت دون وقوع بعض الغلطات المطبعية. وعلى الرغم من وضع جدول موضحاً فيه الخطأ والصواب ، فقد وقع بعض الغلطات المطبعية الجزئية التي لا تخفى على القارىء الكريم ، وكان ضيق وقت المؤلف المحصور باجازته الادارية من اهم الاشياء التي قضت بعدم وجود الوقت الكافي لتصحيح كتاب كهذا الكتاب البالغ صفحاته ما يزيد عن لف صفحة ونيف والشيء الذي استرعي كريم انتباه القارىء اليه هو ان الكثير من الغلطات وقعت في القصائد الشعبية التي بقدر ما تفوت على اصحاب المطبعة بحكم جهلهم بعرفتها بقدر ما تفوت علي ايضاً لأنني حافظ لها غيباً مما يجعلني اقرأها بعقلي اكثر من قراءتي لها بعيني،واعتقد جازماً انه لولا وجود الاستاذ حمدالجاسر العالم بالأدب الشعبي كعلمه بالأدب العربي الذي ساعدني على تصحيح الكثير من هذا الكتاب لولا ذلك لوقع من الغلطات في القصائد الشعبية ما هو اكثر من ذلك .